

يوسف السباعي

■ من العالم المجهول

■ خبايا الصدور





# من العالم المجهول جنايا الصدور

يوسف السباعي

الناشر  
مكتبة مصر  
مطبعة دار المعارف  
شارع كامل صديق - الضواية  
٥٩٨٩٩٠١٥



## الاهداء .....

الى اهل العالم المجهول ....  
الى العفاريت والجن والاشباح والأرواح ....

اهدى كتابى هذا ، بلا سابق لقاء ولا قديم معرفة ، عله يكون فاتحة  
صداقة بينى وبينهم ... لينكرونى كما انكرهم ، ويؤكدون لى وجودهم ...  
فيرسلون الى - على سبيل الهدية - ماردا من عفارياتهم فى « قمقم » أو فى  
« خاتم » يتساعد شبحه مع الدخان الى عنان السماء ويهز صوته أرجاء  
الأرض ويصيح بى « شبيك لييك ... عبك بين يدك » ....

فاذا استعصت عليهم الهدية .. أو استكثروها على .. فلا أقل من أن  
يرسلوا الى « جنية » من جنياتهم حلوة الذات لطيفة المعشر ، تؤنس - اذا ما  
أرقت - وحشتى ، وتقصر ليلى ، وتهينى متعة مأمونة مضمونة لا متاعب  
ورائها ولا عواطف ، ولا زوابع .

هذا هو مطلبى المتواضع ... فاذا اببتموه على ، فاما أنكم بخلاء  
ناكرون للجميل .. أو أنكم - كما قلت دائما - لا وجود لكم الا فى أوهام  
المخابيل ... وان عالمكم المجهول ... عالم غير كائن .

يوسف السباعى



# مقدمة

أنا لا أو من بالأشباح والجن والعماريت ... وما كنت قط خبيراً بعلم الأرواح ، وما حاولت أن أبحث فيها قليلاً ولا كثيراً .. وما صادفت من الحياة إلا ناحيتها الظاهرة الملموسة التي تستنفد كل وقتي فتشغلني عن التفكير فيما عداها مما خفي واستتر .

ليس من السخرية بعد كل هذا أن أضع عن العالم المجهول كتاباً .. وأنا أجهل الناس به وأضعفهم إيماناً بما فيه .

اني أتوق لمخاطبة روح ... أو مصادفة جن ... أو مطاردة شبح ... حتى يتبدد من نفسي ذلك الشك الذي يحيط بكل ما وراء المادة من عالم مجهول ... وحتى استجلي ، ولو مرة واحدة ، تلك الأشياء الخفية المبهمة المجهولة الغامضة .

كل ما أعرفه عن العالم المجهول لا يعدو السماع ، فأنا أسمع عن أرواح تهيم ، وأشباح تطوف ، وعماريت تحوم وجنيات تعشق ... وكلها ظهرت لأتاس آخرين ... أما أنا فلا ... حتى لكان بيني وبينهم تنافر مستحكم ، وبغضاء مقبمة ، فهي تأتي لقائي والظهور لي .

اثنان وثلاثون عاماً .. لم أصادف فيها شيئاً عجيباً .. غير ملموس ولا محسوس .. ولا هبط على وحى انبأني بنبوة ، أو أطلعني على سر .. ولا حلمت حلماً يعنى شيئاً أكثر من ترديد لما أحسه في الحياة ، وأتسوق إليه . والمرة الوحيدة التي حاولت أن أجِد لأحلامي معنى .. وأتخذها قاعدة استنتج منها ما يوشك أن يحدث .. خذلتني خذلانا شديداً .. فقد حلمت ذات مرة قبيل الامتحان أنني رسبت ، فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسي ناجحاً ... وفي السنة التالية تكرر الأمر ... فادركت أن أحلام السقوط عندي لا بد أن يعقبها نجاح .. وفي العام الثالث حلمت أنني رسبت ، فرحت أغدو فرحاً مغتبطاً .. وكنت

أمقى شريات النجاح .. فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى راسبا - بلا ملحق - ... ألم أقل لكم بينى وبين أهل العالم المجهول صلة مقطوعة ؟

انى لأسائل نفسى فى بعض الأحيان .. احقا ستحشد الأرواح من عهد آدم حتى القيامة ؟ . وهل يحتمل العالم الآخر كل هذه الأرواح من بشر ، وكلاب ، وفقط ... ونحل ونمل .. وأسود وجراثيم ؟ اليس كلها كائنات حية ذات أرواح لا تقنى !

واذا كانت الأرواح تتبادل الأجساد . فكيف ينوى أن يقتسمها أصحابها .. ومن منهم أحق بها فى العالم المجهول ؟

ولم لا تكون نهاية الانسان بسيطة .. كنهاية كل شىء ؟ .. الفناء والعدم .

وتتواتر على الأسئلة الشيطانية وأنا صامت حائر لا أعرف لها جوابا ..

ومع كل هذا التخييط فى التفكير والجهل بالحقيقة ، يملكنى احساس بأن هناك أشياء خفية .. أشياء لا شك فى وجودها .. ولكن أذهاننا البشرية أعجز . من أن تدرك كنهها ، وأعيبى من أن تحيط بحقيقة كيانها .

ضلة للانسان .. ما جعل فى الحياة بشىء جهله بنفسه .. فهو ما زال يتخييط فى ادراك كنهه .. لا يكاد يعلم عن نفسه الا أنه شعاع يخبر ، وبارقة تضمر .. يشرف على عالم الفناء المجهول .. فلا يكاد يعرف من أسراره والغازه ، الا كما يعرف ذلك الجالس على شاطئء المحيط يطل فى بأطراف أصابعه .



ليجبنى محطم الذرة . من أين أتى ؟ .. والى أين يذهب ؟ .  
فلا أظنه بمجيب بأكثر من قول الخيام :

كم بذرنا حكمة الفكر البصير  
وسقيناها جيا العقل الغزير  
ما جنينا غير بهتان وزور  
ما علمنا غير أنا فى الملا  
شعل البرق خبث بعد التماع

يوسف السباعى





# حديث على القبر

وظللت اتعثر وراءه واخوض في  
أحوال المقابر ، والريح تصفر من  
حولى فى فحيح كربه كأنه همس  
الجن أو حديث الشياطين . والظلمة  
سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك  
الذى يسلطه الرجل من بطاريته .

جلست وصديقى الطبيب النفسانى ذات ليلة نقطع الوقت بالحديث  
والتدخين .. ونفت الرجل من فمه حفنة من الدخان تصاعدت الى الجو فى  
حلقات متلاشية .. وأخذ يتم حديثه قائلا :

«وهكذا ترى ياسيدى أنه ليس هناك أشد تعقيدا من النفس البشرية ، فقد  
علمتنى دراستى وتجاربى اننا مهما وصلنا فى علمنا وبحوثنا ، فلن نعلم عنها  
الا القليل . فهى غالبا ما تستتر وراء حجب زائفة لا تكشف عن حقيقتها .. فلا  
يكاد الانسان يبصر من سواء الا قشورا تحجب اللباب ، أو زبدا يستر أغوار  
النفس العميقة .

أجل ياسيدى .. ما جهل الآسمى كالآسمى .. فنحن لا نكاد نعلم عن  
بعضنا شيئا الا ما نراه من الظاهر الخداع .. أما الباطن المعقد المظلم  
الملئوى .. فما أشد جهلنا به .. حتى لأقرب الناس إلينا .. ولو استطعنا

الوصول الى اختراع نبصر به دخالل النفوس ونطلع به على خبايا الافئدة ،  
لراعا الفرق بين ما تضرر وما تظهر .. وهالنا التناقض بين ما تتكشف عنه  
الأعماق وما تبديه لنا المظاهر .

وصمت صاحبي برهة .. جنب خلالها نفسا طويلا من سيجارته . وأخذ  
يتأمل في الدخان المتصاعد كأنه يبصر فيه مناظر متجسدة .

وفكرت فيما قال ، فلم أجد به شيئا غريبا .. وخاصة بالنسبة لطبيب  
مثله اطلع على كثير من دخالل النفوس المريضة .. وتكشف له الكثير من  
أسرارها وخفاياها .. وقلت له معلقا على قوله :

- هذا كلام صحيح بالنسبة لمرضاك .. ولكني أرى فيه شيئا من  
المبالغة والتعميم .. فالإنسان لايعدم بعض الخلاء ممن تشدهم الحياة اليه  
برباط من الثقة والصدق .. وتضمه وإياهم أواصر المودة والاخلاص ،  
فتتكشف نفس كل منهم للآخر ، وتفتح صدورهم عن كل ما تبطن .. فتصبح  
النفوس ، وقدذاك ، صحفا سهلة مقروءة بلا تعقيد ولا تمويه .

وضحك الرجل ضحكة ساخرة وهز رأسه قائلا :

- لا .. لا .. ياسيدي .. ان النفوس لا تتكشف أبدا . أنها قد تظهر بعض  
ما بها .. ولكن لا تظهر كل ما بها .. لا بد لها من شيء يبقى في الأعماق ،  
ويرسب في القرار .. لا يبصره أحد .. لا صديق .. ولا غير صديق .

وصمت برهة وعاد يحملق ثانية في الدخان المتصاعد ، وشرذ به ذهنه  
كأنما يستجمع تكريات غابرة ثم عاد يقول :

- أجل .. ما أشد جهلنا حتى بأقرب الناس إلينا .. سأقص عليك قصة  
صديق .. قصة صديق لا مريض .. فقد كان كل ما بيننا صداقة خالصة ..  
وما فكرت في يوم ما أن بنفسه مرضا حتى أتولى علاجه .. بل كنت أجهده  
خير الناس .. وأسلمهم عقلا ونفسا وجسدا .

عرفته معرفة جيدة .. فقد كان يقطن بجوارنا في نهاية مصر الجديدة ..  
ورغم الفارق الظاهر بيننا في العمر ، فقد توثقت عرى الصداقة بسرعة .

كان طبيبا متقاعدا قد بلغ الستين من العمر ، وكان يقضى جل وقته :  
اما فى حديقة الدار الضيقة جالسا على مقعد خيزراني يتمتع بشمس الشتاء ..  
أو جالسا وراء النافذة البحرية يتمتع بنسمات الصيف .

وكان يعيش فى الدار وحيدا .. لايونس وحشته سوى خادم عجوز  
تهبىء له الطعام وترعى امره وأمر الدار .

ولقد أحببت الرجل من أول لقاء .. فلقد كان من ذلك النوع من الناس  
الذى يبدو لنا كالبلور الشفاف .. لاثوب نفسه شائبة ولا يعتم بريقها ضباب  
من مكر أو سوء ، أو بغض أو رياء .

كان رجلا ، لطيف المعشر ، حلو الحديث طيب القلب ، نقي  
السريرة .. حسن الظن بالناس الى حد قد يسميه البعض بلها .. وان كنت أنا  
لاأرى فيه الا سموا فى الخلق وعلاوا فى التفكير .

وتبادلنا الزيارات .. يوما بعد يوم .. وتعودنا أن نقضى سهراتنا سويا  
اما فى دارى أو فى داره .. نقطع الوقت بلعبة الشطرنج ، أو تبادل الأحاديث  
والأفاسيص .. أو فى سماع ما يستحق السماع من الاذاعة . ولم نكن تكلف  
أنفسنا مشقة الرسميات .. اذ كان تجاور الدور يهيبء لنا أن نتزاور بملابس  
الببيت وقد وضع كل منا «روبا» على كتفيه .. وجلس فى منزل صاحبه كأنه  
فى منزله .

وأثبتت لى الأيام حسن ظنى بالرجل .. بل لقد وجدته خيرا مما ظننت ،  
فقد كان مفرطا فى الطيبة ، مفرطا فى حب الخير .. الى الحد الذى يجعل  
طبيته نوعا من أنواع الشذوذ . ويجعل ميله للخير مصدرا لمعاقبه .. فهو أبدا  
قلق .. لايفتا يوخزه ضميره .. لتوهمه أنه كان يستطيع أن يفعل خيرا مما  
فعل .. فهو من ذلك النوع الذى نستطيع أن نسميه «عبد ضميره» .. وهو نوع  
متعب ، مجهد ، شديد القلق .

لاشك أن فعل الخير هو واجب كل انسان فى هذه الحياة ولكنى اعتقد  
ان الافراط والمبالغة فى أى شىء .. حتى فى فعل الخير .. يعتبر فى المرء  
نقيصة .. فهو يجعل من الانسان «عبدا» لذلك الشىء الذى نسميه الضمير ..

والذى يملأ نفوسنا بمركب الندم .. فيجعلنا نندم على كل شيء فعلناه ..  
ونتحمر لأننا لم نفعل خيرا مما فعلنا .

أجل ياميدى .. يكفي أن نعطي لمحتاج حسنة .. أما ان نندم فى كل  
مرة لأننا لم نعطه أكثر مما أعطينا فذلك مسألة لاتطاق .. ان الضمير شديد  
الطمع فى الانسان .. فيجب الا نعطيهِ الفرصة .. لكى يستعبدنا ويتحكم فينا ،  
ويكبلنا بأغلاله ، ويفسد علينا حياتنا .. ان الحياة أقصر من أن نقضيها ونحن  
نجر وراءنا سلاسل الضمير .

فمثلا .. كان ضمن ما يثقل على الرجل ويسبب له قلقا دائما - بلا ادنى  
سبب - أرملة صديق له تقطن فى نفس الشارع .. ولست أنكر أن من واجب  
الصديق أن يرعى زوجة صديق راحل ويقضى حاجتها ما استطاع الى ذلك  
سبيلا .. ولست أنكر أيضا أن الأرملة العجوز .. أو - الست شفيقة - كانت  
تستحق كل رعاية وكل عناية . ولكنى رغم كل ذلك لم اكن أجد مبررا لأن  
يثقل الرجل على نفسه بمثل ما أثقل عليها به .. وأن يحس دائما انه مقصر  
من أجلها ، ومن أجل صاحبه الراحل .. وانه لا يكاد يشعر براحة الضمير من  
فرط توهمه .. أنه لم يفعل من أجلها ما كان يجب أن يفعل .

ترى ماذا كان يستطيع أن يفعل .. خيرا مما فعل ؟ .. لقد كان جم  
العطف عليها ، والبر بها .. دائم السؤال عليها .. يرهاها كما يرعى الابن  
أمه ، والأب ابنته .. ولست أشك فى أنها لو كانت اختا له لما فعل أكثر مما  
فعل .

ولقد حاولت جهدى أن أسرى عنه ، وأفهمته أن للخير حدودا وأنه قد  
فعل أكثر من واجبه .. وأن أحدا من أصدقاء صاحبه لم يفعل نصف ما فعل ..  
ولكنه مع ذلك استمر على قلقه .. لقد كان «عبد ضميره» .. وكان لابد له أن  
يحس بالندم على شيء ، فلو لم يكن من أجل - الست شفيقة - لكان لأى سبب  
سواها .

وفى ذات يوم سألتنى رأى فى أنه يود أن يهب نصف دخله - للست  
شفيقة - حتى يعينها على العيش لأنه يحس أنها فى ضيق .. وأن معاشها

لايكاد يكفيها .. ولقد اصابني من قول الرجل دهش وسألته عما اذا كان جادا في قوله . فأجابني أنه جاد كل الجد .

وأحسست للرجل بتقدير بالغ واكبار شديد ، ولكني رغم ذلك لم أستطع موافقته ، فلقد كان هو نفسه في حاجة الى كل ملهم من دخله .. وكنت أعرف ان المرأة لاتشكر من شيء ، وأنها - كما قالت عندما صادفتها في زيارة له .. - تنعم بالستر ، وانها تشكر الله على فضله .. ولم يكن يبدو عليها مظهر ضيق أو عسر ولكن الرجل أصر على رأيي . ولم يسمع الى قولي .. فقد رأى ان هذا واجب عليه لابد من أدائه ، وانه مقصر لأنه لم يفعله قبل ذلك .

ورفضت الست شفيقة طبعاً ما عرضه الرجل ، وانبأته شاكرة أنها ليست في حاجة الى شيء ، فمعاشها يكفي كل حاجتها وأنها لاتطمع في خير أكثر مما هي فيه .

وفي ذات ليلة ، لأظن ذكرها ستمحي من ذاكرتي قط ، كنت أجلس والرجل في داري ، وقد استلقى كل منا على اريكة وأخذنا نستمع الى حفلة غنائية تذاع لأم كاثوم . وكانت ليلة من ليالي الشتاء الشديد القرم ، التي نعصف ريحها فيسمع لعصفها صفير وفحيح .. وقد جلس الرجل امامي مثلاً جسمه النحيل برداء من - صوف الجمل -- وتلفح بكوفيه أحاطت رأسه وعنقه ونصف وجهه ، ووضع على عينيه منظاره السميك ، وتهدل شاربه الأشيب مغطياً شفتيه ، وبدت شعرات بيضاء متناثرة حول ذقنه ، وبرزت عظام وجنتيه ، وأغمض عينيه نصف اغماضة ، وأخذ يهز رأسه ببطء ، ويضرب الأرض بقدمه متمشياً مع الأنغام .

ورويدا رويدا .. رأيت ضربات قدمه تخف ، وهزات رأسه تبطؤ ، وأغماضه عينيه تزيد .. حتى سقط رأسه على صدره ، وعلا شخير ، وتملكه سلطان النوم . ولقد تعودت من الرجل تلك الطريقة في النوم .. وتركته في غفوته حتى انتهت الوصلة الغنائية .. فاستيقظ من تلقاء نفسه .. فلقد كان الانتقال من الضجيج الى الصمت يوقظه ، وهتفت به ضاحكاً :

- صبح النوم .. يا أحمد بيه .

- أى نوم ؟ .. لقد كنت فى تمام اليقظة .

وكان هذا هو رده الدائم .. فما كان يعترف قط بأنه نائم ، ونهض من مجلسه ورافقه حتى الباب وودعنى عائدا الى داره .

ومضت ربع ساعة كنت خلالها قد تمددت فى الفراش ، وبدأت عيناي تغفو .. ونهضت فزعا عندما سمعت طرقا على الباب .. وأسرعت اليه ففتحته ، وإذا بالرجل قد عاد مرة أخرى .. وخشيت أن يكون قد أصابه شئ ، فهتفت به فى قلق :

- أدخل .. ما بك ؟

ودلف الرجل الى الداخل ، وأقفلت الباب فى عجلة ، فقد كانت تنفذ منه ريح باردة تلسع العظام .. وتأملته على ضوء مصباح الصالة ، فوجدته قد ارتدى ثيابه الكاملة .. بدلته وطربوشه ، وحذاه ، ومعطفه الأسود الثقيل ، ولف وجهه جيدا بالكوفية .

وصمت الرجل برهة ، ثم قال فى صوت ملؤه القلق والتردد :

- لقد .. لقد نسيت شيئا . شيئا هاما .

وبدت على ملامحه تلك العلامات التى تنبئ بأن ضميره الطامع فى خيره قد عاد يثقل عليه كعادته ، وأحسست بالشفقة عليه .. ان الرجل خير منا مائة مرة .. ومع ذلك فان ضميره غير قانع .. انه يريد أن يكون خيرا مما هو .. ترى ماذا به هذه المرة ؟

وقلت أسأله فى رفق :

- ماذا نسيت يا أحمد بك ؟

- نسيت أمرا هاما .. كان يجب أن انتهى منه . ولكنى اعتقد ان الفرصة لم تذهب .. ما زال هناك بعض الوقت .

وصمت برهة ثم عاد يتمتم مترددا :

- هل .. هل استطيع أن استعير عربتك .. فلاشك أنها ستسهل لى

المهمة .



وسألته فى دهشة :

- تريد ان تخرج بالعربة الآن .. فى هذه الساعة المتأخرة وفى هذا الجرم  
المكفهر ؟

وكان المطر قد بدا يتساقط .. ووصل الى آذاننا صوت قطرات الماء  
تقرع زجاج الباب .. ووجدت أن من الجنون أن أوافق الرجل على ما يطلب ،  
فأعطيته العربة ليقودها وحده فى تلك الساعة من الليل وفى زلق الطريق ..  
وأنا غير واثق من قدرته على القيادة .. انى لاشك أكون ملقيا به الى التهلكة .  
وبدا لى الرجل فى حالة اضطراب شديد .. فقلت له مهننا ، وأنا أقوده الى  
الداخل :

- تعال نجلس برهة .. اشرح لى المسألة .

- المسألة لاتحتاج الى شرح .. انى أريد عربتك لقضاء حاجة .

- ولكن من الجنون أن أدعك تقود العربة الآن وانت فى مثل هذه الحالة  
من الاضطراب .

وأطرق الرجل فى حزن ، ثم قال بصوت خفيض :

- حسنا .. أستطيع أن أجد وسيلة أخرى .. أو اذهب حتى سيرا على  
الأقدام .

-- ولكن فى هذه الساعة ؟ .. كلا .. ان هذا جنون .. لم لانتظر حتى  
الصباح ؟

ولكن الرجل لم يجب .. وظهرت على وجهه علامات الاصرار .. ومد  
يده الى مودعا .. وهم بأن يتجه نحو الباب ولكنى لم أترك يده .. فقد وجدت  
ان من الحمق أن اتركه وحده .. وعدت أقول له :

- اذا كان لابد لك من العربة .. فسأتى انا معك لقيادتها .. اما ان  
أعطيها لك لتقودها وحده ، فهذا ما لن أفعله قط .. ما رأيك ؟

وصمت الرجل برهة ثم أطرق برأسه قائلا :

- حسنا .. هيا بنا .

وأسرعت بارتداء ملابسى وقد تملكنى خليط من السخط والدهش ..  
السخط على الرجل الذى حرمنى من النوم .. واضطرنى الى الخروج فى مثل  
ذلك القدر والمطر .. والدهش مما يريد ان يفعله فى مثل هذه الساعة .. ولا  
يحتمل التأجيل حتى الصباح .

وبعد لحظات كانت العربة تنساب بنا فوق الأرض اللامعة التى صقلها  
المطر .

وأخذت قطرات المطر تضرب زجاج العربة ، وبدا لى الطريق ، وقد  
امتدت على جوانبه المصابيح الخابية الضوء ، الناعسة الطرف من خلال  
الفتحة المثلثة التى رسمها أمامى الماسح الذى أخذ يروح ويجىء ماسحا الزجاج  
مما علق به من شوائب المياه ، وسرنا بالعربة مخترقين شارع الخليفة المأمون  
ثم شارع العباسية كما طلب منى الرجل ، حتى وصلنا الى تقاطع شارع سعيد  
بشارع العباسية .. ثم طلب منى أن اتجه الى اليسار .. ولكنى سألته فى  
دهشة :

- إلى اليسار ؟

- أجل ..

ولم يكن الطريق الى اليسار ليؤدى الا الى قلم المرور ، أو مقبل  
الزبالة ، أو عرافة الغفير .. ولم أستطع أن أفهم ماذا يمكن أن يكون غرض  
الرجل من الذهاب الى أى من تلك الأماكن فى هذه الساعة من الليل .

واتجهت الى اليسار كما طلب ، وأنا أحاول عبثا أن أستنتج ماذا ينوى  
الرجل فعله ، وأخذ الرجل يوجهنى بمنة ويسرة .. وأنا أحملق فى الطريق  
حتى وجدت العربة فى طريقها بين المقابر .

أنا لست بالرجل الجبان .. ولا بالرجل الذى يتوهم وجود الأشباح  
والعفاريت .. ولا حتى بالذى يحس للموت برهبة أو خشية .. بل أنى اعتبره  
نهاية حتمية لكل كائن .. وعلى هذا فليس للمقابر فى نفسى أى أثر وهمى ..  
لأنى لا أعتبرها أكثر من صناديق للقمامات .. القمامات البشرية . أو المخلفات

الانسانية أو الرمم والعظام المختلطة بأديم الأرض .. هي «مقلب الزبالة»  
سواء .

ولكننى رغم ذلك لم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى بدننى وأنا أجد نفسى  
بين المقابر ، وقد احاطتنى ظلمة حالكة الا من شعاع مصباح العربى الذى  
يخترق طريقه فى الظلمة حتى يقع فى النهاية على قائم أحد القبور .  
وطلب منى الرجل أن أف ، ثم رأيته يفتح باب العربى وينزل الى  
الطريق .

ثم يطلب منى أن انتظره ريثما يعود ..

وخشيت عليه أن يصيبه اذى ، فقفزت من العربى وسألته الى اين ..  
وماذا ينوى أن يفعل ، فقال لى أنه سيفيق عنى عشر دقائق أو ربع ساعة  
على الأكثر .. ولكنى لم أتركه بل أخذت أتبعه ، ورأيت قد أخرج من جيبه  
بطارية صغيرة يتبين طريقه على ضوءها . وظللت أتعثر وراءه واخوض فى  
أوحال المقابر ، والريح تصفر من حولى فى فحيح كريبه كأنه همس الجن أو  
حديث الشياطين .. والظلمة سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك الذى يسلطه  
الرجل من بطاريته على رؤوس المقابر .

وأخيرا توقفت أمام باب خشبى ، ودفعه بيده ، فأحدثت مفاصله الصدئة  
صليلا مخيفا بعث القشعريرة فى بدننى ، ودفد الرجل الى الداخل ، فحاولت  
أن اتبعه ، ولكنه توقف فى طريقي وسألنى مستعظفا :

- أرجوك ان تنتظرنى هنا .. دعنى أدخل وحدى .

ولست أدري ماذا كان يدفعنى وقتذاك الى أن أصر على اتباع الرجل  
حتى النهاية .. أم خوفى عليه أم حب الاستطلاع الذى كان قد بلغ عندى  
وقتذاك أشده .. أم هو خليط من هذا وذاك .

وأجبت الرجل باصرار وعناد :

- ان ادعك وحدك أبدا .

وصمت الرجل برهة ، ثم أطرق برأسه وقال بصوت خفيض :

- اذا فلا تضحك على .. أرجوك .. سأدخلك بشرط الا تسخر منى ..  
قد يكون فيما سأفعله شيء يبعث على الضحك والسخرية ولكن اؤكد لك أن  
هذا واجب أؤديه .

وافسح لى الطريق ، وأخذ كلانا يسير الى الداخل حتى وصلنا الى قبر  
قد تسلقته احدى :باتات انصبار .. ورأيت الرجل قد توقف ورفع كفيه الى  
السماء واخذ يتمتم قارنا «الفاتحة» ، فقلدته فيما فعل . وما انتهيت حتى بدا  
يوجه الى الحديث فى صوت هامس :

- ان بينى وبين صاحب القبر موعدا للقاء ، فى مثل هذا اليوم من كل  
عام ، وهو يوم وفاته .. وكل ما أرجوه هو الا يكون قد قلق من طول الانتظار  
وطن أننى قد نسيت الموعد فانصرف .. انه صديقى «ابراهيم» افندى زوج  
«الست شفيقة» .. لقد كنا خير اصدقاء .. ولقد اتفقنا قبل أن يموت على أنه  
اذا مات احدنا قبل الآخر فعلى الباقي على قيد الحياة ان يزوره مرة فى كل  
عام لكى يحمل اليه أخبار الدنيا وما حدث فيها خلال العام ولقد وفيت بوعدى  
كل السنين السابقة .. ولكنى كنت أنسى الموعد اليوم .. حمدا لله .. انى قد  
تذكرت .. ماذا كان يقول الرجل عنى لو لم أحضر ؟

وعصفت الريح فدفعت الباب دفعة قوية وتمكنى من صوت اندفاع  
الباب خوف مفاجئ .. ورفع الرجل سبابته الى شفثيه طالبا منى الصمت ،  
ثم سمعته يقول بصوت مرتفع : «السلام عليكم» .

ولم يجبه أحد ولكن الريح أخذت تعبث بالباب المفتوح فأحدثت به عدة  
طرقات بدت كأنها رد للتحية ، وأخذ الرجل يتم حديثه والريح تقرع الباب  
بين آونة وأخرى .. قرعات عادية جدا .. كما تفعل الريح دائما بكل باب أو  
نافذة مفتوحة . ومع ذلك فقد بدت القرعات وتذكرك كأنها اجابات لحديث  
الرجل .. وكانت تبعث فى جسمى قشعريرة خوف .

وأخذ الرجل يخاطب صديقه صاحب القبر قائلا :

- ان معى اليوم صديقا عزيزا .. الدكتور محمود .. رجل لطيف ذو

مروءة .

وقرع الباب كأنما يحمل اجابة الروح - تشرفنا - أو - أهلا وسهلا -  
وعاد صاحبي يتابع حديثه قائلا :

- سأبدأ فى قراءة الأخبار .. لقد دونتها كعادتى حتى لا أنسى منها  
شيئا ..

ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية ونشرها أمام عينيه ، ثم خلع منظاره  
ومسحه بطرف منديلته ، وبدأ يقرأ ممسكا الورق باحدى يديه ، مسلطا ضوء  
البطارية على الكلمات باليد الأخرى .. قال الرجل :

- الأخبار الداخلية .. لا جديد ينكر .. البلد ما زالت كما هى ..  
الحكومة فى واد والشعب فى واد .. الحكومة فى وادى العز والسلطان والجاه  
والأبهة .. والشعب فى وادى الفقر والبؤس والمرض والجهل .. الوزارة  
هى .. هى .. يقول المعارضون أنها تموت غدا .. وتقول هى انها تعيش  
أبدا .. ذهبنا الى مجلس الأمن .. وشكينا وبكينا .. وتوصلنا الى الذئاب ان  
ينقذونا من أخيهيم الأسد .. وقلنا لهم انه شبع فينا عضا .. ونهشا ، وأنه يوشك  
أن يلتهم نصفنا الأسفل ويتهم نصف أحشائنا .. وغضبت الذئاب .. لا على  
الأسد بل علينا .. لاننا ناكرون للجميل .. حاثنون بالعهد .. وقالوا لنا خير لكم  
أن تتفاهموا مع أخينا الأسد مباشرة .. تفاهموا معه وأحشاؤكم بين أسنانه ..  
وعنقكم فى فكيه .

عدنا من مجلس الذئاب .. مهللين مكبرين .. لم ؟ لا ادرى والله .. هذه  
مسألة لازلت أفكر فيها حتى الآن .. وقد استطيع أن أحدثك عنها فى العام  
القادم .. عدنا عودة الغزاة الفاتحين .. رغم ما نالنا من فشل وهزيمة .. وعلقنا  
الاعلام ونصبنا الزقف ولعل ذلك من باب التفاريح والعزاء .. ان احدا لا يلومنا  
على الهزيمة .. ولكن اللوم كل اللوم على أن نفرح بالهزيمة .. ونجعل منها  
أمام أنفنا انتصارا ..

وأعطت الوزارة نفسها الخازوق الأكبر .. ولم تستقل ولو استقالت  
وقتذاك لاستطاعت أن تحتفظ بما كسبته مدى الدهر ولأوضحت للناس أنها  
كانت جادة فيما قالت فى مجلس الأمن وأنها أتت بما لم تستطعه الأوائل ..

ولكنها لم تفعل بل أغراها السلطان أو أغريت به .. وبدأت تخسر ما كسبته شيئاً فشيئاً .. وبدأ للناس ان كل ما فعلته مظاهرة أو مزبوعة فى فئانء .. وبدأت هى تلوذ بسياسة عجيبة .. هى سياسة التءاهل ..

لقد كان الانءليز يتءاهلوننا .. فأصءحننا نتءاهلهم .. ترى هل هناك أى فارق فى النتءية .. هل هناك فارق بالنسبة للمءدين .. بين أن يتءاهل هو الدائن أو يتءاهله الدائن ؟ .

لقد أغرءتنا بعد ذلك سياسة التءاهل .. التءاهل من كل ناحية .

فالأءليز يتءاهلوننا ويفعلون: ما يشاءون .. ونحن نتءاهلهم فنءض الطرف عما يفعلون .

اما الأخبار الخارجية .. فلا شىء جديد .. لا جديد أبدا .. ان التاريخ البليء يعيد نفسه كأنما يعطينا من الماضى القريب صورة (طبق الأصل) منه بالكربون .. نفس المطامع ونفس التطلءن ونفس التكنل .. ونفس مهزلة عصابة الأمم .. التى سميت الآن هيئة الأمم .. لاجءيد أبدا .. ان البشر مازالوا كما هم .. حقمى مجانيين .. كيف يغير التاريخ وجهه .. وهم لا يغيرون ما بأنفسهم .

وصمت الرجل .. ورأبته يطوى الورقة ويضعها فى جيبيه وصمت برهة ثم يعاود الحديث قائلاً :

- بقى لى معك حديث خاص .. أوء أن أسر اليك به لقد ترددت كثيرا قبل أن أفنم على قوله .. ولكنى صممت فى النهاية على أن أقوله .. فانى لا أستطيع أن أءتمل عاما آخر من وءز الضمير .

هل تنكر وفاتك ؟ .. طبعاً تنكرها .. لقد كانت عقب مرض طويل .. توليت أنا علاءك منه . ولاشك أن وفاتك قد بءت طبيعية لكل الناس .. حتى لك أنت .. ولكنها لم تكن كذلك .. انى أءمل نفسى مسئوليتها .. أنا لم أءلك بالطبع وأنت تعلم ذلك .. ولكنى أءبءر نفسى مسئولاً عن موئك .. اننى قاتل أمام نفسى فقط .. كنت أستطيع أن أمنع وفاتك .. أو على الأقل أؤجلها ..

كنت أستطيع ان اناحك فترة حياة أخرى .. ولكنى لم أفعل .. بل تركتك تموت .. كنت أستطيع أن أبذل جهدا أكثر مما بذلته من أجلك ، ولكنى لم أبذل .. لأنى كنت أريدك أن تموت قبلى هل تدرى لم ؟ .

انك لاشك تذكر زواجك .. لقد كان ذلك الثلاثين عاما .. منذ زمن طويل .. ولكنى مع ذلك لم انسه قط .. فلقد كان صدمة لى .. لأنى كنت على وشك أن أخطب «شفيقة» .. فلقد أحببتها كما لم يحب انسانا .. ولكنك سبقتنى اليها ففزت بها ، وبوت أنا بالخيبة والخذلان . تزوجتها انت ، ولاشك أن حبك لها - ان كنت قد أحببتها - قد خبا على مر الأيام .. أما أنا فقد أبقي الحرمان على حبى ، فما انطفأت جذوته ولا خبا لهيبه . ولم أقدم على الزواج ، بل عشت وحيدا ، لأنى لم أكن أجسر على التفكير فى أن أتزوج سواها .

ومرت الأيام والسنوات ، وقد طويت حبى بين الحنايا .. وقنعت منه بصداقة خالصة لا تشوبها شائبة .. فأخلصت لك ولها ، راضيا لحكم القدر .. راضيا بما وهبنى اياه .. حتى بدأ الهرم يدب ثلاثتنا ، وما زال حبى كما هو .. ومرضت أنت ومال بك المرض .. وأنا أتولى علاجك والعناية بك .

ولقد سألت نفسى ذات يوم .. ما النهاية .. وكيف المصير .. هل قضى على بالحرمان مدى العمر ؟ هل قدر لى أن أخرج من الحياة صفر اليدين .. وساورنى اذ ذاك خاطر بعث فى نفسى بعض الأمل وبعض العزاء .. لقد قلت لنفسى انك قد تخرج من الحياة قبلى .. فيخلو لى الطريق وأستطيع أن أمتع نفسى المحرومة .. بضع لحظات فى نهاية العمر .. أستطيع أن أدفء القلب المعزور بأشعة الشمس الغاربة الهاربة .

وقوى مرضك هذا الأمل فى نفسى .. وأخذت انتظر فى هدوء وسكينة .. أن تتفضل وتترفق بى .. وتغادر الحياة .

ولكن مرضك قد طال .. وبدأ القلق يساورنى .. وتملكنى خوف من أن يسخر منى القدر فيخرجنى من الحياة قبلك .. وأغادر الحياة كما دخلتها ، محروما محسورا .

وبدأت أقدر الموقف .. فوجدت أنك قد نعمت بها - أعنى بزواجك  
ثلاثين عاما .. وانك قد أخذت من الحياة قدرا كافيا وفزت منها بنصيب  
الأسد .. وانك الآن لم تعد تتمتع منها بشيء فان حياتك مع المرض الذى  
اعتراك ، حياة ضيق وتيرم .. وأن خروجك من الحياة خير لك .. ولى ..  
فلاشك أنك لن تأبى على - وأنت الرجل الكريم - أن تهبنى بضع سنوات من  
خريف الحياة بعد أن تمتعت أنت ببهجة الربيع وازدهاره .

وهكذا اقتعت نفسى .. أن كل جهد أبذله لاطالة حياتك هو جهد ضائع ..  
لأنى أبك لحظات لن تجدك نفعا ، ولكنها تسبب لى خسارة .. أجل لقد كنت  
أبك لحظات من حياتى ومن متعتى .

وبدأت أترأخى فى علاجك .. فقل جهدى .. ولم أعد أقبل على العناية  
بك بنفس الاخلاص ونفس الرغبة .

ولست أدري ان كان ذلك التراخى منى قد عجل بنهايتك ، أم أن أجليك  
هو الذى قد حان .. ولكن الذى أدريه هو انى قد ذهبت اليك ذات صباح  
فوجدتك قد فارقت الحياة .

وبكىك كما بكىك زوجتك .. بكىك مخلصا .. فلقد أحزننى فقدك .  
ولم تستطع تلك الرغبة الخفية فى الخلاص منك ، وفى أن تسبقنى الى  
الخروج من الحياة .. أن تخفف لوعتى على فراقك فقد كانت صداقتنا صداقة  
عمر .. وكنت أحبك .. فما رأيت منك الا كل خير وكل صنيع حسن .

ومرت الأيام بعد موتك .. وكنت أحس دائما بنوع من تأنيب الضمير ..  
تزداد وطأته كلما أبصرت بزواجك .. ورأيت حزنها ووجنتها .. وبدأت أشعر  
أن واجبى الأول هو أن أعينها فى حياتها .  
ولقد خلا لى الطريق بعد ذهابك .. ولكنى وجنته شديد الظلمة  
والوحشة ، ولم أر له البريق الذى كنت اتخيل .

ومع ذلك - ولا أكتكم القول - اننى لم أستطع أن أقاوم تلك الحماسة  
التي دفعتنى الى أن أسألها الزواج .. فأدهشها قولى .. ولم يسعها الا أن  
تردعننى برفق وعطف .. كأنها أم حنون .



انى أحس أنها تعيش فى ضنك ، ولقد حاولت أن أعينها بشيء تافه من المال .. ولكنها أبّت .. ولشد ما يثقل على الاستطيع معاونتها وأن أشعر أننى كنت السبب فيما أصابها .

لقد كنت مخطئا كل الخطأ فى اخراجك من الحياة .. فانى أشقيتها دون أن أشعر نفسى بأية سعادة .. وبت أحس أنى قد أجزمت فى حقك وفى حقها وفى حق نفسى .. وثقلت على وطأة الضمير .. وبخيل الى أن هناك طريقا واحدا لاصلاح ما أفسدت ، لقد فرقت بينكما فليس هناك ما أستطيع التفكير به عما فعلت سوى أن أجمع بينكما مرة أخرى .

ولقد كان بودى أن أعيدك اليها .. ولكن هذا - كما تعلم أنت خير العلم - أمر يستحيل على عمله .. وعلى ذلك فلم يبق أمامى سوى أمر واحد .. وهو أن أعيدها إليك .. فذلك شيء أظننى أستطيعه .. أجل انى سأرسلها اليك فى أقرب فرصة أقرب مما تتصور .. وسأصبر أنا على فراقها وأتجلد وليعنى الله على احتمال الحياة .. حتى يخرجنى منها اليكم .

★ ★ ★

وصمت الرجل .. وسمعت الريح تفرع الباب بشدة .. ورأيت يرفعه يده بالتحية قائلا «السلام عليكم» .

واتجهنا الى الباب ، وسرنا فى صمت ، وقد تملكنى دهش شديد ، وأخذت أستعيد لنفسى ما قاله الرجل .. فهالنى الأمر .

ان الرجل - كما اعترف أمام القبر - رجل قاتل .. وهو على وشك أن يقدم على ارتكاب جريمة أخرى .. وهى كما يسميها اعادة المرأة الى زوجها الذى أخرجه من الحياة .

ولم أشك وقتذاك فى أن الرجل مجنون .. وأن أول ما يجب على القيام به هو أن أنقذ من برائته - الست شفيقة - التى بنوى أن يخرجها من الحياة فى أقرب فرصة .. وبعد أن أنقذها أبلغ عنه ليرسلوه الى مستشفى المجاذيب .

ووصلنا الى الطريق وسارت بنا العربية دون أن ينبس أحدا ببنت شقه حتى وصلنا الى دورنا ، وشد الرجل على يدي مودعا وعاد الى بيته .

ولم أذهب الى دارى بل انطلقت الى دار الست شقية .. لقد كنا حقا فى ساعة متأخرة من الليل .. ومن الحمق أن أوقظها فى ذلك الوقت . ولكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت .. ان الرجل المجنون قد عزم على أن يلحقها بزوجها .. فى أقرب فرصة .. أقرب مما نتصور .

وقرعت بابها .. ولم يجبنى أحد فى بادىء الأمر .. ولكنى بعد لحظات أحسست خطوات ثقيلة تقترب من الباب وتفتحه وأطل على وجه الخادم .. وقد بدا عليها ذعر شديد .. وسألتنى عما بى وعما أريد .

فقلت لها فى عجلة : انى أريد أن أرى سيدها فى أمر هام ، فأجابتنى فى دهش : انها نائمة وأنها لا تستطيع إيقاظها . ولكنى أصررت على أن توقظها . وقلت لها أن المسألة خطيرة جدا .

واغلقت الخادم الباب ، وعادت الى الداخل .. ووقفت فى الخارج أنتظر الرد فى ضيق وقلق .

وفجأة سمعت صياحا وولولة ، ورأيت الخادم تهرول نحو الباب وتطل على لتخبرنى بالكية .. ان سيدها قد ماتت .

لقد تركت الحياة .. أسرع كثيرا مما تتصور .

★ ★ ★

وصمت محثى .. وطال به الصمت وهو يحلق فى الدخان المتصاعد من سيجارته .. وبدا لى كأنه قد انتهى من قصته .. وقطعت عليه صمته متسائلا :

- والرجل ؟ ماذا فعلت به ؟ .

- لا شيء .. وماذا كنت أستطيع أن أفعل به .. وقد خرج هو الآخر من الحياة قبل شروق الشمس .. أجل ياسيدى لقد مات الرجل فى نفس الصباح .

- أمر عجيب !

-- عجيب .. وغير عجيب .. ان المسألة كلها لا تعدو أن تكون طبيعية ، لا جريمة فيها ، اذا حاولنا أن نفحصها من الناحية المنطقية المعقولة .. وهى مسألة عجيبة اذا ما حاولنا ان ننظر اليها من وجهة النظر الأخرى وجهة نظر الرجل نفسه .

فإذا حاولنا أن نفسر ما من الناحية الاولى فاننا نجد ان الزوج الراحل قد مات موتة طبيعية نتيجة لمرض عادى ، ولكن صاحبنا الطبيب ، وهو كما قلت لك ، مصاب بمرض الضمير أو من النوع الذى نسميه بعيب الضمائر ، الذين يحسون بندم على كل ما يفعلون قد تخيل له أنه قصر فى علاج الزوج وأن تقصيره هذا قد سبب وفاته .. واستمر ضميره يثقل عليه حتى أصابه بنوع من الجنون .. هيا له أن يقتل المرأة ليبعث بها الى زوجها فى الحياة الأخرى .

ومصادف أن ماتت الزوجة فى تلك الليلة موتة طبيعية .. ثم مات هو فى الصباح نتيجة لذلك الجهد الذى بذله ، ونتيجة لتعرضه للصقيع والمطر .

هذه هى كل المسألة لا عجب فيها ولا غرابة .

أما اذا حاولنا أن نراها من وجهة نظر الرجل ، فاننا نجد فيها مسألة عجيبة حقاً فالرجل قد قتل الزوج خوفاً من أن يموت هو قبله فلا يستطيع أن يتمتع بالمرأة التى أحبها ولو حتى فى خريف العمر .. ثم ندم على ما فعل ، وأشقاءه حزن المرأة ورفضها زواجه فألحقها بزوجها .. متخيلاً أن فى ذلك راحة لها وتكفيراً عما فعله بزوجها .. وزادت عليه وطأة الضمير .. فلم تشرق عليه شمس اليوم الا وقد الحق نفسه بالسابقين .

ويخيل الى أننا لو أردنا أن نختم القصة على لسان الرجل أو لو استطاع

أحد أن يوجد بجواره فى تلك اللحظة التى أقدم فيها على الانتحار ، لسمع منه  
تتمة ذلك الحديث الذى القى به على قبر الزوج الراحل :

«لقد أرسلتها اليك .. انكما لاشك تسعدان الآن بقاء ممته انى احسن  
بوحشة الحياة .. ومرارة الفراق .. وأحاول أن أصبر وأتجلد .. ولكننى لا  
أستطيع .. لقد قضيت حياتى محروما ، ولكن خير ما كان يعيننى على الحياة  
هو احساسى بوجودها وانى أستطيع أن أراها وقتما اشاء وأحس بعطفها على .  
اما الآن فماذا يعيننى على الحياة .. ماذا يغرينى على البقاء فيها ..  
لا .. انى لا أحتمل الوحدة .. انى قائم اليكماء .

★ ★ ★

# أَرْوَاهُ قَائِمًا

تعالى معنا .. والى به فى اليم أو  
بعثره على الربى .. انك لن تستطيع  
أن تبتاع به شروق شمس أو حب  
قلب .

اشتدت الزواجع من حولها ، وزاد عصف الريح وزفير الأنواء ..  
وأحست كأنها تهيم فى فراغ شديد الحلقة ، معتم الدياجير .. وتلفتت حولها  
فى فزع تنلمس ملاذا تلوذ به ، أو مقرا تستقر فيه .. فلم تجد سوى الفراغ  
والظلمة . وأخيرا رسا القارب على الشاطئ ، محدثا قرعة شديدة ، سرت  
منها فُشعريرة فى بدنها وخيل إليها أن الشاطئء السخري قد حطم القارب  
ومزقه اربا .

وبعد برهة وجدت نفسها وحيدة على الشاطئء وقد خيم من حولها  
الظلام ، وساد السكون الا من هممة الريح وهدير الموج ، وتلفتت حولها  
فلمحت على ضوء القمر الخافت شبحا يقترب منها ما عتمت أن ميزت فيه  
توأم نفسها وصنو روحها ، فندت عنها صرخة خافتة وعدت اليه لترضى بين  
احضاناه ..

وضمها صاحبها الى صدره فى رفق وحنان ، وهمس فى أُنْهها بصوت  
يفيض رقة وولها :

- ما كنت أحسب ، يا حبيبتي ، أننا سنلتقى مرة أخرى . لقد كنت أحس بفرط الوحشة ، وكنت أسير كضال في ببداء مقفرة مجذبة ، لا ماء فيها ولا رواء .. كنت أهنف باسمك في كل خطوة أخطوها .. ما دعوت الله بأجر مما دعوته لكي يعيدك الى . سلى الرمال كم مستها جبهتي سجودا لله من أجلك .. سلى الريح ، والصخور ، والمياه ، أن كانت تعي شيئا غير اسمك وصلاتي من أجلك .

- صلاتك من أجلي .. وصلاتي من أجلك .. أجل يا حبيبى . أنا أيضا ما فعلت شيئا سوى الصلاة لكي أعود اليك ان الله ، يا حبيبى رحيم لا ينسى عباده المحبين المخلصين الأوفياء البررة .. كم جاهدت وكم كافحت .. لكي أصل الى الشاطئ .. كانت الفرقة مضمينة والبعد مريرا .. كنت أريدك .. أريد همساتك الحنون وصدرك الدافئ .. كنت اريد ضمة ذراعيك ، ومسة شفتيك .. وكنت أومن بك ، وبقوة الصلة التي تشد أحننا الى الآخر .. فلم أدع اليأس يتطرق الى قلبى لحظة واحدة .. وقلت لنفسى انى عائدة اليك حتما .. وحملت الى الريح هتافك ودعاءك ، فشد من أزرى وقوى من عزيمتى ، حتى استطعت فى النهاية أن أصل اليك وأرتدى بين ذراعيك .

وضمها اليه بشدة كأنما يخشى أن تفلت منه مرة أخرى .

ومضت لحظة لم يعد يسمع فيها الا أنفاس تتردد فى سكون الليل .

وأطل القمر من كبد السماء ، فبدد السحب الداكنة وغمر المكان بأشعته الفضية ، فبدأ مباحرا خلأبا .. وهذأت الريح الا من نسيمات رطبة رقيقة تمس وجهيهما برفق وحنان .

وتلفتت حولها ، مأخوذة بسحر الليل الساجى والقمر الفضى ، وهتفت

: به

- هذا الشاطئ العجيب ! ما ظننته قط بتلك الروعة وذلك السحر . ليخيل لى أن كل ما نحن فيه لا يعدو أن يكون حلما !

وأسرع هو .. فألصق شفتيه بشفتيها وقبلها فى صوت مسموع ، وأجاب

: ضاحكا :

- أما زلت تصرين على أنه حلم !

- انى ..

ولكنها لم تتم حديثها .. فقد قطعه صوت يصيح بهما فى حدة :

- هاى .. أنت .. هناك !

وتلفتا فى دهشة الى مصدر الصوت ، فأبصرا شبحا ضئيل الحجم ،  
على قمة احدى الربى المطلة على الشاطئ .. وعاد الصوت يصيح متسائلا :

- هل أبصرتما رجلا يحمل على ظهره كيسا ضخما ؟

وأجابته بالنفى .. فأخذ يهبط تجاههما فى خطوات سريعة حتى وصل  
اليهما .. وبدا لهما من قرب ، حاد التقاطيع ، متوتر الأعصاب .. يضع على  
عينيه منظارا مذهب الاطار . وعاد الرجل يسأل فى نفس اللهجة الحادة  
الغاضبة :

- أى مكان هذا ؟

، وأجابه صاحبها فى لهجة هادئة :

-- جزيرة القدر .

-- جزيرة القدر ؟ كفى عيئا .. لقد كنت فى طريقى الى «البلك» .. لعن  
الله هذا الضباب المتراكم .. لقد أضلنى الطريق .. ولكن أين ذهب هذا الأحمق  
بالكيس .. لعنة الله عليه .

ثم خفف من حدته ، وعاد يقول بلهجة ملؤها التوسل :

- أرجوكما .. اذا ما رأيتماه أن تبلغاه انى أبحث عنه وأن ينتظرنى هنا  
بجوار الشاطئ .

وسار الرجل فى خطوات متباطئة .. فاخفى وراء الربوة التى ظهر  
منها .

وأمسك صاحبها بيدها وضغط عليها برفق وهمس قائلا :

- والآن يا حبيبتي يجب أن نعود .  
- نعود .. ولكننا لم نفعل بعد .. ما أتينا من أجله ؟  
- لقد أخطأنا المكان .. لن نستطيع ان نعقد قراننا هنا . فاني لا أبصر  
سوى قفر فى قفر ، ولا أظن أن هناك مخلوقا واحدا يعيش هنا .  
- أخطأنا المكان ؟ .. كيف ؟ .. انى اسمع صوت موسيقى .. انصت  
معى .. انها لاشك موسيقى عرسنا .  
- لا .. لا أظن .. انها خدعة من تمويه الرياح .. أو هدير الأمواج .  
وتأبطت ذراعه وبدأ سيرهما على الشاطئ .. وقالت وهى تحملق فيما  
حولها :

- هذا الضباب الكثيف قد كاد يضلنى عنك .. كما أضل الرجل عن  
صاحبه .. لا أدرى كيف استطعت الحضور .. ولا كيف استطعت أنت .. لقد  
كان لقاءنا معجزة . وكان من المحتمل أن يظل أحدهما بمنأى عن الآخر ..  
ويضيع العمر مدى .

وفجأة أمسكت بذراعه .. وشدت عليه فى فزع وهمست قائلا .  
- انى أرى شبحاً آخر ، يقترب منا .. انه امرأة ؟  
وانقشعت السحب مرة أخرى فكشف ضوء القمر عن امرأة تقترب فى  
هدوء وقد بدت عليها سيماء الأناقة ، وكمت ملامحها الجميلة ابلغ آيات  
الحزن . وسألته فى صوت مكتئب :

- ألم تبصرا زوجى ؟  
وتملكها الشفقة بالسيدة الحزينة فأجابته مطمئنة اياها :  
- أجل .. أجل .. انى أبصرته يخفى وراء تلك الرهوة . لقد سألتنا عن  
رجل يحمل كيسا ..

وهزت المرأة رأسها فى أسف وقالت :



- لا .. ليس هو .. لقد رأيت ذلك الذى تصفينه .. انه ليس زوجى ..  
انى مخلوقة شقية تعسة .. اتى لن أستطيع العثور عليه .

وغادرتها السيدة فى صمتها الحزين ، مطأطئة الرأس ، محنية  
الهامة ، كأنها تحمل عبئا يثقل كاهلها وينقض ظهرها .

وغاب شبح المرأة فى الظلمة .. وأحسنت هى بالحزن يسرى فى  
جوانحها .. وسألت صاحبها :

- ترى أين ذهب زوجها ؟ لقد كان من المحتمل أن أفقدك كما فقدت  
زوجها ، أما كان يجب علينا أن نساعدنا فى البحث عنه يجب ألا نتركها  
هكذا ، انها امرأة تعسة .

- ولكن كيف ؟ كيف نبحث عنه .. ونحن لا نعرف حتى من يكون ؟ .  
- يجب أن نعاونها بأى طريقة .

وأحسنت وهى تتحدث بشيء يشبه الغثيان ، وكأن هناك ما يجذبها الى  
الأرض ، وأمسكت بذراعه تتحامل عليه ، ثم أسندت رأسها على صدره ،  
وعادت تتحدث بصعوبة :

- ان المكان جميل .. رائع .. لم تريد أن نعود .. لم لا نمكث هنا ..  
انى متعبة .. وأحس بأطرافى تجمد وتتثاقل .. انى أخاف الأغماء .

وأحسنت به بضمها الى صدره .. وسمعت صوته يهمس فى أذنها :

- لا بد ان تعودى يا حبيبتى ، يجب ان تمالكى ، تعالى معى الآن ..  
حاولى .

- انى بخير .. ليس بى شيء .

ولكنها مع ذلك أحسنت بنفسها تتهاوى الى الزمال .. وعاد هو يهتف  
بها :

- انهضى يا حبيبتى ..

- وحاول أن يرفعها بين يديه .. ولكنها قاومتها قائلة :
- لا أستطيع .. ثم أنه ليس هناك داع لهذه العجلة .
- وجلس بجوارها وأمسك وجهها يتحمسه برفق وأردفت هي قائلة :
- ان الرمال والموج تبعث في ذاكرتى أول لقاء .. هل تنكره . فى الصيف الماضى على شاطئ البحر .. وقد أخذنا نسبح معا تجاه الصخرة ! ..
- أجل .. أجل .. انى أنكره .. ولكن لا بد لنا من العودة .
- انى متعبة .. لأستطيع .
- وأحست فجأة بدمعه الساخن يمس صفحة وجهها فنظرت اليه فى دهش ، وهمت بأن تسأله عما يبكيه ولكنها لمحت شبح المرأة الشقراء الحزينة يمر من بعيد ، وأحست برغبة شديدة فى اللحاق بها كأن هناك شيئا خفيا يدفعها اليها وأخذت تتحامل على نفسها محاولة النهوض قائلة لمصاحبها :
- لا بد أن أساعدها .. انها مريضة .. انها لاتعرف الى اين هي ذاهبة .. أجل .. دعنى الحق بها .
- ثم أخذت تعدو تجاه المرأة ، وهو يناديها ، حتى وصلت اليها وهي نسمع صراخه يتردد بين الرىبى مليئا بالألم والحزن .
- ومست ذراع المرأة ، وقالت لها فى حنان ورفق :
- لقد عدت ورائك . انك لاتبدى بخير .. يجب أن تستريحى حتى أبحث لك عن زوجك .
- ما دمت أنا لم أستطع العثور عليه بعد أن بحثت طويلا .. فلن تستطيع أنت ! ..
- ولكنه لا بد أن يكون هنا ما دمت قد أتيت معه .
- انى لم آت معه . .

وتملكها الدهش .. ولم تعرف ماذا تستطيع أن تفعل للمرأة وأحسست  
بحاجتها الى معونة صاحبها وتلفتت حولها فاذا به على مقربة منها ، ولكنها  
لم تستطع ان تتميزه بوضوح وعادت تقول للمرأة :

- انن فقد لا يكون هنا .. لم لا تعودين معنا .. انى أخشى ثقائل المسحب  
والضباب مرة أخرى .. فلا تعودين تبصرين طريقك ا .

- وما فائدة العودة .. اذا لم أستطع العثور عليه ؟ .

. أرجوك .. أنت مريضة ، يجب أن تعودى معنا .

... لا .. لا .. انك لاتعرفين جلية الأمر .. كم وددت لو أكون مثلك .

- مثلى انا ؟ انى لاشيء .. أنا لا أملك من حطام الدنيا .. الا هو ..

وحبه .

- وذلك هو ما أحسبك عليه .. هل هناك فى حياتنا أثنى من الحب ..  
انى لم أحس ما يعنيه زوجى بالنسبة الى حتى حدث ما حدث .. لقد كنت الليلة  
أوشك أن أفر مع رجل آخر ولقد فقدته فى ذلك الضباب المخيم ، وأحسست  
بفرط الوحدة والوحشة ، والحنين الى زوجى المحبوب .. ولكنى لا أستطيع  
أن أجده .

وأصابها عجب زائد من قول المرأة .

اذن فهذا هو سر المرأة الحزينة التعسة .. مسكينة .. لقد أضلها  
الشیطان فأضاعت زوجها .. وفكرت برهة ثم وجهت الحديث اليها قائلة :

- ياسيختى انى أرثى لك ، يجب أن تعودى معنا سريعا فقد تهيب لك

العودة فرصة استرجاع زوجك ؟

- لا فائدة .. ما دام لم يعد لى .. فلا أظننى قد أصبحت أعنى شيئا

لديه .. لقد تبدد حبى من قلبه .. انى استحق كل ما حدث .. لقد كنت انانية  
حمقاء .. ما حاولت قط أن احتفظ بحبه لى .

وأخفت المرأة وجهها فى راحتيتها الرقيقتين .. واستغرقت فى البكاء ..

وأخذت هى تهدى من روعها .. قائلة فى رقة واستعطاف :

- لا تبكى .. انه سيعود اليك .. ما دمت تحبينه .. وتؤمنين بحبه .

وأحسنت برغبة جارفة فى أن تغرس فى نفسها بذور الاخلاص وتبث  
الوفاء ، وادركت ان ذلك هو الدافع الخفى الذى دفعها الى أن تتبع المرأة  
التعسة .. ولكنها أحسنت ، وهى تمسك بذراعتها وتحاول أن تجد كلمات  
التشجيع التى تعينها بها ، ان ذلك الاحساس بالغثيان قد عاودها وبدا لها - وهى  
تنلّف على معونة المرأة - كأن هناك تيارا خفيا يوشك أن يجرفها معا فينزعها  
عن صاحبها .

واستطاعت ان تتمالك وتوجه الحديث للمرأة قائلة :

- قولى له انك تحبينه .. قولها من قلبك .. حتى تصل الى قلبه ..  
وأجزم لك انه سيسمعك ويعود اليك .

وساد الصمت .. وأحسنت كأن التيار قد جرفها فعلا ولم تعد تستطيع  
السيطرة على حواسها ، وتملكتها رجفة سرت من قمة رأسها الى أخمص  
قدميها واحسنت انها تنهاوى .. لا الى الأرض .. بل الى أعماق بعيدة الغور ..  
لا قرار لها .. وخيل لها كأنها تسمع طرقات تدوى من بعيد ، وأخيرا  
استطاعت أن تميز صوت صاحبها يناديها فى خفوت .

وأجابت بصوت مبحوح متحشرج :

- انى آتية .. انى آتية .

ثم ساد سكون عميق . ولم تعد تشعر بما حولها .. لقد فقنته تماما . كما  
فقنت المرأة زوجها .

★ ★ ★

وعندما أفاقت وجبت رأسها تستند على صدره ووجدته يتحمس جبينها  
بحنان .. ثم تلفتت حولها فلمحت وجه امرأة عجوز تبتسم لها فى رفق ونقول :

- انت الآن أحسن .. قليل من الجهد .. ونستطيع أن نعود بك الى  
شاطيء النجاة .

واخفتت العجوز .. وسارت هي متكئة على ذراعه حتى وصلا الى قارب يرسو على الشاطئ .. وكان أول ما لفت نظرها ذلك الرجل العجوز ، ذا المنظار المذهب ، وقد وقف فوق الربوة يحمل على ظهره كيسا ضخما يتقل كاهله ، ويكاد ينوء تحت حملة .

ولوحث له بيدها ، مشيرة له أن يهبط ليعود معهما في القارب وصاحت

به :

- أين صاحبك الذى كان يحمل الكيس ؟

- لم أجد .. ولكنى وجدت الكيس !

- ألا تريد أن ترحل معنا ؟

- لا بد أن أصطحب الكيس معى .

- ولكننا لا نستطيع أخذه .. أنه قد يفرق القارب ويفرقنا معه .

- لا أستطيع الرحيل بدونى .. انه حياتى .. انه أمالى التى انقفت فى جمعها عمرى .

وكان قد وصل اليهما فى تلك اللحظة ، وقد تساقط عرقه وتلاحقت انفاسه تحت وطأة الكيس .. ونظرت هي اليه باسمه ، وقالت فى صوتها الحالم :

- حياتك أفضل من الكيس .. ان على الأرض من الجمال والحب ما يعوضك عن كل ما فيه .. انه ينقض ظهرك ويشقى حياتك .. تعالى معنا .. وإلق به اليم ، أو بعثره على الرى أنك لن تستطيع أن تبتاع به شروق شمس ، أو حب قلب .

ولم يتردد الرجل لحظة واحدة .. بل سار الى اليم بخطى ثابتة ، فألقى فيه بالكيس ، وقفز الى القارب فى خفة الشباب وهو يقول لها :

- شكرا .. لقد اتحت لى فرصة النجاة .. كنت فى صباى أعيث فى مكان جميل كهذه الجزيرة .. كنت أحب الطبيعة ، وأحب الشعر .. ولكنى

غادرتها فى يوم ولم أعد اليها .. لقد شلغتنى عنها الحياة وجمع المال .. خمس وعشرون عاما .. وأنا أشبه بحمار فى ساقية أنور فيها معصوب العينين لا أبصر مما حولى شيئا .

لقد أزلت الغشاوة عن عيني . انى الآن أستطيع أن أرى الكثير مما لم أبصره من قبل .. أرى الجمال والحب والحياة .

وصمت الرجل ، وفجأة لاح شبح يقبل من فوق الربوة واستطاعت أن تتبين فيه المرأة الشقراء وهى تتحرك كالهائمة الضالة .. فهتفت بها من أعماق قلبها . وسمعت المرأة نداء ، وأخذت تقترب من القارب رويدا رويدا حتى وقفت بجواره شاردة الذهن .. فصاحت بها :

- هيا .. أقسم لك أنك ستجدينه .. ما دمت تحبينه .. ان العثر عليه لا يحتاج الا لـحب وإيمان .

وقفزت المرأة الى القارب .

★ ★ ★

وسار القارب فى هدوء ، وأسندت رأسها الى صدره .

ولاحت أمامها بارقة مضيئة فى وسط الظلمة بدت فى أول الأمر كأنها فنار فى وسط البحر .. ثم أخذت تحرق فيها فإذا بها مصباح كهربائى .. وتلفتت حولها فإذا بها ترقد على فراش فى حجرة وقد أمسك صاحبها يدها فاحتواها بين كفيه وسألته فى دهشة :

- أين القارب الذى كنا به ؟

واجابها فى بسمة رقيقة :

- لقد رسا بنا على شاطئ النجاة .

وحاولت ان تتقلب على جانبها فأحسست بوخز فى ظهرها جعلها تتأوه .

ثم أبصرت ممرضة قد اتشحت بلباسها الأبيض تقبل عليها فتضع يدها على رأسها وتقول لها :

- أرجوك .. لاتتحركى .. ان الصدمة لاشك تؤلم ظهرك .. ولكن الحمى قد زالت والحمد لله .

وهزت رأسها ونظرت اليه متسائلة فى دهش :

- أية صدمة ؟ انى لا أنكر شيئا مما حدث .

- الا تذكرين ان الليلة موعد زواجنا ؟ لقد كنا ننتزه فى عربتى فى الجزيرة قبل أن نذهب الى البيت حيث أعدوا العدة لعقد قراننا ، ولكن العربة تصادمت مع عربة أخرى فى منحنى الطريق بجوار النادى الأهلى . الحمد لله لقد زال الخطر .

- ولكنى أنكر اننا كنا فى قارب .

- لاشك أنه كان حلما .

- ولكنك كنت معى دائما فى كل لحظة من لحظات الحلم .

- أحقا كنت معك ؟ . لقد جاهدت لكى أكون معك فعلا حتى أعيدك

الى .

- انى لا أستطيع أن أتصور الحياة بدونك . انك حيايتى .

وتسللت الممرضة الى الخارج ووقفت تتحدث مع ممرضة أخرى خرجت من الحجرة المجاورة . فسألتهما الأخيرة :

- كيف حال مريضتك ؟

- لقد نجت .. ان الفضل له .. فهو لم يتركها لحظة واحدة يبدو لى انه هو الذى استطاع بفرط ايمانه واخلاصه أن يعيد اليها الحياة .. وأنت كيف حال مريضتك ؟

- لقد مضت عليها بضع ساعات وهى مستغرقة فى هذيانها لاتكف عن مناداة زوجها حتى حضر أخيرا . وقد تحسنت بعد ذلك كثيرا .

- أحقا أنها كانت فى العربة الأخرى مع الرجل المليونير ؟

- من يدري ؟ قد تكون أصيبت هي وسائرة في الطريق .. ان بعض  
الظن اثم ، وليس هناك من شاهد الحادث حتى يستطيع أن يجزم أين كانت .

- والرجل كيف حاله ؟

- كالجن الأزرق .. ان اصابته خفيفة .. وهو يضحك في مرح  
ويتحدث عن الحب والجمال ، وقد وهب المستشفى بضعة آلاف من  
الجنهات .. ويقول ان الغشاوة قد أزيلت عن عينيه .. وأنه يستطيع ان يرى  
الكثير مما لم يبصره من قبل .

★ ★ ★



# سَمِعَ وَفَلَاحِي

خير للانسان أن يحب يوما  
ويموت بعده ، من أن يعيش دهرا  
دون أن يطرق الحب قلبه .

الساعة التاسعة مساء .. وقد صفت العربات الفخمة صفا طويلا أمام  
قصر المرجوم على باشا عبد الرحيم بضاحية الزيتون .. كانت ليلة حافلة ..  
والقصر الكبير قد أخذ يزخر بما فيه .. وبدأ كأنه قد بعث من العدم .. وأثيرت  
أو جاءه بعد طول ظلمة .. فقد رغبت الأم العجوز في أن تختفى بـ «سناه»  
خطيبة ابنها «يحيى» التي اختارها له ، والتي كانت تفضلها على غيرها من  
الفتيات .. لكمال عقلها ، ورقة خلقها .

وكان البيت أحد تلك القصور الشامخة العتيقة الواسعة الأرجاء ، الكثيرة  
المراديب ، الفسيحة الحجرات ، التي يحوى كل ركن فيها آية من آيات الفن ،  
ومثلا من أمثلة الغنى والثراء .

وكان صوت الموسيقى يصل خافتا الى اذن الفتى الذى اضطجع فى  
عزلة عن الجمع فوق أحد المقاعد الطويلة وقد بدأ يحتسى الكأس الثانى من  
«الشيرى» وأخذ خياله يسبح بعيدا فى ظلمات الماضى وآمال المستقبل .

وأخذ يتمطى فى كسل .. عندما هبت عليه رائحة عطر نفاذة ، من ذلك  
النوع الذى يخترق الأنف ، ثم يسرى منه الى بقية الجسد فاذا بالانسان قد  
اصابته نشوة وعذته هزة .

وتلفت حوله ليرى صاحبة العطر .. لأنه لم يشك في أنها أنثى .. لأن العطر يكاد ينطق ليفسر عن نوع صاحبتة . نعم كان يكاد يصيح : أفسحوا الطريق .. لامرأة رفيقة كنسيم الليل .. جميلة كأوهام الشاعر ، وأحلام الفنان .  
ولكنه .. لدهشته .. لم ير ما يتبع الرائحة .. لقد نفذ العطر الى نفسه .. ولكن صاحبة العطر لم يكن لها وجود بعد .

ونهب من مقعده ، وتوجه الى أقصى الغرفة الفسيحة كأنها ملعب كرة ، فإذا بفتاة قد توكأت بنراعتها على مكتبه الذي رصت فوقه بعض الكتب . وأخذت تقرأ في أحدها .

أخذ الفتى بمنظر الفتاة ، فقد كانت غريبة عن البيت .. غريبة عن تلك الجماعة التي إكتظت بهم الحجرات . وتعجب الفتى ، فهو لم يرها في خلال يومه الا الآن .. بل لم يرها في حياته قط الا هذه اللحظة .

ومما زاد في دهشته ان الفتاة على رشاقبتها وجمالها ، وصغر سنها ، كانت ترتدى من الملابس ما لم يره الفتى من قبل الا في تلك الصور الزيتية التي تملأ جدران البيت ، والتي تمثل آباءه وأجدانه من قرون مضت .

وابتسمت الفتاة ، وقد ظهرت على وجهها سيماء الهدوء والسكينة ، ولم تكن تبدو عليها أى علامة للدهشة كما بدا على صاحبنا . وكان مظهرها مظهر من تتجول في عقر دارها . وكأنها رأت الفتى قبل ذلك مئات المرات .

وخيل للفتى .. انها إحدى صديقات ضيوفه . وأن بعقلها بعض الشذوذ . ولكنه ما كاد يحقق في جسمها حتى صعق .

لقد كانت الفتاة شغافة .

لقد كان يرى كل شئ خلفها بوضوح .. كأن جسمها قد صنع من الزجاج . فقد رأى خلال جسمها الكتب التي رصت على المكتب ، ورأى المكتب نفسه وقد بدت تفاصيله واضحة جلية .

وسقط من يده الكأس ، وصدرت منه صرخة خافتة .

لقد سمع قبل ذلك اشاعات من أشباح تجوس خلال الدار . ولكنه لم يصدقها قط . وسخر منها أشد السخرية . وحتى لو كان قد تخيل أحيانا أن هناك أشباحا ، فإنه قد تخيل أنها تجوس خلال الأقبية الرطبة المظلمة ، والمراديب الضيقة فى أسفل المنزل التى ملأها العفونة . أما أن تظهر هذه الأشباح فى حجرة المطالعة . والبيت قد غص بالزوار . والموسيقى ترسل انغامها فى أرجائه . فذلك ما لم يخطر له قط على بال .

وفوق ذلك لم يكن صاحبنا يتخيل هذه الأشباح والنفوس الغاريت الا فى صور بشعة لسفاكى الدماء الغلاظ الأكباد ، القساء القلوب أما أن تظهر تلك الأشباح فى صورة فتاة ، فتاة فتاة فى عينيها سحر ، وفى شفيتها خمر .. فذلك هو ما لم يتصوره من قبل .

وكأنما سر الفتاة ارتباك الفتى ، فرنت بضحكة كموسيقى عذبة حلوة .. وأفاق الفتى لنفسه ، واسترد شجاعته ، وساء أن يكون موضع سخرية من الفتاة حتى ولو كانت شبحا أو عفريتة .. ووجد أن الفتاة عزلاء ، كما تترأى له ، لن تملك له ضرا ، حتى ولو كانت جنية . فهو جدير بسحقها بين اصابعه كفئات العيش ، لو حاولت أن تناله بأذى .

وأمكن للفتى بعد أن طمان نفسه وتمالك أعصابه .. أن يرد على ضحكة الفتاة بضحكة ملؤها السخرية سائلا إياها :

- من تكون الزائرة الكريمة ؟ . وما سبب تشريفنا بهذه الزيارة .  
- تقصد الزيارات ؟ . فما كانت هذه أول زيارة ولن تكون آخرها .  
-- سيان عندي : كانت زيارة أم زيارات .. إنما يهمنى هو أن أعرف من تكونين : وماذا تبغين ؟

- أما سؤالك عنم أكون ، فهو اتهام صريح لذكائك وفطنتك ، وتأكد لصنع ذاكرك ، لأنك لاشك قد رأيتنى مرارا فى عدة صور من تلك الصور المعلقة فى صالة الاستقبال ، فقد ظهرت فى بعضها وحيدة ، وفى البعض الآخر مع بقية العائلة . وعلى أية حال يمكننا أن نعتبر أنفسنا أولاد عم . أما سؤالك عما أريد : فذاك سؤال فى موضعه ، والواقع أنى جئت لأحذرك .

ومأل الفتى فى دهشة :

- تحذرينى ؟ أنا . وممن تحذرينى ؟

- من الفتاة التى ستتزوجها .. انى أود أن أنصحك ألا تتزوجها ، وأصر على نصيحتى .

- ولكن ما السبب والحب بيننا متبادل والفتاة جميلة الخلق و الخلق ، ولا عيب بها ، الا اذا كنت تودين الوقعة بيننا ، وثنوين افتراء الأكاذيب واختلاق الأراجيف . وعلى أية حال قولى فيها ما شئت ، فلن بضيرها ذلك شيئا ، لأننى أحبها وسأتزوجها بالرغم من كل شيء .

فضحكت الفتاة ضحكة ناعمة ثم أجابت :

- لا أكاذيب هنالك ، ولا أراجيف . لا تكن أبله . انى أحذرك من الزواج بالفتاة . لا لشيء الا لأنك لا تحبها . ولم يتمالك نفسه من القهقهة فى سخرية .

' هذه الفتاة الصغيرة .. بل هذا الشبح الزجاجى العتيق .. تنبئه عن دخائل قلبه كأنها تعرفه أكثر مما يعرفه .. هذه الفتاة تدعى أنها تعرف اذا كان يحب أو لا يحب أكثر مما يعرف هو عن نفسه .

- خير لك بابنية أن تكفى نفسك مشقة التدخل فى شئون الغير .. وأن تضعيى وقتك فى شيء أفضل من التنبؤ بما اذا ما كنت أحب أو لا أحب . ونظرت الفتاة اليه نظرة شملتته من أخمص قدميه الى أم رأسه وقالت بلهجة من ينصح طفلا غريرا بالكف عن لعبة مضارة :

- هذه الفتاة الباردة النافهة .. ماذا يحبك فيها ؟ هذه الفتاة الشبيهة بالتمائيل الجبس التى يصنعها مثال مبتدئ .

وبدأ الغضب يلوح على وجه الفتى .. فحاول تهدئة نفسه باشغال سيجارة .. وحاول أن يظهر للفتاة قلة أكتراثه بأحاديثها :

- هل تسمحين لى بالتدخين ؟

- لاشك فى أننى أسمح .. فأننى أحب التدخين .

وصمتت برهة ثم أردفت :

- كم كنت اتمنى أن يكون التدخين مباحا للسيدات فى عصرنا ، كما هو مباح فى عصركم .. انى ما زلت أنذكر كيف حرمت من الطعام يوما بأكمله عقابا لى على محاولتى التدخين وأنا فى الثامنة من عمرى .. ولكننا خرجنا عن حديثنا الأصلي .. لعلك مقتنع الآن بأن الخطأ كل الخطأ فى زواجك بتلك الفتاة الجوفاء ، الخالية من كل شعور ، العاطلة من كل احساس .. انى لأتخيل صاحبتك وقد تسلت بها الى ركن بالحديقة ساكن ، الا من انفاس الهوى الصادرة من الأوراق الرقيقة الخضراء بحركها النسيم الهادىء ، فكأن كل منها قلب صلب مدله : وضوء القمر قد تحرر من وراء الغيم .

وأنت قد ملأ الهوى قلبك وترنحت من العشق أعطافك وبدأت تطارحها الغرام . وهى .. هى .. آه منها .

ووجد الفتى نفسه قد جذت الى حديث الفتاة ، وشعر كأنه فعلا فى ذلك الموقف الشاعرى الجميل .. وإذا به يسألها دون قصد :

- هى ؟ .. ما لها ؟

- هى أمامك قطعة من اللحم البارد الذى تسمونه والبوبيفء لا يحرك قلبها ساكنا ، بل أغلب ظنى أنها لا تحمل فى صدرها قلبا البتة ، وقد تطلعت اليك بوجهها اللاشعورى ، فإذا بقصورك الشم قد انهارت من عليائها .. وإذا بالموقف قد فقد سحره ، وإذا بك تهبط من السماء الزرقاء الجميلة لتصدم بالأرض الصخرية السوداء ، فتتحطم أمانيك ، وتذهب أحلامك أدراج الرياح .

وشعر الفتى كأنما قد سقط فعلا .. وأحنقه أن الفتاة تتلاعب به مثل هذا التلاعب فصاح بها غاضبا :

- لقد أضعت وقتى فى الاستماع الى ترهاتك .. فأرجو أن تكفى عن زيارتى بعد الآن ، فنصيحتك لن تجد معنى نفعاً وأفضل لك أن تكفى نفسك مؤونة تحذيرى .

وهزت الفتاة رأسها آسفة وقالت :

- أنت وشأنك ، ولكن ثق أنني لن أتركك تتردى فى هاوية زواج بلا حب .. أنت أبله .. لأنك لم تذق طعم الحب .. هذا الذى تدعيه حبا .. لايمت للحب بصلة .

واختفت من أمامه فجأة كما ظهرت .. تاركة له عقب اريجها يملأ خياشيمه .

وغادر الفتى الغرفة الى حيث القوم قد جلسوا للمسامرة والرقص . وفى العشاء جلس الفتى فى مكانه ساهما واجما .. ورأسه مليء بالتفكير فى هذا الشبح الرقيق الجميل .. وفيما قالت له الفتاة من نصيح وتحذير .. وشعر أنه فى حاجة الى أن يفضى الى امرئ ما بسخيلة قلبه .. ويقص عليه القصة من اولها الى آخرها ، ولكنه خشى أن يسخر منه القوم ويظنونه قد ثمل .. وظل يستعرض فى مخيلته الأشخاص الذين يثق بهم ، فلم يجد هناك من يفضى اليه بالأمر خيرا من أمه .

وانتهى العشاء .. وصاحبنا مازال فى وجومه وقلقه ، ولأخذ يتذكر ما قالته له الفتاة حرفا حرفا .. وعندما تذكر تشبيهها خطيبته «بالبلوبف» لم يتمالك نفسه من الضحك .

وفظرت اليه خطيبته فى دهشة وقالت :

- هذه أول ضحكة تضحكها الليلة .. فلعل ما طاف برأسك يبتكر على مرحك بقية الليلة .. فلا تعود الى وجومك السابق .

وفجأة نهض الفتى وتوجه الى الفتاة وجذبها من ذراعها ، وقال للجميع :

- عن انكم .. سأسر لها حديثا يهمها بعض الشيء .

ودهشت الفتاة ، كما دهش القوم ، ولكن الفتى لم يأبه لهم .. بل اندفع الى الحديقة كمن انتوى أمر جلا .. .

وفى ركن تشابكت فيه الأغصان .. ركن أشبه بذلك الركن الذى وصفه الشبح فى حديثه .. وقف الاثنان وقد غمرهما ضوء القمر وتشبع جو المكان بالسحر والفتنة .. ونظر الفتى فى وجه صاحبتة وقد تملكه الحب .. وسرت فى جسمه النشوة .. ثم قال هامسا :

- مارأيك فى أن نهرب سويا فى عربتى الى الاسكندرية حيث يتم زواجنا ، ونرشف معا كؤوس الحب فى مكان يملؤه الشعر والخيال .  
ومد يده فلف الفتاة وجذبها نحو صدره وقبلها فى شوق .  
ولكن الفتاة دفعتة بيديها ، وتخلصت من ذراعيه ، وردت عليه غاضبة :

- أى جنون قد أصابك .. وأى سخافات تلك التى تحدثنى عنها .. أى هرب هذا الذى تريده .. وماذا يقول الناس عنا .. بل ماذا يقول أبى وأنت أدرى الناس .. أى نوع من الرجال هو .. ثم تخيل أن العربية تقف منا فى الطريق .. فأى مشكلة تكون قد ألقينا بأنفسنا فيها .. وهل هذا هو الأمر الهام الذى جذبتنى من وسط القوم وتركتهم يتحدثون عنا فى سخرية .  
ووجد الفتى أن السحر قد ذهب ، والفتنة قد زالت .. وخبا لهيب قلبه ، ونظر الى صاحبتة فإذا هى جافة باردة .

وفجأة تذكر «البلويف» .. وشعر لشدة الحنق على الفتاة الزجاجية الشفافة .. وأحس كأنه يرمى بأخر سهم فى جعبته ، فبدأ يرجو صاحبتة :  
- اذا كنت تعتقدين ان الفرار جنون .. فدعينا منه .. ولكن هل لديك مانع فى التعجيل بالزواج .. وليكن فى الأسبوع القادم مثلا ؟ . أرجوك ألا ترفضى .

- لا أرى ماذا أصابك الليلة ؟ .. من المستحيل أن يتم الزواج فى الأسبوع القادم .. ولا حتى فى الشهر القادم .. فأنت تعلم أن الملابس .. و «الجهاز» لن يتم صنعهما الا بعد شهرين أو أكثر .. ولن يقبل أبى التعجيل بالزواج قط قبل أن تتم هذه الأشياء .. خصوصا أنه لا سبب للتعجيل .

وعاد الاثنان من الحديقة واقتربا وسط الجموع الراقصة .  
 وشعر الفتى بميل يدفعه الى الذهاب الى حجرة المكتبة مرة أخرى ،  
 وجلس في نفس المقعد ، وتمنى لو ظهر الشبح الجميل ثانية .  
 ولم تمض لحظة .. حتى هبت عليه رائحة العطر اياه .. واذا بالفتاة  
 الشغافة أمامه وقد بدت آية في الرشاقة والجمال .. واستندت بمرففها الى  
 المنضدة ثم ضحكت في لين .. وقالت :

لقد فشلت التجربة .. وكنت أعلم سلفا انها فاشلة .. يا صاحبي ان الحياة  
 هي الحب .. ولا شيء غير ذلك .. فان فقدت الحب فانك قد فقدت الحياة ..  
 واذا عشت بغير حب فكأنك لم تعيش .. وخير للانسان أن يحب يوما ويموت  
 بعده ، من أن يعيش دهرا دون أن يطرق الحب قلبه .. أنا أدرى بالحب منك ..  
 فلقد مسنى الحب وأنا في الخامسة عشرة وكان يد ساحر قد مسنى .. واذا  
 بحياتي قد انقلب من قطعة فحم سوداء .. الى جمرة حمراء ملتهبة .. في  
 جوفها ضوء وحولها ضوء .. وكان الذي احببت لم يزد على أن يكون كاتباً  
 بسيطاً في دائرة أبى .. ولكنى كنت اذ أراه كأني قد ملكت الدنيا والآخرة  
 وفررت معه ولكنهم أمسكونى ووضعونى حبيسة في الدار .. وعولمت ، كما  
 يعمل أشد الناس اجراماً .. ثم انتقوا لى زوجاً .. ظننا منهم أن ذلك سيذهب  
 عني ما ظنوه طيشاً ونزقاً .. وفي ليلة الزفاف كنت أشعر كأني أزف الى  
 القبر .. لقد كنت حزينة يائسة .. كنت اتمنى الموت ولكنى لا أستطيعه ، فقد  
 كنت أعامل كأني أسيرة حرب ، ولكنى أخيراً استطعت أن أخلو لنفسي بضع  
 لحظات تناولت فيها سما .. وفررت من الزفاف ومن الحياة .

وصمتت لحظة ، ثم أردفت في صوت ملؤه الاحتقار والازدراء :  
 - أنت تتزوج هذه الفتاة .. يا للسخافة .. اياك أن تقدم على ذلك  
 الزواج .. اياك أن تلقى بنفسك الى التهلكة .. مع الفتاة التافهة السخيفة .  
 وقاطعها الفتى غاضباً :

كفى عن هذا السب .. فسأتزوجها بالرغم من كل هذا .. ولن تزيدي  
 اهانتك لئالا تعلقا بها .



ولم تأبه الفتاة لمقاطعته :

- أنت الفتى الأمثل .. الفتى الجميل النبيل .. تتزوج هذه الأضحوكة ..  
كم يسوؤنى اننا لم نلتق في عصر واحد .. كم كنت أود لو خلقنا سويا .. بدلا  
من أن يكون بين أحدنا والآخر هذه الحقبة الطويلة من الزمن .. كم كنت أتمنى  
ان نلتقى جسدا بجسد لا جسدا بروح .. أو شبح .

وشعر الفتى ان الفتاة تقترب منه .. ثم أحس شيئا خفيفا قد مس شفتيه ..  
كأنه جناح فراش .. ثم اختفت الفتاة .

وانتهى القوم من سهرتهم وآب كل منهم الى فراشه ، ودخل الفتى  
مضجعه .. وشبح الفتاة لايفارق ذاكرته .. وخيل اليه أنه قد يراها فى  
مضجعه .. ولكنه لم ير أحدا .

وما كاد الفتى يغمض عينيه حتى سمع على الباب طرقا خفيفا .. فقفز  
من فراشه وفتح الباب وهو لايشك لحظة فى أن الطارق هو الفتاة العاشقة ..  
الساخرة الفاتنة .

ولكن الطارق لم يكن سوى خطيبته تسأله اذا كان لديه قرص من  
الاسبرين ، تذهب به عن رأسها صداعا أصابها .

وأجابها الفتى بالايجاب .. ولكنه وجد وجهها قد تغير فجأة وكساه  
احمرار الغضب .. فذهل وسألها عما بها فأجابته صارخة .

- تسألنى عما بى .. وفى فراشك امرأة .. هل رأى أحد أوفتح منك  
مخلوقا .. انى لا أكاد أصدق عينى .

وكانت الفتاة تتكلم وهى تهتز من الغضب .. وصعق الفتى وأجاب فى  
دهشة :

-- امرأة .. ماذا تعنين ؟

وتلفت حوله فإذا بالفتاة الجميلة الشفافة قد اسلقت فى فراشه فى نوم  
عميق هادىء وبدت كأنها عروس فى ليلة زفافها . وتعجب الفتى ، فانه عندما  
قام من فراشه ليفتح الباب كان فراشه خاليا .

وأدرك الفتى ان الفتاة العابثة الماجنة قد أوقعته فى مشكلة كبرى .

وتلفت الى خطيئته وهو يكاد يجن وقال :

- انها ليست امرأة ؟ .. انها ليست بحقيقة ؟ هى لا تزيد عن أن تكون  
شبحا .. تقدمى وأمسكيها بيديك ان كنت تستطيعين انها لاشيء ..  
ولكن الفتاة كان قد غلبها البكاء .. فنظرت اليه نظرة بغض ويأس وقالت  
ساخرة :

- وماذا يمكنك أن تعتذر به غير ذلك .. نعم .. انها شبح .

وعاد الفتى الى الفراش وهجم على الفتاة المستلقية به .. يود لو يمزقها  
اربا .. ولكنها كانت قد اختفت .

وعلم الفتى ان من المحال أن ينتظر من القوم أن يصدقوا الحقيقة .  
وفى الصباح تسال من البيت قبل ان تهب عليه الزوجة .. وقبل أن  
يغادر الدار طرق أذنه صوت بكاء خطيئته وبكاء أمه .

★ ★ ★

وخاب الفتى عن بيته ثلاثة شهور .. علم خلالها ان خطيئته قد  
تزوجت .. وتوسلت له أمه أن يعود الى البيت فعاد .

ومرت الأيام ومحا الزمن القصة شيئا فشيئا .. ففساها القوم .. ولكن  
الفتى لم ينس قط شبح الفتاة الساخرة ..

وفى يوم من الأيام زارهم أحد أقاربهم اليميين ، وكانت معه ابنته ،  
ورجا من الأم أن تنزل فتاته عندها حتى تتم دراستها فى أحد معاهد الفنون ،  
فأنزلتها الأم على الرحب والسعة .

ولم يمض أسبوعان على مجيء الفتاة حتى كان الزواج قد تم بينها وبين  
صاحبنا .. فقد جرفه حبها فلم يستطع عليها صبرا .. لقد قلب حياته من فحمة  
الى جمرة كما قال الشبح .

وأعجب ما فى الأمر ان الفتاة كانت كثيرة الميل الى ارتداء ذلك النوع من الملابس الذى كانت ترتديه الفتيات منذ قرون مضت .. ذلك النوع الذى كان الشبح يرتديه .

وما نظر اليها الفتى قط الا وتعجب من شدة شبيهها بالفتاة الشفافة .. حتى أنه كان كثيرا ما يحتضنها لا لشيء الا ليتأكد من أنها حقيقة .

وفى ذات يوم كان والد الفتاة يشاهد الصور الزيتية المعلقة فى صالة الاستقبال ، فاستوقفت نظره احدى الصور .. ثم نادى الفتى وقال له ضاحكا وهو يشير الى الصورة :

- هذه هى صورة جدتى .. الا ترى أنها شديدة الشبه بزوجتك ؟

وحملق الفتى فى الصورة فقد كانت لنفس الشبح الجميل الذى زاره مرات عديدة والذى منعه من الزواج من خطيبته الأولى ..





# مُورِقَارِوَع

بدا لى أنها قد عزمت على  
شئ .. فقد أشارت الى بالاقتراب  
منها وقالت فى صوت ملؤه الثقة  
والحزم : اياك أن تعدل عن البناء  
وأذكر جيدا أننا عندما تلتقى فى  
الآخرة سأسألك عن كل ما فعلت .

حدثنى صاحبى قال :

كان ذلك على ما أذكر فى سنة ١٩٣٦ .. وكنت أفطن حينذاك فى احدى  
الضواحي .. وكنت أهوى التصوير .. وخرجت ذات يوم لالتقط بعض  
الصور .. فساقتنى قدامى الى جهة نائية على شاطئ النهر ، وجدت بها  
بضعة رجال يحفرون فى بقعة من الأرض قد خططت كان هناك شروعا فى  
اقامة بناء عليها .. ووجدت كهلا قد انتحى ناحية من المكان جلس على حجر  
وهو يرقب الرجال الذين أخذت معاولهم فى الارتفاع والهبوط .

وألقيت التحية .. فالتقى الرجال معاولهم وربوا بأحسن منها .. ولكن  
الكهل لم يجب بكلمة .. بل لم يبد عليه انه قد أحس وجودى .. وأعجب من  
ذاك أننى أبصرت شفتيه تغلقان وتفتحان وسمعت منه همسا خفيفا .

وعلمت من أحد الرجال ان الكهل هو صاحب قطعة الأرض التى يحفرون فيها أساسا لبنت .. وأنه دائم التحدث الى نفسه وأن حديثه الى نفسه يشغله كثيرا عن الالتفات الى غيره . وأنه يقضى يومه جالسا على الحجر يرقبهم ، وقد شرد ذهنه وأخذ يتمتم لنفسه بين حين وآخر بكلمات غير مفهومة .

ونظرت الى الرجل فوجدته اقرب ما يكون الى اولئك الذين تراهم يحملون المجامر أمام الجنائزات .. بتلك البذلة الحائلة اللون ، البالية النسيج .. التى ضمت فى حناياها جسدا ضامرا ذائبا .. من ذلك النوع الذى قيل فيه ولو تركأت عليه لانهدم أما طربوشه فقد انزلق من على رأسه وارتكز على أنفيه .. اذ لم يعترف برأسه كقاعدة فجاوزها الى اقرب مستقر .. وبنت عيناه غائرتين ذابلتين استبدل فيهما بالبياض صفرة مشوبة بحمرة .. وتهدل شاربه الأشيب فغطى تجاعيد فمه .

وعدت الى الدار وكنت انسى الرجل حتى حملتنى قدامى مرة أخرى بعد بضعة أيام الى نفس المكان ، فوجدت الرجال قد بدأوا فى البناء .. وبحثت عن الرجل فى الموضع الذى رأيته فيه فى المرة السابقة ، فلم أجده .. فيممت وجهى شطر الشاطئ ووقفت ارقب النهر وقد انعكست عليه أشعة الشمس فبدا منه بريق ذهبى عجيب .. وأغرقتنى للوحدة والسكون باطلالة التأمل .. حتى سمعت فجأة صوتا يتحدث .. فأخذت من الصوت اذ كنت أظن أنى وحيد فى ذلك المكان وتلفت يمنة ويسرة ، فاذا بى ألمح الرجل الكهل وقد اتكأ بظهره على شجرة ضخمة أخفت جسده الضامر عن عيني .. وسبح هو الآخر ببصره فى النهر وبدأ يتحدث نفسه كما كان يفعل فى المرة السابقة .. ولكن صوته فى هذه المرة كان جليا واضحا ، وكان يبدو كأنه قد اشتبك فى جدال .. واستطعت أن أميز صوته بسهولة وهو يقول فى شىء من الحدة :

- ولكننى قلت لك انى لايمكننى الاستمرار فى هذا العمل المضنى !

وران السكون برهة كأن هناك شخصا خفيا يحاوره .. ثم سمعته يقول :

- أجل .. ولكن استمعى الى .

ثم خالفت الرجل من صوته حتى لم أعد أسمعه ، وبدأ لى من حركاته أنه يحاول اقناع من لا تريد أن تقتنع .. وشعرت بغضب شديد .. ووجدتني أهم بأن أصبح بالرجل أن يرفع صوته لولا اننى رأيت أنه قد شاع فى وجهه الغضب وأبصرته يدفع رقبته المعروقة الى الأمام ويقول حانقا :

- لن استمع اليك بعد الآن .. كفانى ما مضى .

ومضت فترة صمت قصيرة .. ورأيت غضب الرجل بنفثه فجأة ، وأبصرت رأسه يسقط على صدره كأنه طفل نادم مستغفر ثم سمعته يغمغم بصوت ملؤه الرفق والحنان :

- آسف يا عزيزتى .. سأفعل كل ما تريدن .

وهنا كان قد بلغ بى حب الاستطلاع أشده .. فعزمت على أن أستطلع سر الرجل بأية وسيلة .. وأخذت أقرب منه ثم حبيته فى أدب ورقة .

وفزع الرجل فى بادىء الأمر اذ لم يتوقع أن يبصر أحدا بجواره ، ولكنى كسموت وجهى كل ما استطعت من مظاهر المودة والصداقة حتى أبعث العلمانية فى نفسه وقلت له مرفقا :

- هل يسمح سيدى أن التقط له صورة وهو يتأمل النهر ؟

ولم أكن أقصد بمؤالى أن أصوره فعلا . لأننى - أولا - لم أتوقع من رجل فى مثل هذا الشنوذ أن يقبل التصوير بسهولة .. وثانيا - لأنه لم يكن به من المزاي ما يجعلنى أتلهف على تصويره .. ولكنى أردت بمؤالى أن أجعل لى منفذا الى نفس الرجل حتى أستطيع استدرجه للحديث .

ولشدة دهشى رأيت الرجل - بعد أن تردد برهة قصيرة ، يتسم فى سرور ، ثم أخذ يتحسس رباط رقبته ويصلح طربوشه فيثبتته على احدى أذنيه ، ويمر بأصابعه على شاربه المتهدل ، ثم يشد سترته الى أسفل . ويقف وقفة المتأهب للتصوير قائلا أيعجبك هذا ؟

- جدا ..

وسرعان ما التقطت الصورة ، ثم أقبلت على الرجل أجنبيه أطراف الحديث ، ولم تكن هناك مشقة فى استدراج الرجل للحديث .. بل على النقيض .. لقد بدا لى أن الرجل قد اختزن فى صدره أحاديث أعوام ، وأن الفرصة قد سنحت له بمستمع طيب ليفرغ له كل ما فى جعبته .

وعلمت منه أنه كان موظفا بوزارة الأوقاف .. وأنه قضى حياته قانعا بوظيفته المتواضعة بين أكداس الملفات ، وأنه لم يطمع قط فى أكثر منها .. فقد كان مرتبها الضئيل يهين له الحياة الهادئة البسيطة التى تعود أن يحباها فى شقته المتواضعة بحى البغالة .

ولكن امرأته - كما بدا لى من حديثه - لم تكن مثله من ذلك النوع القانع الراضى ، بل كان بنفسها طموح ، وبروحها لهفة على حياة أفضل ، وعلى الخروج من تلك الشقة الرطبة المظلمة فى هذا الحى الخامل .

وأخيرا سنحت لها الفرصة التى تستطيع بها تحقيق أمنيتها وارضاء نفسها الطموح .. وبدا لها شعاع من نور يضىء حياتها القاتمة ، عندما علمت أن فرييا لها قد توفى فأورثها قطعة أرض فى احدى الضواحي .

أحست المرأة وقتذاك أن آمالها قد هبطت عن محيط الأوهام والأحلام .. وأنها قد باتت فى عداد الرغبات التى لا يصعب تحقيقها .

منذ ذلك اليوم صمعت فى نفسها على أن توفر كل دائق يمكنها ادخاره حتى تستطيع فى النهاية أن تجمع مبلغا تشيد به بيتا على قطعة الأرض التى ورثتها .

ووصف لى الرجل تلك المسنين الطويلة التى مرت به بعد ذلك ، ومبلغ ما كان يصيبه من ضيق وتبرم من ذلك الاقتصاد الذى أمعنت فيه المرأة ما وكيف كانت تمر بهما الأسابيع ، فلا يذوقون الا «الجبن» أو «القول» كى تستطيع أن تجمع للقروش من هنا ومن هناك .. وكيف حرمت عليه الذهاب الى المقهى الذى تعود أن يقضى فيه أوقات فراغه ، حتى تدخر الدرهمات التى يصرفها هناك .. ونكر لى كيف قاطعت صاحباتها حتى لا تظهر أمامهن بتلك الثياب الباهتة البالية التى لم تحاول أن تجدها منذ أن بدأت التوفير .



ثم رأيته يدفع يده فى جيبه ويخرج من محفظته الجلد صورة صغيرة قدمها الى قائلا :

- هاك صورتها .

وتأملت الصورة فوجدتها لامرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال .. انتشحت بشال أسود من الحرير ، ولم يكن بها كثير من فتنة أو أنوثة .. ولكن كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء ، وقوة العزيمة ، وأعدت الصورة الى الرجل وبعد برهة عاود حديثه قائلا :

- ولم يطل بنا الأمر كثيرا .. فقد استطعنا بعد بضع سنوات أن نجتمع مبلغا من المال يكفى لأن نبدأ البناء على أن ندفع الباقي على عدة سنين . وعثرنا أخيرا على المقاول الذى قبل أن يقوم بعملية البناء وتم بيننا الاتفاق .

و ذات يوم ذهبنا فى صحبة الرجل لنريه الأرض ، وأصرت هى على الحضور معنا رغم ذلك التوعك الذى أصابها نتيجة برد خفيف ، وعرضت عليها أن تؤجر عربة تحملنا من محطة السكة الحديد الى قطعة الأرض ولكنها نظرت الى نظراتها الى مجنون وأصرت على أن نسير على الأقدام .

وعندما عدنا الى البيت .. كان التوعك الذى بها قد اشتد وانقلب ذلك البرد الخفيف فى يوم وليلة الى التهاب رئوى . ولا أطيل عليك الحديث فقد ماتت بعد بضعة أيام .

وصمت الرجل برهة ثم أردف هامسا فى اهتمام :

- لقد كانت تقاوم الموت مقاومة شديدة لأنها لم تكن تريد أن تموت ، وظلت فى نضالها حتى لفظت آخر أنفاسها . وكنت أسمعها تردد من حين لآخر : يا الهى .. اننى أريد البقاء . ثم رأيته تصمت فجأة ويبدو فى عينيها بريق عجيب .

وخيل الى انها قد أدركت وقتئذ أن لا فائدة من الاصرار على البقاء ، وأنها أحست أن الله قد اختارها بجوارحه ، وبدا لى أنها قد عزمّت على شىء ..

فقد أشارت الى بالاقتراب منها وقالت فى صوت ملوه الثقة والحزم : اباك أن تعدل عن البناء ، وأذكر جيدا أننا عندما نلتقى فى الآخرة سأسألك عن كل ما فعلت .

وصمت الرجل ، ثم رأيته يربت على ساقى برفق ويرفع حاجبيه ويهز رأسه هزات خفيفة كأن فيه شيئا يربكه ، ويقول متعجبا :

- ولكن الشيء الذى لم نذكره لى وقتئذ ، هو أنها سترافقنى طيلة عملية البناء !

ونظرت الى الرجل فى دهشة ، ولم أدر بالضبط ما يقصد بقوله .. ترى هل دفن المرأة فى قطعة الأرض .. أم هو يقصد أنها ترافقه بروحها ؟ واستمر الرجل فى حديثه قائلا :

- فى كل دقيقة .. بل فى كل ثانية .. أجدها بجوارى لاتفارقنى لحظة واحدة .. حتى الآن أراها قد وقعت خلفنا ننصت لحديثنا .

وودت لو أدت رأسى بسرعة الى الخلف لأتأكد من أنه ليس هناك من يقف وراءنا .. لكنى كنت أحس بشيء من الخوف جعلنى لا أحول بصرى عن الرجل الذى استطرد يقول :

- انا أعرف فيم تفكر .. فلا مرأ فى أنك تتهمنى بالجنون ، أو تظننى أنهم رؤية الأشياء .

- أبدا .. أبدا .. كل ما فى الأمر أن لديك قوة تخيل عجيبة !

- قوة تخيل ؟ موظف يقضى أربعين سنة فى ظلمات وزارة الأوقاف تكون لديه قوة تخيل ؟ لا .. لا ياسيدى أنى أراها تماما كما كنت أراها فى الدار ، وأخطبها وتخطبني .

لقد ضقت ذرعا بالبناء .. حتى لقد فقدت أعصابى منذ لحظات عندما انتابتنى نوبة من الغضب ، فأنبأتها أنى لن أستمّر فى هذه العملية المرهقة ، وأنى قانع بحى البغالة ، ولكنى رأيتهما تبكى .. فقدمت على ما فرط منى ، واعتذرت لها عن حماقتى .

والتفت خلفه قائلاً :

- لا أظنك غاضبة على الآن يا حبيبتي ؟

وهنا أحسست أنى لم أعد أحتمل .. فقد شملنى خوف شديد من الرجل المعنوه وامراته الموهومة .

وسادت بيننا فترة صمت كنت خلالها أحرق البصر فيما حولى .. وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع .

وغادرت الرجل دون ان التفت خلفى ، فقد كان بى خوف شديد .

وعدت الى الدار ولم أحاول بعد ذلك أن أطرق المكان أو أقابل الرجل .

والى هنا انتهت قصة الرجل .. أو على الأصح كادت تنتهى .. فقد بقى منها جزء قصير .. يتعلق بالصورة التى التقطتها له . فعندما انتهيت من تحميم (الغيلم) وطبعه .. رأيت شيئاً عجيباً .

ان الرجل لم يكن وحيداً فى الصورة ، فقد كان بجواره امرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال ، قد اتشحت بشال من الحرير الأسود ، ولم يكن بالمرأة كثير من فتنة أو أنوثة ، ولكن كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء وقوة العزيمة !

★ ★ ★



# حُجْرَةُ كَبِيرٍ

ولم أشك أن الدواء الذى كتبه  
الطبيب لم يكن الا مجرد (سد خائفة)  
ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره ،  
باحثا عنه فى الصيدليات التى  
وجدتها مفتوحة وقتذاك ، ولكنى لم  
أجد له أثرا .

سيدى العزيز نرددت كثيرا ، قبل أن أكتب اليك . أولا لأنك لاتعرفنى ،  
وثانيا لأنى لا أستطيع أن أحدد بالضبط مطلبى منك ، ورجائى من الكتابة  
اليك ، لأننى لست فى حاجة الى شيء .. حتى هذا العزاء الذى تعودت أن  
تهبه لقرائك المحزونين .. لست أرانى فى حاجة اليه ، فقد انصرم العمر ،  
فشفت الأيام قرحى وبرأت جرحى .. اللهم الا أثرا لا أظنه بزائل حتى أزول  
أنا وتزول الحياة .

ولكن شيئا واحدا هو الذى اتلهف عليه .. وهو تفسير لأمر أعينى  
تفسيره .. تفسير عملى لايتعارض مع اعتقادنا فى هذه الحياة .. ولا يجعلها  
تتطاير من رؤوسنا فتذهب مع الريح .. وتتركنا حائرين بين الشك واليقين ..  
تفسير يقنع كهلا مثلى قد اشرف على الهزيع الأخير من عمره ، ولم تعد لديه  
القدرة على تعلم طرق جديدة للتفكير .. هل فهمت ياسيدى ؟

لنعد القهقري الى أيام خلت وزمن ولى .. عندما كنت فى مقبّل العمر  
وفى أول عهد بالزواج .. أن مجرد الذكرى تبعث فى رأسى نشوة ، وفى  
جسدى هزة كأنها أغنية تطوف بأنتى فيخفق لها القلب ، أو شذى عطر ينفذ  
الى أنفى فيهبو له الفؤاد .. عندما أنجبنا طفلتنا الأولى .. «نادية» .. وعندما  
ظننا أن أختا سيبتعها أو أختنا .. ولكن السنة مرت تلو السنة دون أن نرزق  
سواها ، وبخيل الى أن ذلك قد دفعنا الى الشغف بالطفلة وتكليلها الى حد  
«الانلاف» .. أو هذا على الأقل ما يتهم به أبوان ملائهما اللهفة على ابنة  
وحيدة .. ولكنى لم أك أفهم قط معنى أن «يتلف» الطفل أو كيف «يتلف» ، لأننى  
من نوع مرهف الحس .. لا أعتقد أن تلف الطفل يمكن أن يتأتى الا بضربة  
أو نهز أو إيلا م نفسه أو تحطيم روحه أو حرمانه ، أو أرهاقه .. أما بحبه ،  
أو الاسراف فى حبه .. فلا أظن .. بل اننى لا أفهم معنى أن يقال «اسراف  
فى الحب» .. بينما الحب لا يمكن أن يكون الا اسرافا .. والا ما كان حبا .

اننا قطعاً أحببناها أكثر مما نحب أى شيء آخر فى الحياة .. أكثر من  
نفسينا .. وإن أحاول أن أصفها لك .. فلا أظننى أستطيع أن أرسم فى ذهنك  
صورة صادقة عن عذوبتها وحلاوتها .. ولكن ثق ياسيدى بأنها كانت مخلوقا  
محبوبا ، ببراءتها ، وسمارتها ويتفكيرها الساذج ، ومطالبها التافهة ..  
بضحكاتها ويكائها .. ومرحها ولهوها .. بميئيتها الخضراوين ، وشعرها  
الأصفر الملتف فى حلقات ذهبية .. بأنفها القصير الدقيق ، وشفتيها  
الرفيقتين .. كل شيء فيها كان جميلا محببا .

وأضحت الطفلة محور حياتنا .. وكنت اذ ذاك موظفا فى السكة  
الحديدية فى إحدى بلدان الوجه البحرى ، وكنا نقطن بيتا صغيرا ذا حديقة غناء  
فياحة . وكانت حياتنا هادئة ناعمة . فلا أكاد أنتهى من العمل حتى أعود الى  
الدار .. وبى شوق الى كل ما فيها .. ويمر بنا الوقت وقد غمر ثلاثتنا فيض  
من السعادة .. نلهو بالطفلة ونلهو بنا .. أقص عليها قصصا عن «القبيل أبو  
زلومة» وعن «أبو طرطور» .. وتصيح هى أخطأتى ان أخطأت .. وتذكرنى  
ان نسيت .. وتمتفسر عن أشياء لم تفهمها بعد .. ثم تمتطى كتنفى .. ونذهب

الى اللعب فى الحقيقة .. أبة حياة هائلة كنت أحيائها وقتذاك ! ما ذكرت سحابة واحدة خيمت فى سمائنا .. ولا شاب صفونا كدر ولا شائبة .

كنت وقتذاك موظفا صغيرا .. ولكن مرتبى كان يفى بكل حاجاتنا .. بل كان يزيد حتى يفى بالكثير من الكماليات . ففى يوم الميلاد الرابع للطفلة أقبلت على الدار وفى يدي لفافة كبيرة .. وكانت قد تعودت ان تلقانى بلهفة وفرح .. وبسؤال يقفز على شفتيها «جيت لى ايه ؟» . ولذا فقد كنت دائما احضر شيئا .. أى شيء .. قطعة من «الشيكولاته» «البان انجليزى» .. «مصاصة» .. أى شيء كان يرضيها .. ما دمت قد تذكرتها وأحضرته .. وفى ذلك اليوم أردت أن أفاجنها مفاجأة سارة .. فابتعت لها «عروسة» كبيرة تغمض عينيها حينما ترقد .. وابتعت لها فراشا كاملا مزركشا ، وكلفنى ذلك ما يقرب من الثلاثة جنيهات كنت قد استطعت أن أوفرها منذ بضعة أشهر استعدادا لهذا اليوم . ولاشك أنك تعرف ياسيدى قيمة الثلاثة جنيهات فى ذلك الزمن .. وقيمتها بالنسبة لمرتب موظف صغير مثلى .

كانت فرحة الطفلة «بالعروسة» والفراش فرحة أشعرتنى بأن الجنيهات الثلاثة لم تذهب سدى .. ثلاثة جنيهات ؟ .. ما أتفنها ! ان العالم كله لايساوى عندى فرحتها حينذاك .. لقد أمسكتها برفق . ثم ربنت عليها بحنان .. ووضعت فوقها الغطاء .. ثم قالت لى هامسة : «لندعها الآن تستريح .. فهى لاشك متعبة» .

ولم أكن أظن قط أن «العروسة» الجديدة - أو «سوسو» كما سميتها - ستشغلها الى هذا الحد .. وتكلفها كل هذا الاهتمام الجدى .. فقد اعتبرتها مخلوقا حيا .. فى حاجة الى كل ما تحتاجه هى .. وكانت ترقدها فى الليل بجوارها .. وكما كان يطربنى أن أرقبها .. وهى تتصرف مع اللعبة .. تماما كما تتصرف أمها معها .. مقلدة أياها فى كل شيء .. وفى كل كلمة .. تحملها على كتفها ، وتمثل كأنها تغسل لها وجهها ، وتغير ملابسها وتطعمها ، وعندما أوى فى الظهيرة الى الفراش كنت أبصرها وهى تشير اليها بسبابتها محذرة : «سوسو بابا نام .. اياك والبكاء» .

وفى ذات يوم سألتنى «نادية» أن أحضر لها فراشا آخر صغيرا ..  
فسألته مَداعبا : «فراشا وعروسه ؟» .. ولكنها هزت رأسها قائلة :  
- لا .. لا .. فراشا فقط .

ثم اقتربت منى وهمست فى أذنى انها تريد الفراش للطفل الجديد «ابن  
سوسو» .

ولم أتمالك من الضحك .. وفى اليوم التالى أحضرت لها فراشا  
صغيرا .. فوضعته بجوار الأول .. وفى الصباح وجدتها تضع أصبعها على  
شفتيها لكيلا أحدث حركة توقف «النونو» ثم سحبتنى من يدى حتى وقفنا أمام  
الفراش الصغير ورفعت الغطاء عنه بخفة ثم قالت بصوت خفيض : «انه بنت»  
وبعد أن أبدت إعجابى سألتها عن اسمها فأجابته انها ليست بحاجة الى اسم  
فهى مجرد «نونو» .

وكنا نظن أنها سرعان ماتتسى ذلك المخلوق الوهمى وتطالب باحضار  
طفلة صغيرة لتضعها فى الفراش الصغير بجوار «سوسو» ، ولكنها لم تفعل ،  
بل استمرت تعامله على أنه شيء ملموس توقفه وتدله وتحميه تماما كما تفعل  
بأمه .

وفى ذات يوم - أظنه فى شهر سبتمبر - خيم علينا الظلام ونحن نلهو  
فى الحديقة ، وأحسنا بالجوشنا من الرطوبة ، فدخلنا الدار .. وفى الصباح  
التالى شكت الطفلة ألما خفيفا فى حلقها .. وبدأت عليها تلك «الدعبله» التى تبدو  
على الأطفال اذا غشيهم مرض أوهم .. واستمرت مستلقية فى الفراش . وبدأ  
لى أن الأمر لايزيد على برد خفيف لايبعث على القلق ، اذ لم يكن بها أى  
ارتفاع فى درجة الحرارة .

ولم يدر بخلدنا قط أن الطفلة مريضة .. أو أن المسألة تستوجب استدعاء  
طبيب ، خاصة وأن التحسن بدا عليها فى نهاية اليوم عندما أخذت تستمع الى  
القصص التى أخذت أقصها عليها ، وتشاهد الرسوم التى رسمتها لها ، ولكن  
عندما أقبل المساء بدا عليها شيء من التعب وارتفعت حرارتها قليلا وتقايأت  
كوب اللبن الذى أعطيناها اياه ، وبدأت تشكو من ألم فى الصدر .



وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك ما يدعو الى الفزع ، فقد كانت فى تمام صحتها ، وكانت تضحك عندما أحاول أضحاكها . ولولا ذلك الألم البسيط ، الذى كان يذهب ويجيء لما كان هناك ما تشكو منه . ولكن لم تمض فترة من الوقت حتى بدأت أحس تغييرا طرأ عليها ، ورأيت جفنيها يتثاقلان وخبا بريق عينيها .

وأصابنا الفزع .. وخيل الى أن قلبى يهوى فى جوفى .. وقلت لزوجتى : «ان نظراتها لا تعجبني ، وسأذهب لاحضار الطبيب ، وحتى حينذاك لم أكن أحس بعد أن المسألة قد بلغت دور الخطورة .



تصور ياسيدى بعد كل تلك السنين التى انصرمت والتى كانت كفيلة بأن تضع بيننا وبين الماضى جدارا سميكة من النسيان .. وبعد أربعين عاما تغير فيها كل شيء .. ما زلت أحس بقلبي يعصره الألم .. وبدمع عيني يرادها على الانهمار كلما تذكرت تلك الساعات القلائل التى قضيناها بعد أن حضر الطبيب .. وعندما تبينا من نظراته مدى ما فى المسألة من خطورة .

لا أكثر عليك القول ياسيدى .. لأنى ما قصدت بكتابتى اليك أن أحملك الآما ، أدعو الله من قلبى الا يصاب بها انسان .. لقد ماتت الطفلة قبيل الفجر .. ولم أصدق أنها ماتت فى بادىء الأمر .. اذ كان يبدو لى موتها بعيدا .. ولم يستطع ذهنى المرهق المكثود أن يسلم بأنها ذهبت الى غير رجعة .. فهذا شيء لايمكن أن يكون حقيقة ، وحتى بعد أن رقدت فى جديها وعدنا الى الدار الموحشة الصامتة لم نكن نصدق انها ماتت .. وقع اقدامها .. صوته .. ضحكتها .. ما زلت أحس بكل ذلك يملأ الدار الخرساء .. ومازلت أتوقع بين آن وآخر أن أراها مقبلة على بلهفة واشتياق ، وعلى شفيتها سؤالها التقليدى الطريف : «جيت لى أبيه ؟» .

وحتى يومنا هذا ما زالت تطاردنى مرارة الأسابيع والأشهر التى أعقبت موتها .. ماذا تستطيع أن تفعل كلمات العزاء بقلوب كريمة مجروحة .. وأنى لقطرات الدمع أن تطفىء نارا تستمر فى الجوانح وتتأجج بين الضلوع .

وبعد فترة نقلت الى القاهرة .. ثم مضى العام تلو العام ولم أعد بعد موظفا صغيرا .. بل أصبحت ذا مرتب محترم .. وبعد أربع سنوات رزقت بابنتى الثانية «سامية» .. وسرعان ما نمت حتى أصبحت طفلة جميلة كأختها للراحلة .. وان كان جمالها من نوع آخر .. نوع رقيق الجسد ، دقيق التقاطيع ، أسود العينين ، حالك الشعر .

وقد اتفقت وأمها على الا ننكر لها شيئا عن «نادية» ، معتقدين أن من الخير أن نبعد عنها أمثال تلك الحقائق الكريهة ، ولاشك أننا كنا مخطئين فان الموت ليس أكثر من نتيجة .. نتيجة طبيعية محتومة .. قد تكون آجلة أو عاجلة .. ولكنها لا بد واقعة .. فلم نرتاع منها ومن التفكير فيها ؟ لا تؤاخذنى ياسيدى .. هذه فلسفة عقيمة .. لا يمكن وضعها الا على أطراف الألسن .. أما فى قرارات النفوس فلا موضع لها .

وهكذا مرت الأيام والطفلة لا تشعر الا أنها أول من أنجبنا .. وعندما بلغت الرابعة وأقبل عيد ميلادها سألتنى أن أحضر لها عروسا تغمض عينيها وفراشا ترقدما فيه ، فأحضرت لها ما طلبت .. وخيل الى أن الأيام تعيد نفسها .. فقد أقبلت «سامية» على العروس تنومها وتدللها وتغنى لها .. تماما كما كانت تفعل أختها .. من قبل .

وبعد بضعة أيام وجئتها تسألنى أن أحضر لها عروسا أخرى .. ولست أدرى ما الذى جعلنى أسألها عما اذا كانت تقصد فراشا آخر ، ولكنها هزت رأسها وأفهمتنى أنها تريد عروسا وفراشها حتى تؤنس عروستها الأولى .

ولم أكن أستطيع أن أرفض لها طلبا فأحضرت عروسا وفراشا آخرين وضعتهما بجانب الأولين .. ولم تمض بضعة أيام حتى لاحظت أنها بدأت تضع حميتها فى فراش واحد وتترك الفراش الآخر خاليا .. وتكرر منها ذلك .. فسألتها ضاحكا عما يدعوها لذلك الأمر ، فأوضحت لى أنها تعد الفراش للطفل الذى يوشك أن يولد .. وفى الصباح التالى وجئتها تضع سبابتها على شفيتها امرأة إياى الا أحدث ضجة لئلا أوقظ «الننوة» ، ثم سحبتنى من يدى وأوقفتنى أمام الفراش الصغير الخالى وأزاحت الستار هامة : «انه بنت» .

أية ذكريات هاجعة أيقظتها الطفلة في قلبي ، وأى أحساس بالخوف سرى وقتذاك في نفسي .. لقد صمت برهة ثم قلت لها في رفق : جميلة جدا يا حبيبتي .. ما اسمها ؟ . واجابتني الطفلة بسرعة دون كثير تفكير : هنادية .. ليس اسما جميلا ، ولم أجب ، فقد كنت في حال لاتسمح لى بالكلام .. لقد قلت لك انى رجل مرهف الحس .. وكان الأمر أكثر مما أتوقع ومما أحتمل .

ومضت بضعة أشهر ثم مرضت الطفلة .. وبعد دقائق معدودات كان الطبيب بجوارها .. وقد أمرنا بالألا نتركها تغادر الفراش وأن نعطيها من اللبن قدر ما تستطيع أن تشرب وأخبرنا أنه سينبئنا بالنتيجة بعد التحليل ، وفى المساء أخبرنا أنها مصابة بالدفتريا .

وسأمر عابرا بالأيام الثقيلة التى تلت ذلك .. فلمست أنكر الكثير عما حدث بها .. اذ كان يخيل لى أنى كنت أعيش وسط ضباب كثيف اشاهد تلك المعركة التى كانت تدور بين ابنتى وبين الموت .. وأنا مكتوف اليدين لا أملك سوى الصبر والانتظار .. حتى كان ذات يوم بدا لى فيه أن الطفلة العزيزة على وشك أن تخسر المعركة .. وحضر الطبيب فى ذلك المساء .. وبعد أن مكث ربع ساعة انتحى بى جانبا وأنبأنى أنه لم يعد فى وسعه شىء .. وأننى يجب أن أتوقع الأسوأ . ثم كتب لى اسم دواء وطلب منى احضاره قائلا : هانه مجرد محاولة قد تعيد الينا بعض الأمل . وانصرف على أن يعود الينا قبل منتصف الليل .. وأدركت وقتئذ أن الطفلة قد حانت نهايتها .

ولم أشك أن الدواء الذى كتبه الطبيب لم يكن الا مجرد سد خائنه ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره .. باحثا عنه فى الصيدليات التى وجدناها مفتوحة وقتذاك ، ولكنى لم أجد له أثرا .

وأخيرا عدت أدراجى الى الدار وجلست وزوجتى فى صمت هنيهة وأخرى كنا نتمسك على أطراف أصابعنا لنرقب دلفتنا طفلتنا فى معركتها الخامسة .

وعندما دقت العاشرة تسللنا الى الحجرة ، ونظرنا الى الفراش وكانت الصغيرة تبدو نائمة على جنبها الأيمن وقد ثنت ركبتيها قليلا .. وفجأة رأينا شيئا ! لم أكن وحدى الذى رأيته .. ولا كانت زوجتى وحدها التى رأيته .. لقد رأيناه كلانا .. رأيناه بأعيننا كما تبصر أصابعك فى وضوح النهار .. لا وهما .. ولا شبعا .. لقد رأينا بجوار الطفلة الراقدة طفلة أخرى قد أحاطنها بذراعيها كأنما تحاول أن تقيها الشر ، وندراً عنها غائلة السوء . وكانت الطفلة هى نادية ! أجل لقد كانت نادية ترقد بجوار سامية وكلتاها واضحة وضوح الأخرى .. وكانتا تبدوان كالنائمتين .. ووقفنا نحملق فيهما وكأننا فى حلم .. وأخيراً اختفت نادية فجأة كما ظهرت .. ونقدمنا بخطى وئيدة ونحسنا سامية، فإذا بها نائمة .

ونظرت الى المنضدة فوجدت عليها زجاجة لم تكن موجودة من قبل .. ورفعتها فى يدي فإذا بها الدواء الذى أشار به الطبيب .

قد تتهمنى ياسيدى بأننى لم أر فى الفراش سوى شبح صورته لى الأوهام .. ولكن ما رأيك فى زجاجة الدواء ؟

وعندما حضر الطبيب مرة أخرى قبيل منتصف الليل وانحنى عليها أبصرت فى وجهه دهشة شديدة .

وبعد أن فحصها برهة استدار وقال فى هدوء وهو يحاول أن يخفى شيئاً من حيرته : هذه معجزة من السماء .. انها الآن بخير .. أعتقد أن الخطر قد زال .

وكان ذلك منذ زمن بعيد وقد مائت زوجتى منذ بضع سنين ، وتزوجت سامية ، وأنجبت طفلة خضراء العينين ، ذهبية الشعر ، هى حفيدتى «نادية» لشد ما أراها تشبه نادية الأولى !

هل عندك ياسيدى تفسير لكل هذه الأمور ؟ تفسير يقبله عقلى الكهل .. لا أظن ! فأغلب ظنى أن هناك اشياء فى هذه الحياة لا يستطيع تفسيرها .. وليس علينا إلا أن نقبلها على علاقتها .

# الحاج جمع على

خيل الى انه لم يكن هناك من سمع  
الصوت سوى ، وبدأت أشعر  
بالخوف والحرص وتناولت ميسم  
الشيشة، أشد منها نفسا استعين به  
على تمالك نفسي ، وهنا رأيت أعجب  
ما يمكن لآسان أن يراه

الحاج «على أبو سريع» أو «الحاجعلى» كما تعودنا أن نسميه مدغمين  
الكلمتين ببعضهما كأنهما كلمة واحدة . هو حاج رسمي .. حصل على لقبه  
بتأدية فريضة الحج فعلا ، وما زلت أنكر كيف استقبل عند عودته من حجة  
المبرورة .. استقبال الغزاة الفاتحين .. بالطبل والمزمار والنقران» وقد  
اضطجع بجسمه الهائل الضخم في عربة «حنطور» زينت بالورود وسعف  
النخل كأنه «مطاهر» .. وعلى باب داره علقت الاعلام الخضراء ، وفرشت  
الأرض بالرمال الأصفر .

ولم أر هناك فارقا كبيرا بين «الحاج على» قبل الحج وبعده .. فمن ناحية  
اللقب لم يزد عليه شيئا .. فقد تعودنا أن نخلعه عليه قبل أن يحج .. فهو حاصل  
عليه «من منازلهم» أو هو حاج «عرفي» .. أما من ناحية المظهر ، فكل ما  
زاد عليه من «سبحة» يحرك حباتها بين أصابعه .. «وبدلة» فضية حشرها في

بنصره السمين .. أما من ناحية المخبر أو الجوهر ، فلم يتغير منه شيء البتة .  
فهو هو .. نصاب ، محتال ، كذاب ، خداع .

وهو لا ينسى «الفرض» ! ولكن الفرض عنده لا يتعدى ركوع وسجود  
وتحريك شفاة بكلام تعود اللسان نطقه دون أن يعيه الذهن أو يفهمه .. ولانعى  
بذلك أنه يؤدي الصلاة تظاهرا ، بل عن يقين واعتقاد واقتناع بأن هذا هو واجبه  
نحو الله .. وماذا يطلب منه أكثر من الصلاة والصوم وحج البيت ؟

هذا هو واجبه نحو الله ، ولقد قام به خير قيام .. أما واجبه نحو عباد  
الله ، فهو يعتقد أنه شيء آخر لا صلة له البتة بواجبه نحو الله ، ولذلك يحرص  
على ألا يخلط بينهما .. وفلسفته في هذا أن «الشغل شغل» ، وأن «أكل العيش  
يحب الحداقة» . ! وأكل العيش يعنى لديه ابتزاز أقصى ما يمكن ابتزازه من  
أموال عباد الله .. أما «الحداقة» فهي عنده وسيلة واسعة مطاطة ، تستطيع أن  
تحوى كل ما يخطر على البال من ضروب المكر والدهاء والنصب ،  
والاحتيال .

كان هذا هو مذهب «الحاجلى» قبل الحج لا يخلط أبدا بين الله وعباد  
الله .. ! ويعتقد اعتقادا راسخا .. أن الله راض عنه كل الرضا .. أما عباد  
الله .. فيبينه وبينهم حساب ، ليس لأمر الدين به شأن ، فهي مسألة «شطارة  
وحداقة» .

ولقد ظل مذهبه كما هو ، لم يغير فيه الحج شيئا .. بل لقد زاده نمسكا  
به خاصة وأنه يعتقد أن حجة لبيت الله قد رفع شأنه عند الله وزاد من رضى  
الله عليه ، وغفر له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر ، ولذلك فهو مقبل على عباد  
الله ولديه من الغفران رصيد كبير ، ويستطيع اعتمادا على هذا الرصيد أن  
يفعل بهم ما يشاء وأن يغشهم ، ويحتال عليهم ، دون أن يخشى غضب الله .  
هذا هو رأى الحاج فى واجبه نحو الله وواجبه نحو عباد الله . أما رأيه فى  
الواجب الثالث ، واجبه نحو نفسه .. فقد كان لا يحب أن يناقشه فيه أحد ..  
فقد كان لابد له أن يعطى نفسه حقها .. من الحشيش .. ومن النساء .

و «الحاجعلی» رجل خفيف الدم كغيره من «السمانه» الذين يعرضهم الله عن الثقل في أجسامهم خفة في دمهم .. فهو سريع النكته .. حاضِر البديهة .. حلو الفكاهة .. ولست أشك في أن هذا هو السبب الذي جعل عباد الله يغفرون له ما يرتكبه معهم من غش ونصب ، وفي الوقت نفسه يقبلون عليه وعلى بضائعه ، حتى أرحم بهم حانوته ، رغم تأكدهم أنه «مغلواني» وأنه من الغشاشين المخادعين .. «المطففين» الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون .

كان الرجل تاجر (باميش) بشارع بين الصوريين .. يزخر دكانه بغرارات الجوز واللوز والبندق .. وإفلات قمر الدين وصناديق التين .. وزجاجات الشرابات ، وعلب الحلاوة الطحينية والمِلْبَن .. وصفائح الملبس ، وكان يتخذ مركزه في وسط الحانوت على مسطبة مكونة من أربعة صناديق متجاورة غطى سطحها بحصير وتربع فوقه جسده السمين المنفتح وقد تدلى «كرشه» أمامه كأنه شيء منفصل عنه .. وانبط على جسده قفطان حريري مخطط كشف ذيله عن جزء من ساقيه الضخمتين ، كأن بهما داء القيل .. وقد التفت حول سمائتيهما «حمالة الشراب» وبدأ طرف حدائه الأصفر ذى الرقبة الطويلة واللاستك يطل من تحت أكداش اللحم المحملة فوقه ، فإذا صعدنا البصر الى أعلى وجدنا ، الحزام الكشميري وقد لفت حول محيط الكرة الأرضية .. لا تكاد تبدو له بداية ولا نهاية . فإذا تجاوزنا الحزام صادفنا صدر الرجل «المتختم» كأنه صدر امرأة بدينة وقد تهدل فوقه شيء يبدو كأنه كرش آخر .

فإذا أمعنا البصر في ذلك الشيء الذي ظنناه كرشا .. اتضح لنا أنه بداية ذقن أو «لغده» تعلوه ذقن الرجل الأصلية وقد توسطها طابع الحسن ، أو قل طابع القبح ، وفوق الذقنين : الذقن السفلى والذقن العليا شفتيه الغليظتين ، وقد وضع بينهما مبسم الشيشة تندفع خلالها أنفاس الرجل كأنها أنفاس الوابور فتحدث في الشيشة (كركبة) و (بقللة) .

فإذا تجاوزنا الفم صادفنا أنفا يبدو صغيرا نسبيا .. بجوار كتلتى اللحم اللتين يتكون منهما خذا الرجل ، أما العينان فلمست ادرى كيف كان الرجل

يصر بهما من فرط ضيقهما ، فهما تبدو أن في وجهه كأنهما  
تعبان .

وأخيرا تبدو رأس الرجل صلعاء جرداء .. تمتد إليها يده بين آونه  
وأخرى بالمنديل المحلاوى لتجفف قطرات العرق التى لاتفتأ تتسبب منها ،  
بصرف النظر عن حرارة الجو أو برودته !

و «الحاجلى» فى جلسته هذه يفعل كل شئ .. يبيع ويشترى ويشرب  
الشيخة ، ويلقى النكات والمغازلات .. فلسانه لايفك عن الحركة بين  
شدقيه .. وسيل الحديث لاينقطع عن التدفق .. ولو حاولنا أن نسجل له حديثه  
فى لحظة من اللحظات على سبيل (العينة) لما وجدنا فيها أكثر مما يلى :

«ياميت حلاوة .. «ياميت ندامة على اللى حب ولا طالشى» «أبوك ..  
قول اشمعنى .. يسكوه بورقة» .. «يانور العيون أنست» .. «انتى يابت يا اللى  
زى القشطة» ..

وقد تأخذه الحماسة فيصفق بيده ، وقد يتملكه الطرب فيندفع فى الرقص  
وهو جالس على مصطبته يحرك كرشه ويهز كتفيه ويتمايل ذات اليمين وذات  
اليسار .

فإذا ما أذن المؤذن بالصلاة هبط من على مصطبته سائحا بقوله المأثور  
«ساعة لقلبك وساعة لربك» ، ثم يعطى لربه نصيبه من الركعات والسجادات .

هذا هو «الحاج على» ، المرح المهازر .. رجل زبائنه من غواة  
الضحك .. يضحكهم ويضحك عليهم ، ويغفرون له غشه وخداعه من أجل  
خفة دمه .. !

وكنيت للرجل صديقا حميما .. فقد كان يقطن بجوارنا فى درب  
الجماميز ، وكنا كثيرا ما نقضى سهرتنا سويا فى مقهى «عكاشه» على ناصية  
الشارع نلهو بلعب الطاولة والتدخين والسمر وحيث يتناول هو «قصاء» أو  
«فصين» يزن بهما رأسه ..



ومرت بى فترة من الوقت شغلت خلالها عن رؤية الرجل حتى كانت ذات ليلة ذهبت الى المقهى لأقضى السهرة معه ، فلم أجده وسألت عنه فعلمت أن به وعكة ، وأنه رافد فى داره .. ورأيت الواجب يحتم على أن أزور الحاج ، وأطمئن عليه ، ولم يكن الأمر يكلفنى كثير مشقة ، فقد كانت دار الرجل على قيد خطوات من المقهى .

وتوجهت الى الدار ، وقرعت الباب بالمقاطه الحديدية المدلاة عليه ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى فتح الباب ، ووجدت أمامى خادما يسألنى عما أريد ..

ولفت نظرى فى الخادم جلاببه .. فقد وجدته من قماش مخطط خطوطا حمراء وخضراء .. كأنه احدى فاناتل «كرة القدم» .

ولم آبه كثيرا لجلابب الخادم .. رغم غرابه منظره ، لأنه خادم ولا حرج عليه فى أن يلبس ما يشاء ، وأجبت على سؤاله بأننى أريد الحاجلى . فعاد يسأل :

- نقول له مين ؟

وتكررت له اسمى فاخفى ، وعاد بعد برهة ليقول :

- اتفضل ..

وتفضلت ، ودخلت الى الصالة ، فوجدت ما يقرب من السبعة أطفال ، ما بين بنين وبنات ، تتراوح أعمارهم بين الثانية والثانية عشرة وقفوا فى الصالة يتطلعون بأبصارهم الى .

وتملكنتى من رؤيتهم الدهشة ، لا لكثرة عددهم ، فقد كنت أعلم أن لدى الحاجلى من الأولاد ما يربو على هذا العدد ولكن الذى أدهشنى هو أنى وجدتهم جميعا البنات منهم والبنين قد ارتدوا جلابيب من نفس القماش الأحمر والأخضر المخطط الذى يرتديه الخادم .

وسرت فى طريقي متجاوزا «تيم الكرة» الذى يتطلع ببصره الى .. واتجهت الى حجرة الاستقبال حيث قاعدنى الخادم .

- لا .. هذا كثير ! .. لابد أن أهل الدار قد أصيبوا بلوثة !  
من يصدق أننى وجدت بياضات الأرائك والكراسى من نفس القماش ؟  
ودخلت على «الحاجلى» ، فإذا بى أجده مستلقيا على الفراش وقد تكور  
كرشه وبدا كأنه قبة جامع .. لا فرق بينهما سوى أن قبة الجامع بيضاء ، أما  
كرش «الحاجلى» فقد كان مخططا بخطوط حمراء وخضراء .  
أجل ، فقد كان الرجل نفسه يرتدى جلبابا من القماش أياه !  
وقلت للحاج :  
- لابس عليك يا حاج ، انت انكسرت من الماتش ؟ !  
وفهم الرجل ما أعنيه ، وأنى أقصد «التريقه» على جلبابه فأجاب  
مبتسما :  
- اجلس .. أنك لم تر البقية بعد ..  
- هل ما زالت هناك بقية ؟ !  
وهز رأسه ببساطة وأجاب بالإيجاب ..  
ثم رفع ذيل جلبابه قليلا وكشف عن صدره فوجدته يرتدى قميصا  
وسروالا من نفس القماش .. !  
واندفعت أفهقه ، والرجل ينظر الى فى استكانة ، حتى تماكنت نفسى  
ومألتته :  
- ايه الحكاية .. ؟ عليكو عفريت اسمه «التيتش» ؟  
وهز الرجل رأسه بالنفى فعدت أسأله فى دهش :  
- أمال ايه ؟  
فأجابنى :  
- عسى أن يكون الآن مستريحا فى قبره .  
- من هو ؟  
- صاحب القماش ..

وازدادت حيرتى ، وعدت اتساءل عن حقيقة المسألة هل هو «ندر» من «الحاجلى» أن يلبس هذا القماش اذا ما توفى صاحبه ؟ أم أن هناك «أسياده» يركبون الرجل وأن «الكودية» قد أشارت عليه بلبس هذه الثياب لمحاولة ارضائهم ؟

ولكن «الحاج» عاد يهز رأسه بالنفى ، ثم صمت برهة وبدا يقص على حقيقة الأمر قائلا :

- ياسيدى .. المسألة بسيطة .. ذهبت منذ بضعة أيام لأقضى سهرتى فى المقهى ، واتخذت مجلسى على «الدكة اياها» التى تعودت أن أجلس عليها ، وطلبت من «دقيق» الشيشة ، ووضعت فيها الدخان «والذى منه» ولم أكد أشد منها نفسا أو نفسين حتى حضر المعلم «بطنجها» كعادته .. ثم قال : «السلام عليكم» .. «السلام عليكم» .. «اتفضل يا معلم» .. قعد المعلم .. «تلعب عشرة .. يا حاجلى» .. «ألعب .. ما ألعب ليه .. هو انت صغير اء .. وصفق المعلم «بطنجها» وطلب من «دقيق» أن يحضر للطاولة .

وبدأنا اللعب .. «شيش جهار» .. «شيش باك» .. «معلش يا زهر» . وحمى اللعب ، فتركت الشيشة جانبا .. وأقبلت على الزهر .

وهنا حدث أمر عجيب .. فرغم أننى كنت أجلس وحدى على «الدكة» .. ورغم انهما كى الشديد فى اللعب .. فقد بدأت أحس أن هناك شخصا يجلس بجوارى .. شخصا أستطيع أن أراه بطرف عيني ، وأنا منصرف إلى الطاولة .

وحولت بصرى فجأة لأرى هذا الشخص الذى جلس بجوارى ولكنى لم أجد أحدا ، فعدت الى الانهماك فى اللعب ، ومع ذلك فقد استمر بى الاحساس بأن هناك شخصا يجلس بجوارى وأنى أستطيع أن المحه بطرف عيني .. واستمر هذا الاحساس متسلطا على حتى حضر المعلم «رجب» واقتررب ليجلس بجائبنى ، وهممت بأن أصبح به محذرا حتى لايجلس على الرجل الذى أراه بجوارى ، ولكنى خشيت أن أكون واهما .. فيتهموننى بالجنون .

وعدت الى اللعب وأنا أحس قلقا ، فقد اعتقدت اعتقادا جازما بأن المعلم رجب، يجلس على حجر الرجل الذى جلس على «الدكة» بجوارى ، وأن الرجل لاشك فى ضيق شديد .

وقذفت بالزهر ، وقلت : «شيش ياك» .. وتمهلت برهة افكر فى كيفية تحريك الحجارة . ثم هممت بأن أرفع حجرا من احدى الخانات عندما سمعت صوتا يقول لى : «سيب ده واحبس فى الياك يا غبى» .

وتمكنى الدهش فقد كان الصوت غريبا عنى ، لم يكن صوت «بطنجها» ولا «رجب» ، بل صوتا آخر ، وأحسست بالغضب وهم دعى بأن يفور ، لولا أننى وجدت أن اللعبة التى أشار بها على الصوت هى اللعبة «الصبح» فلم أجد بدا من احتمال الامانة وتنفيذ اللعبة .

وخيل الى أنه لم يكن هناك من سمع الصوت سوى ، وبدأت أشعر بالخوف ، والحر ، وتناولت «مبسم الشيشة» أشد منها نفسا استعين به على تمالك نفسى ، وهنا رأيت أعجب ما يمكن لائنسان أن يراه .

لقد نفثت الدخان من فمى فلم يتصاعد فى الهواء ، بل أخذ يتكثف ويتجمد حتى ظهر من خلاله صاحب الصوت .

أجل لقد رأيت أخيرا ذلك الرجل الذى كان يجلس بجوارى وقد وقف ينظر الى الطاولة مرتديا جلبابا طويلا وطربوشا .. والتفت حولى خلسة أرقب وجوه الموجودين وأرى أثر ظهور الرجل عليهم ، فاتضح لى أنهم لم يميزوه ، وأنى أنا وحدى الذى رأيته .

وبدا الرجل ، أو قل الشيخ ، يرشدى فى كل لعبة ، «فك الجواهر» بإحمار .. «أحيس فى الدو ياتيس» «سيب الحجر ده يا طور» . لقد كان الشيخ قليل الأدب بعض الشيء ولكنى احتملته فى سبيل نصائحه .

وكيف لا أحتمله ! وقد انتهى بى الأمر الى أن أغلب المعلم «بطنجها» أربع عشرات ، وأنا الذى لم أغلبه فى حياتى مرة واحدة .. حتى كاد الرجل أن يصاب «بنقطة» .

وأخذ الناس ينصرفون من المقهى الواحد تلو الآخر حتى «صفصفت» على وعلى صاحبى الشيخ .

وجلس الشيخ بجوارى وهممت بأن اطلب له شايا أو قهوة ولكنه أفهمنى أن الأرواح لا تستطيع الأكل أو الشرب .. وبدأنا فى «الدرشة» والحديث عن هزيمة «بطنجها» التى لم يسمح التاريخ بمثلها .

ولاحظت على الشيخ دلائل هم وعلامات ضيق وقلق ، فسألته عما به فhez رأسه قائلا : «لاشئ» ، ولكنى الححت عليه فراح الشيخ يسرد حكايته قائلا :

– ان مصيبتى كبرى لأن روحى معلقة بين السماء والأرض فلا أنا حى لاسعى وأعيش مع الأحياء ، ولا أنا ميت فتصعد روحى الى السماء مع بقية الأرواح !

ونظرت اليه فى دهش وسألته كيف يمكن أن يحدث هذا ! فأجاب :

-- ان قصتى تبدأ منذ عشرين عاما عندما كنت أعمل مع أبى فى تجارته فى الغورية ، وكنا نلجأ فى الأقمشة ، وفى يوم نحس اصابنا سوء الحظ فضاعت علينا صفقة كبيرة ، واتهمنى أبى بأنى أنا الذى أضعتها ، وانى خائب لا أصلح للتجارة ، وانى سأعيش طول عمرى عالة عليه .

وأثارنى قوله ، واشتد بيننا النقاش وقلت له أنه هو الخائب وانه يفسد بتدخله معظم الصفقات ، وانى لو كنت وحدى لأريته كيف تكون التجارة .

واندفعت فى ثورتنى الى بعض أثواب من القماش فحملتها على كتفى وقلت له اننى سأسرح بالأثواب وسأريه كيف يكون البيع ، وأقسمت ايماننا مغلظة انى لن أعود حتى أبيعها .. وأن تحل لعنة الله على فلا يهدأ جسدى فى أرض أو تستقر روحى فى سماء حتى أبيع آخر قطعة منها .

ولكنى لم أكد أغادر الحانوت وأسير فى الطريق بضع خطوات وأنا أحمل الأثواب حتى دهمتنى عربة فقتلت لساعى .

وحملنى رفاقى الى القبر وسط النحيب والبكاء وانتظرت أن تصعد  
روحي الى السماء ، ولكنها لم تصعد ! فلقد حلت لى اللعنة ووجدت نفسى  
أتجول فى الطرقات وأنا أحمل الأثواب أحاول بيعها فلا يرانى أحد ولا يحس  
بى انسان .. عشرون عاما وأنا أهيى على وجهى فى الطرقات محاولا بيع  
الأقمشة دون جدوى . وأخيرا عثرت على أول شخص استطاع سماعى  
ورؤيتى وهو انت .. ان فى يدك خلاصى ، وكل ما أريده منك هو أن تتباع  
منى الأقمشة ان سعرها رخيص جدا بالنسبة لاسعار هذه الأيام .. فهى  
«بالتراب» .. ان الثوب لايزيد ثمنه عن ثلاثة جنيهات .

وأخذت أفكر فى قول الشبح فرأيت أنى استطيع أن أصيب عصفورين  
بحجر . اذ أستطيع بشراء الأثواب أن أنقذ روح الرجل .. ثم ان الصفقة نفسها  
صفقة هائلة فمن ذا الذى يستطيع أن يشتري الآن قماشا بأسعار ما قبل  
الحرب .

ولم أتردد كثيرا ونسبت النقود فى يد الشبح وسرعان ما سلمنى  
«الأثواب» الثلاثة .

لأثقل أننى كنت واهما ، وأن ما رأيته لم يكن سوى أضغاث أحلام ..  
فلا أظن هناك دليلا على أن الأمر كان حقيقة واضحة أكثر من هاته الجلابيب  
التي يرتديها كل من فى الدار .

وانتهى «الحاجلى» من قصته ، وأخذت أفكر جيدا .. وتذكرت رجلا  
عرض على ذات ليلة عينة من قماش لديه منه بضعة أثواب بسعر رخيص  
وتذكرت أن عينة القماش لم تكن تختلف كثيرا عن هذا القماش .. ولم أشك وقتذاك ان  
القماش الذى لدى الرجل مسروق ، وأنه يبيعه خفية ولذلك أعرضت عنه .

ترى هل كان الرجل شبحا.. أم أن «الحاجلى» الذى خدع الناس جميعا  
قد استطاع الرجل أن يخدعه أخيرا فجعله «يطب» ويتتاع الثلاثة أثواب  
المسروقة ! .

علم ذلك عند ربي ، وعند «التعميرة» التى كان «الحاج» يشد منها نفسا  
بعد نفس .

# حَيَاةٌ ، رُوحٌ

... فنظرت أمامي فتملكني دهش  
شديد لقد وجدت تغييرا كاملا في كل  
ما يحيط بي ، وتبدل ما كنت أبصره  
أمامي تبديلا تاما .. اني لم أجد نفسي  
في مكان آخر فحسب .. بل في زمان  
الخر .

ما الروح وما الحياة .. وما الموت .. وما الدنيا .. وما الآخرة .. وما  
الزمن ؟ أهو ذلك الشيء الذي يبدو لنا كسيل دائم التدفق ينبع من المستقبل  
المجهول ، ويجري في وهاد الحاضر الذي نعيش فيه .. ثم يصب في الماضي  
الخفي ليذهب الى غير عودة أو أن أقسام الزمن الثلاثة : المستقبل والحاضر  
والماضي يمكن تشبيهها بأشياء مجسدة ، ويمكنها التحرك في أى اتجاه كما  
يتحرك أى كائن ملموس .. فأى حدث من أحداث الحياة بأوضاعه الثلاث :  
مستقبله ، وماضيه ، وحاضره .. يمكن أن يتحرك في أى اتجاه في محيط  
الزمن .

أوضح قولى .. أم ترانى لا أحسن التعبير ؟

لكى أوضح أكثر .. هل يمكن للماضي أن يصبح حاضر وللحاضر أن  
يصبح مستقبلا ؟ .. لاتعجلوا الرد فتقولون : لا .. لاني أستطيع أن أؤكد أن  
ذلك شيء دائم الحدوث .

وفيما لا تعلقون الاحلام .. بم تعلقون الفترة التي يحياها النائم في ماضيه ؟ وبم تعلقون تلك الاحلام التي تنبئنا عن المستقبل والتي تعرض علينا في نومنا .. وهو حاضر .. أحداث لن نتخذ مكانها في ميدان الزمن الا بعد أيام أو أشهر .

اليس هذا هو تحرك عكسي للأحداث في محيط الزمن من المستقبل الى الحاضر ، ومن الحاضر الى الماضي .

هذا شيء دائم الحدوث في الأحلام .. ليس فيه ما يثير الدهشة ، ولكن مارأيكم اذا ما حدث هذا في اليقظة ، فعاش الانسان فترة من الماضي وهو يقظان .

أمر عجيب .. أعياني تفسيره ! .. فقد حدث لصاحب لي كان يحيا حياتين : حياة حاضرة ، وحياة ماضية .

اليكم قصته ، سأسردها كما هي .. ان ذهني البشري اعجز من أن يكشف غوامضها أو يجد لها تعليلا .

وقع النبأ على وقع الصاعقة .. فما خطر لي على بال قط أن صاحبي «توفيق المهندس» يمكن أن يقدم على جريمة قتل ! . ولست أشك - اذا ما وصفته لكم كما عرفته منذ عشرات السنين - أن الدهشة مستملككم ، كما تملكنتي ، وأنكم مستمعلون معي .. كيف أقدم على ارتكابها ؟ وتحت أية ظروف ؟

هو انسان عاقل متزن ، أميل إلى الصمت ، مسالم بطبيعته يصعب عليك أن تثيره ، أو قل يستحيل اثارته أو اغضابه .. فما رأيته قط غاضبا أو ثائرا .. بل يوافقك على كل ما تقول نجنيا منه للنقاش والحديث .. اذا سألته أجابك بقدر ما يمكن من الاختصار .. ان لم يكن بهزة من رأسه .

عرفته خلال الطفولة والصبا والشباب .. فلم أجده مرة واحدة يخرج من حلمه وهذونه وصمته .. فقد كانت تلك هي طريقة خلقه وتكوينه .. ولم تكن شيئا مكتسبا من السن أو التجربة .. أو نتيجة لصدمة من صدمات الحياة .



عشرون سنة .. لم أفارقه خلالها ، وهو هو ، ما أغضبته غباوة خادم .. أو اهانة رئيس ، ولا ضاق بمزحة ثقيل أو ثرثرة ماجن .. بل تعينه سعة صدره على أن يلقي الحياة وسخافاتا بإبتسامة هائلة ونفس قريرة .

تصوروا بعد كل ما أعرفه عنه .. أسمع فجأة أنه قد ارتكب جريمة قتل ! وقتل من ؟ خادمه العجوز وعم محمد، الرجل الطيب الهادئ .. المخلص الأمين .. الذى اصطحبه منذ أن حضر من بلدته الى القاهرة للدراسة ، والذى أمضى السنين الطويلة فى خدمته دون أن أسمع به يشكو منه قط .. بل كان أشبه بالأب ، والأم ، والزوجة ، وكان يقوم له بكل ما يلزمه ويقضى كل حوائجه .

لقد كان القتل آخر ما يمكن أن ينتظر من صاحبه .. ومع ذلك فقد تجبر الظروف أى انسان مهما بلغ من الهدوء والاتزان على أن يقدم على القتل .. قتل لص هاجمه فى الليل وارغمه على أن يرد العدوان عن نفسه بقتله .. أو قتل فى ثورة غضب لشرف مثول .. أو أى ظرف من الظروف الطارئة التى قد تؤدى بنا جميعا الى ارتكاب القتل .

أقول ان العذر قد يلتمس لصاحبه المعتز العاقل لو انه أقدم على جريمة قتل من هذا النوع .. الذى لا تجدى فى دفعه حكمة ولا عقل .. ولكن أى عذر هناك .. فى أن يقدم على قتل الخادم العجوز المسكين .

ولقد بدا لى فى أول الأمر .. أن الحادث قد يكون فيه سوء لهم أو التباس . وأن صاحبه قد يكون بريئا من كل ما اتهم به . ولكنى عندما عرفت تفاصيل الحادث أدركت أن الأتلة كلها تكاد تجزم بأنه القاتل .

كانت الواقعة تتلخص فى أن: بواب البيت الذى يقطن فيه صاحبه أقلقه قبيل الظهر الا يجد أثرا للخادم العجوز وهو الذى تعود أن يهبط اليه كل صباح ليبتاع الفول والقطار لسيدة ، ثم يخرج بعد ذلك للسوق لشراء الخضروات واللحم لتجهيز الغذاء .. وقد يجد من وقته فسحة للردشة معه وشرب فنجان من القهوة ما بين الفطار والغذاء .

وتذكر البواب أنه قد شاهد «توفيق افندى» يهبط الدرج مسرعا فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء عندما كان يوشك أن يستلقى فى فراشه فى غرفته الخشبية الكائنة أسفل السلم . ولم يذكر بعد ذلك أنه أحس بعودته .

واستنتج أن «توفيق افندى» ربما قد قضى الليل خارج الدار ، وأن «عم محمد» قد طال نومه فلم يجد بدا من أن يطرق الباب ليوقظه .

وطرق الرجل الباب فلم يسمع الا صدى طرقاته . واشتد الطرق بلا جدوى . فتملكه القلق .. وأحس بأن شيئا غير عادى لابد أن يكون قد حدث وأوجس فى نفسه خيفة .

ونظر من ثقب الباب فسرت فى جسده رجفة . إذ بدا له كأن هناك جسدا مسجى بجوار الحائط فى أقصى الغرفة .. وتراجع فى ذعر ثم انطلق من الدار صائحا وأبلغ أول من صادفه من سكان الدور المجاورة وأصحاب الحواليت . وبعد برهة كانت الشرطة والناس قد تكأكأوا حول البيت .

وفتح باب الدار ، فإذا بالخادم ملقى على الأرض جثة مأمدة ، وقد هشت رأسه بضربة من عصا غليظة ملقاة بجواره بدت عليها آثار دماء . وكانت ملامح القتل بدا عليها دهمش شديد .

واستطاع البواب أن يجزم أن العصا هى عصا «توفيق افندى» وأدلى بشهادته التى تتلخص فى أنه لم يشاهد من السيد والخادم الا كل ما تعود أن يشاهد يوميا ، وأن كليهما آوى الى الدار قبيل العشاء ، وأنه شاهد السيد بعد ساعتين ، أو ثلاثة يهبط الدرج وقد اندفع من الباب فى عجلة شديدة ، ولكنه لم يخطر بباله قط أن هناك جريمة قتل قد ارتكبت .. فما حدث ما يثير ريبته أو يوقظ شكوكه وهو لايعرف هناك سببا يستدعى أن يقتل السيد خادمه ، فقد كان الرجل طيبا وكانت العلاقات بين الاثنين على خير ما يرام .

وقرر الطبيب الشرعى أن القتل حدث قبل الحادية عشر اى فى الساعة التى شوهد فيها «توفيق» يندفع من الدار ، ولم يستطع المحقق أن يستدل على أن أحدا دخل البيت غير الرجل والخادم .. وهكذا ثبتت التهمة على «توفيق»

ولم يبق هناك مجال للشك فى أحد غيره ، خاصة وأنه قد ولى فرارا ولم يظهر له أثر بعد ارتكاب الجريمة ! ..

أمر عجيب !!

ان التحقيق قد أثبت أن «توفيق» هو القاتل . وأنه ضرب الخادم بعصا ضربة أفضت الى موته ثم فمه هاربا .

ولكن لم يقتله ؟ .. أين هو الآن ؟ ..

أن المسألة رغم أن التحقيق استطاع اثباتها بسهولة .. تبدو عويصة محيرة . فأننا أدرى الناس بصاحبى . انه لا يستطيع أن يقدم على قتل حشرة ، وهو ليس بالانسان الأحمق الذى يثيره خطأ خادم الى حد أن يتهور فى ضربه ضربة ترديه صريعا .

لا .. لا .. انى أقسم ان «توفيق» لا يمكن أن يكون القاتل .. فلا بد أن تكون هناك ظروفًا خفية احاطت بالجريمة .. ظروفًا يعرفها هو ، ويستطيع لو أظهرها أن يرى نفسه مما اتهموه به .

ولكن أين هو ؟ ولم اختفى ؟ . وماذا يخشى اذا كان لم يرتكب الجريمة ؟ انى موثق لو التقيت به لاعترف لى بكل ما حدث . فهو يثق بى ثقة عمياء ، ولا يركن الى أحد سواى ، ولا يستطيع أن يخفى عنى شيئا .

ونشر الحادث فى الصحف تحت عنوان «مهندس يقتل خادمه ويفر هاربا» وأعلن أن البوليس جاد فى البحث عن القاتل الهارب .

وعدت الى البيت ورأسى يصطخب بتلك المسألة المحيرة . ومضى اليوم وأنا أحاول عبثا أن أجِد تعليلا منطقيا معقولا لشيء مما حدث .

انى أجزم أن «توفيق» ليس القاتل ؟ من هو القاتل اذا ؟ .. ولم لاذ «توفيق» بالهرب ؟ وای انسان على وجه الأرض يمكن أن يكون له مصلحة فى قتل العجوز المسكين ؟

وبتلك الأفكار الحائرة والأسئلة التي لاتجد جوابا شافيا . آويت الى مضجعى .. ولم أك أتوقع بالطبع أن يتسلل النوم الى عيني بسهولة ولكنى فقط كنت اريد أن أريح جسدى .. وهكذا رقدت على الفراش وقد انتابنى أرق شديد وتنبهت كل حواسى . عندما سمعت فجأة طرقا على الباب .

وكان الطرق من الخفة بحيث تخيلت اننى واهم فيما سمعت . ومضت برهة ليست بالقصيرة دون أن أسمع شيئا حتى كدت أجزم أن الطرقات لم تكن سوى خداع سمع .

ولكن .. مرة ثانية ، عادت الطرقات . خفيفة مترددة .. كأن صاحبها يسترق الطرق .. أو كأنه يخشى أن يسمعه احد سوى .

ونهضت فى حذر ، واقتربت من الباب ببطء ووقفت وراءه لحظة وحاولت جهدى أن أغلب على تلك الرجفة التى أصابتنى . فقد كانت أعصابى متعبة مكثودة . وتساءلت فى صوت لا يخلو من القزع :

- من ؟

وأجابنى صوت خفيض :

- أنا .. افتح ..

انه هو ! هو بعينه ! . صوت توفيق . الهادى الأجلش العميق وأنصت برهة .. وتلفت حولى .. فلم أجد احدا فى الدار قد استيقظ على صوت الطرقات سوى .. وتقدمت خطوة الى الباب ومددت يدى الى المزلاج فرفعته وفتحت الباب وهمست :

- ادخل .

ودخل صاحبى . واستطعت أن أميز وجهه على ضوء المصباح «السهارى» الباهت . فهالنى ما وجدت به من شحوب وانهاك ووجدته يترنح فى مشيته كأن ساقيه لاتستطيعان حمله ، فأمسكت بذراعه وقدمته الى حجرتى .. فارتمى فى اعياء على احدى الأرائك .

وأغلقت باب الحجرة بهدوء . ووقفت أنامله وقد أغمض عينيه وتلاحقت أنفاسه وأخذ صدره يعلو ويهبط ، وأمسكت بيده وسألته :

- ما بك .. بماذا تشعر ؟

- لاشيء .. فقط متعب وجائع .. ومحطم الأعصاب .

وتركته وذهبت الى المطبخ لآتي له بشيء يسد رمقه .. وتواترت الأفكار على رأسي في سرعة البرق .

اني واثق انه برىء مما اتهم به . ولقد آتني الى لآتي ملجأ الوحيد .. ولأنه ليس له صديق يعتمد عليه سوى .. ولاشك آني يجب أن أعاونه على اثبات براءته .. ولكن هب أنه ليس بريئا ؟ .. وأنه القاتل فعلا ، وأنه آتني الى فارا من وجه العدالة .. وأنه يطلب مني أن أخفيه عن أعين البوليس .. ماذا يكون موقعي حياله ؟

هل من العقل أن نعاون قاتلا على الهرب من وجه العدالة ؟ ثم الى متى أستطيع اخفائه ؟ . وماذا يكون موقعي اذا ما ضبط وثبت آني عاونته على الاختباء ؟

ولكني كيف تطاوعني نفسي على أن أبلغ عنه ؟ .. وكيف أستطيع أن أتخلي عنه وقد ركن الى وطلب معاونتني ؟  
ولكن لم كل هذه الفروض ، وأنا أكاد أجزم أنه برىء .

وعدت اليه ببعض الطعام وكوب من الماء .. فتناول الماء مني بلهفة وجرع الكوب مرة واحدة ، وكان قد هدا بعض الشيء .. وجلست أرقبه في صمت وهو يزدرد الطعام حتى انتهى منه ، وسألته في قلق :

- قص على ما حدث .. انك بالطبع لم تقتل الرجل .

وأطرق برأسه .. ومضت برهة طويلة وقد بدت عليه الحيرة والتردد ، ووجدته يجيئني ، وهو يهز رأسه في يأس شديد :

- لا أستطيع أن أجيبك بمثل هذه السهولة .. ان المسألة ليست من البساطة كما يمكن أن تتصور .. أنا لا أستطيع أن أجيب بأنى قتلت أو لم أقتل . ولا أكاد أعرف أنا نفسى اذا كنت بريئا أم مذنباً .. انها مسألة معقدة ملتوية ، وقبل أن أجيب عن سؤالك عما اذا كنت قتلت الرجل أم لا ، يلزم أن أوضح لك جلية الأمر .. وأروى لك الظروف الملائمة له ، ثم أسألك عما اذا كنت قاتلاً أم لا . أنت تعرف مبلغ ثقتى بك ، وأنى أعجبك كنفسى .. سأروى لك كل شيء بالتفصيل . وكل ما أرجوه منك أن تصدقنى .. ولا تتهمنى أننى واهم أو مجنون .. لقد كنت أود أن أقص عليك الأمر عند بدء حديثه ، ولكنى خشيت الا تصدقنى .. وفضلت أن أطويه فى صدرى ما دام ليس هناك ضرر فى ذلك . فقد كنت أجد فيه شيئاً خاصاً لن يتعدى دائرة نفسى .. ولا مبرر لأن أفصح عنه لأحد ، خاصة وأنه شيء لا يقره العقل .

ولو أنى سمعت هذا القول من انسان آخر غيره فى مثل ظروفه .. لشككت كثيراً فى سلامة عقله .. ولظننت به اضطراباً فى الذهن والأعصاب .. ولوجدت فى قوله تخبطاً منشأه ذلك الاجهاد الذى حطم قواه .

أجل لقد كنت أتوقع أن تكون اجابته لى قاطعة جازمة بأنه لم يقتل الرجل .. ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد الظروف المحيطة .. لا أن يقول لى أنه لا يدري هو نفسه أن كان قتل الرجل أم لم يقتله ولا يعلم اذا كان بريئاً أم مذنباً ، وأنه يسألنى أنا لكى أجيب عنه .

أقول انى لو كنت سمعت هذا القول من اى انسان لاتهمته بالجنون .. ولكن "توفيق" لم يكن الشخص الذى يسهل على اتهامه بالجنون .. فقد ألقى الى قوله بطريقته الهائنة المتزنة التى توحى الى السامع بالثقة فى كل ما يقال له بحيث لا يدع له مجالاً لريبة أو موضعا لشك .

وقلت له متسائلاً :

- عجب ! انك لاتعرف اذا كنت قتله أم لا !

- انى فى الواقع قد قتلت .. ولكنى لم أقتله هو .. بل قتلت انسانا لا أعاقب على قتله .. أو على الأقل ، لايمكن أن أعاقب على قتله فى زمننا هذا .. اللهم الا اذا كان الانسان يمكن أن يعاقب على قتل الأموات .. وأى أموات ؟ .. أموات تواروا فى باطن الأرض منذ مئات الأعوام .. ولم يبق منهم الا رماد عظام لا تكاد تميزه من أديم الأرض ؟ ..

وصمت برهة يفكر .. ثم رفع رأسه وسألنى فجأة :

- اسمع .. هل يمكن أن يعاقبك أحد فى أيامنا هذه على أن قتلت كليبر ، أو نابليون بوناپرت ؟

- نابليون بوناپرت ؟ .. أنا أعاقب على قتل نابليون بوناپرت ؟

- أنت ، أو أنا .. أو أى انسان !

- طبعا لا .. لسبب بسيط ، هو أنه ليس هناك من يستطيع قتل نابليون بوناپرت .. ولا أحقر جندى من جنود بوناپرت .. لأنهم قد أضحوا شيئا غير كائن .

- انتهينا .. اذا فليس هناك من يستطيع معاقبتى على الجريمة التى ارتكبت .

- ولكن القتل ليس بوناپرت .. وليس كليبر .. بل هو «عم محمد» الخاتم الذى كان بالأمس انسانا يتحرك من دم ولحم .. لا عظام فى باطن الأرض ، ولا أديم ولا رماد .

- ولكنى لم أقتل «عم محمد» فليس هناك قط ما يدعونى الى قتله .. انه - أكثر الناس نفعا لى .. ولست أتصور كيف يمكن أن تجرى حياتى بدون . كيف آكل .. كيف ألبس .. أنا أقتل «عم محمد» .. لما ..

- أنا لم أقتل إنك قتلت «عم محمد» .. ولكنى قلت أن القتل .. الذى أرى دم .. والذى طرحته جثته مسجاة على الأرض بلا حراك .. هو «عم محمد» .

- القتل هو «عم محمد» .. هذا هو المصاب .. وتلك هي العقدة .. ان الذى قتله لم يكن «عم محمد» .. ولكن الذى قتل فعلا هو «عم محمد» .  
وأطرق صاحبه برأسه ، واستغرق فى تفكير عميق .. ثم قال بعد لحظة :

- حسنا .. دعنى أروى لك المسألة من أولها .. خبرنى عن رأيك فى النهاية ، وقل اذا ما كنت برينا أم مذنبا .

بدأ الأمر ذات يوم قبيل الغروب ، وقد جلست فى شرفة الدار مستلقيا فى أحد المقاعد الطويلة المريحة أقرب قرص الشمس الملتهب يهبط فى الأفق البعيد رويدا رويدا ، وقد خلف وراءه ذيول الشفق الأحمر تبعث بأشعتها الأرجوانية متخللة أوراق الأشجار المترامية فى حديقة الدار وفى حدائق الدور المجاورة .

وأخذت أحلق فى رؤوس الأشجار المتهبة كأنها فوهات براكين .. وبدا لى كأن بصرى قد ثبت فيها لا يستطيع عنها حولا .. وأحسست بتبدل فى الذهن ، واسترخاء فى الأعضاء .. وانتابنى شعور الذى يقع تحت تأثير مخدر .. وبدت لى المناظر التى أمامى تتلاشى رويدا رويدا .. وفجأة أحسست ببقطة تماما .. ووضع كل شيء أمامى تماما ، كما يحدث عندما نكون فى ظلمة دامسة ، ثم تضغط زر كهربائى فيغمرنا النور مرة واحدة ، ونظرت أمامى فتملكنى دهش شديد .. لقد وجدت تغيرا كاملا فى كل ما يحيط بى .. وتبدل كل ما كنت أبصره أمامى تبديلا تاما .. انى لم أجد نفسى فى مكان آخر فحسب .. بل فى زمان آخر .

أجل ان ما أبصرته لا يمكن أن يكون فى زمننا هذا .

لقد وجدت نفسى أجلس فى «مشربية» ملونة بالزجاج بديعة الزخارف تدلى من سقفها - لامصباح كهربائى - بل قنديل زيتى دقيق الصنع .

وبدت لى الدور المقابلة لا يكاد يفصل بينى وبينها الا بضعة خطوات وقد ضاق الطريق بيننا ، وأطلت من نافذة «المشربية» فاذا بالطريق بغص بالعارة ، وقد قامت على جانبيه الحوائط المزخمة .



هل تعرف تلك الطرقات الضيقة التى تحيط بمدرسة «السنية» فى حى «السيدة» ، أو تلك التى تنفرع من «باب الفتوح» ؟ .. أو «بوابة المتولى» ؟ .

كان المكان يشبه الى حد كبير تلك الطرقات .. مع فارق فى ازياء الناس الذين يعيشون فيه . وأبصرت المارة وأصحاب الحوانيت يرتدون العمام الضخمة ، «والقفاطين» ذات السراويل والمراكيب الحمراء المديبة .

وأوحى الى ذلك المنظر الذى رأيته - منظر الدور ، والطريق والناس .. ثم منظرى أنا نفسى .. وقد لمحت ساقى تنتعلان «المركوب اياه» و «السروال الفضفاض» بأنى أعيش فى زمن غابر ، غير ذلك الزمن الذى تعودت أن أحيا فيه .

هبطت الدرج الحجرى بعد أن وضعت «العمامة» على رأسى ، وسرت بين الناس فى الطرقات .. فلم أجد أثرا لترام ، أو سيارة .. بل خيل مطهمة . وعربات ، وحميز .

ورأيت الناس يتحدثون : بأن الوالى قد أمر بأن يعلق على كل باب ، مصباح ، ووجدت بينهم حالة من التذمر ، ولا أطيل عليك الحديث . فقد أدركت بسهولة مما أبصرت من مناظر وسمعت من أحاديث أننى أعيش فى عهد «محمد على» الكبير .

وأنى أنكر أن ما كان يشغل الناس يومذاك هو أنباء الحملة التى ينوى الوالى توجيهها الى «الوهابيين» تحت امره «طوسون» .. وكان يتحدثون عن السفن التى تم بناؤها والجيش التى تم حشدتها ، وتموينها بالمهمات والأسلحة والذخائر .

وعدت الى الدار عقب جولة فى الطرق المجاورة ، وجلست مرة أخرى فى مقعدى حيث كنت أجلس ، وبعد لحظة أحسست بنفس التبدل ، والاسترخاء ، وأخذت المناظر تتلاشى بالتدرج . ومرة واحدة أضيئت الأنوار ، فإذا بى حيث كنت .

★ ★ ★

.. وصمت صاحبي برهة .. ووجدته يجيب على نظراتي المتشككة قائلا :

- حسنا .. قد يبدو لك هذا مجرد حلم .. واننى أغفيت اغفاءة طويلة وأنا جالس فى مقعدى .. ولقد كان هذا فعلا هو ما تصورته .. حتى حدث بعد بضعة أيام أن تكرر الأمر مرة ثانية بنفس الطريقة ، وإذا به أجد نفسى مرة أخرى : اعيش فى قرن مضى .

لا أظننى استطيع افقاعك بمجرد أن أطلب منك أن تثق فى صحة قولى .. وأن تصدق أن ما كان يحدث لى هو شىء أكثر من الأحلام .. هو انتقال فعلى من حياة الى حياة .. وأن الحوادث كانت تمر بى فى الحياة الأخرى بنفس الترتيب المنتظم الذى يتبع مرور الأيام .. بمعنى أننى إذا انتقلت اليها اليوم مثلا .. ثم انتقلت اليها بعد ذلك بيومين ، فانى أجد أنه قد حدث بها من الحوادث ما يقع فى يومين ، وذلك يؤكد ان ما كنت أبصره فيها هو حياة مستمرة ، وأبست مجرد مناظر منقطعة . قد يداخلك الشك فى صحة قولى ، ولكنى أستطيع أن أنكر لك من التفاصيل ما يثبت لك بوجه قاطع اننى عشت فعلا فى ذلك العصر .. أنت تعلم أننى مهندس ، وأننى لم أدرس من التاريخ الا ما درسناه سويا فى مدرسة الخديوية ، والذي لا يعدو أن يكون سردا سطحيا لنوعية «محمد على» الحكم وفتوحاته واصلاحياته ، أما التفاصيل الدقيقة عن الحياة فى ذلك العصر .. والتي قد تعرف انت عنها الشىء الكثير بحكم مهنتك كمدرس للتاريخ ، فانى أجهل الناس بها .

وهزئت رأسى بالموافقة ، ووجدت نفسى أنصت اليه فى لهفة .. وأطلب منه أن يذكر لى تلك التفاصيل ، وبدا يصف لى الطرقات والناس ، ويذكر لى كيف أبصر شاطئ النيل فى المكان الذى تقوم فيه بولاق ، والمطبعة الأميرية ، وقد تحول الى ترسانة لصنع السفن .. وذكر لى أن أطراف المدينة كانت تقوم عند العباسية وأن المكان المفروض فيه أنه القبة الآن .. كان ميدانا للتعبة ، وحشد الجنود ، وأخذ يصف لى تفاصيل دقيقة عن الحياة فى ذلك الوقت ، ويصف لى الطرقات ، والميادين ، والدور ، والحوانيت .. وكيف أبصر ميدان السيدة ، والحسين .

ونظرت اليه مشدوها مأخوذاً .. فأنا أدري الناس بصحة كل ما قال ..  
فقد درست ذلك العهد جيداً وقرأت الكثير عنه ، وكان كل ما قال صحيحاً مائة  
في المائة .. كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ وفجأة خطر لى خاطر خلت أنه كشف  
لى عن جلية الأمر .

وهزرت رأسى وقلت لصاحبى كأننى قد حلت اللغز !

- هل قرأت تاريخ الجبرتى ؟

فنظر الى فى غبطة وأجاب متعجباً :

-- جبرتى ؟ .. أنا أقرأ تاريخ الجبرتى ؟ .. أأدى وقت لى أقرأ

الجبرتى .

- ولا تاريخ الحركة القومية للرافعى ؟

- لا داعى لهذه الأسئلة .. يجب عليك أن تتق بى ، وتصدق كل ما

أقول .

- أنى أثق بك وأصدق ما تقول .. ولكنى أريد أن أجد تعليلاً لما حدث

لك .. ومبرراً لأن تعرف فى غيبوبة كل هذه المعلومات الدقيقة . اذا كنت

لم تقرأ شيئاً من هذا .. فان المسألة لاشك خارقة للعادة .

وساد الصمت بيننا برهة .. ووجدتنى استغرق فى التفكير .

هذا الرجل الجالس أمامى .. قد أمكنه أن يعيش فى قرن مضى .. ان

معلوماته لاشك أدق من الجبرتى ، ومن أى مؤرخ كتب عن عصر محمد

على .. أنه أبصر محمد على ، أو يستطيع ابصاره .

وسألته فى لهفة :

- هل رأيت محمد على ؟

- رأيته مرة يمر بعربته من أحد الطرق ولمحت بجانب وجهه .

- والنقيب عمر مكرم ؟

- رأيته خارجاً من سيدنا الحسين فى جمهرة من الناس .

- ومن رأيت من رجال التاريخ غير هؤلاء .. حدثني بالتفصيل كيف وجنتهم .

ولكنه هز رأسه .. ولم يبد عليه أنه يهتم كثيرا برجال التاريخ وأجاب بعد برهة صمت :

- يجب أن ننكر أنى لم أعش فى حياتى تلك كمؤرخ .. ولم أكن أهتم كثيرا بأن أعدو وراء هؤلاء المشاهير لأبصرهم كيف يبدون ، ولا ماذا يرتدون .. لقد كنت فردا عاديا وكأنت لى حياتى الخاصة التى أهتم بها .

- ولكن هل كان من حولك يحسون بك ؟

- طبعا .. هل تظننى كنت بينهم شبحا ؟

- وكيف كانت علاقتك بهم ؟ ..

- هذا ما أنوى قصه عليك .. ان تلك العلاقات هى التى أدت الى المشكلة التى أغرقت نفسى فيها .. سأقص عليك كيف بدأت .. لقد تعودت أن اجلس عندما أندفع فى حياتى الأخرى على مقهى بجوار «باب الفتوح» وصاحبت من رواد المقهى رجلين من كبار التجار «محسن الخيمى» و «عبد الرؤوف الدخالخى» ، وفى ذات يوم ، وقد اندمجت فى حياتى الغابرة ، جلست على المقهى بينهم دعائى «الخيمى» الى تناول الغذاء معه .. وترددت برهة ولكنه ألح على فقبلت . وذهبت الى داره .. دار فخمة البناء ، فاخرة الריاش ، ومد السماط . فتناولنا من الطعام ما لذ وطاب ثم تمددنا على المراتب نحتمس القهوة .

وانتهينا من القهوة .. وسألنى مضيفى ان كنت أود أن أرى مستقبلى فى الفئجان .. فأجبتة بالموافقة .. فنادى على الساقى وطلب منه أن يرسل عائشة ثم التفت الى قائلا :

ان ابنتى «عائشة» خير من أن يقرأ الفئجان .. لقد علمتها القراءة جارية عجزت تولت تربيتها بعد أن ماتت أمها .

وبعد برهة أقبلت عائشة !

أجل .. أقبلت عائشة فأحسست أن قلبي يكاد يقفز من بين أضلعي .  
لقد أحببت بضع مرات فى حياتى هذه .. ورأيت كثيرات من أنواع  
النساء .. ولكنى لا أنكر قط أن مخلوقا استطاع أن يفعل بى كما فعلت عائشة .  
لا أريد أن أضيع الوقت فى وصفها لك . فليس هذا مجال غزل  
وتشبيب ، ولكن ما تكون .. المهم .. هو ما تركته من أثر فى نفسى .. لقد  
أحسست أنها سبرت فى دمنى وأنى قد أصابنى من سحرها نشوة عجيبة .  
وقرأت لى الفنجان .. ولم أسمع بالطبع مما قالت شيئا .. وعدت الى  
الدار وأنا شبه ثمل .  
وعندما عدت الى حياتى هذه .. وجدت أن الشيء الوحيد الذى أستطاع  
أن يعلق فى نفسى من حياتى الأخرى ، هو : عائشة .  
وتعودت بعد ذلك أن أراها فى كل مرة أعود فيها الى حياتى الماضية ..  
بل لقد أخذت أتعجل العودة الى تلك الحياة وأفضلها عن هذه الحياة .  
وتطور الأمر الى حب متبادل بيننا .. واستطعت ذات مرة أن أخلو  
وأياها وأعترف كل منا بحبه للآخر .  
وصممت على أن أتقدم لخطبتها . عندما فوجئت ذات يوم بأن عبد  
الرؤف الداخنى قد خطبها .  
وأحسست كأنما مستنى صاعقة .. وعلمت أن أباها قد رضى به لأنه  
سينقذه من الافلاس .. ووجدت أن الطير قد أفلت من يدى .. أو هو يوشك  
أن يفلت .  
وتمكنى ما يشبه الجنون ، وصممت على أن أفوز بها بأية طريقة ..  
حتى ولو كلفنى الحصول عليها .. حياتى .. ما قيمة الحياة بدونها !  
والتقيت بها خفية فى حديقة الدار .. فوجدتها قد أنبلها الحزن ..  
وانبأتنى أنها لن ترضى بمخلوق سوى ، وأنهم لن يزفوها الى خطيبها الآخر

الا جثة هامدة ، وافترقنا فى تلك الليلة بعد أن صممنا على أن نهرب سويا قبل أن يتم الزفاف .

وتركتها وتسالت فى جنح الظلام وهممت بأن أقتز من سور الحديقة عندما أبصرنى الحارس ، وظلننى الرجل لصا .. وصرخ يطلب النجدة .. وعدا خلفى بعصاه للحاق بى .. وأخذت أعدو فى الظلمة حتى تعثرت بحجر فوقعت على الأرض ووجنته قد لحق ورفع عصاه ليهوى بها على .. ولكنى نهضت بسرعة ، وأمسكت بالعصا فانتزعتها منه وهويت بها على رأسه فخر على الأرض صريحا .

★ ★ ★

وصمت صاحبى برهة طويلة ، ثم رفع رأسه وقد زاغ بصره ، وقال :

. - هذا هو الرجل الذى قتلته .. رجل كان يعيش منذ مائة عام حاول قتلنى .. فدافعت عن نفسى بقتله .. ولكنى عندما عدت لحياتى هذه ، وجدت أن القتل لم يكن سوى «عم محمد» .

ولم يكن أمامى خيار من الفرار .. لا لأننى أخشى أن أنهم بقتله .. بل لأنى لأريد أن يشغلنى شيء عن انتقاها .. أجل .. لقد أصبحت المسألة .. مسألة حياتها أو موتها .. فهى مصممة على ألا تزف اليه الا وهى جثة هامدة ولا بد لى من انتقاها .

ومرة أخرى عاد الى صمته ، ووجدت ذهنى يضطرب بما فيه .

ان صاحبى فى حالة عجيبة لم يسبق لها مثيل .. انه يريد ان ينقذ حياة امرأة ماتت منذ مائة سنة .. ويريد أن ينقذها من زوج لاشك أنها قد تزوجته .. أو تزوجت غيره ، فهو لن يغير فى التاريخ الواقع شيئا .. لأن ما حدث لاشك قد حدث .

لقد حاول أن يعيد الماضى .. وأراد أن يفعل شيئا يستحيل فعله .. وينقذ تلك المرأة مهما بذل من حول وقوة .. ولكن انى له ذلك .

ثم أخذ يهذى كالمحموم الذى تغلبت عليه وطأة المرض ..  
وحاولت تهدئته وافهامه أنه مهما كان من صحة قوله فهو يعشق انسانية  
غير كائنة ، وأن حالته تلك قد سببت له أن يرتكب فى الحياة الأخرى حوادث  
وهمية .. تظهر نتيجتها الفعلية فى حياته هذه .. وأن القانون لايمكن أن يعفيه  
من تهمة قتل «عم محمد» الا تحت ظرف .. وهو أنه مجنون .

وطلبت منه أن يكف عن حياته الأخرى ، لأنه فى محاولته انقاذ صاحبه  
مرة أخرى قد يرتكب جريمة قتل أخرى أو من يدرى .. قد يقتله الحراس  
فى الحياة الأخرى فماذا تكون النتيجة فى حياته هذه !

وأخيرا طلبت منه أن يهدأ ويستريح .. وأن يترك المسألة للصباح ..  
فعسى أن يهبنا الله من لدنه رحمة .. ويهيىء لنا من أمرنا رشدا .

★ ★ ★

ولكنى عندما استيقظت فى الصباح لم أجده .. وبعد برهة علمت أنه قد  
عاد الى داره .. وأنبتت أن البواب لم يشعر به الا وهو يهوى من الشرفة فيهبط  
الى الطابق جثة هامدة .

وظهرت الصحف، لدرى خاتمة الحادث تحت عنوان :  
«المهندس الذى قتل خادمه ولاذ بالفرار ، ينتحر بالقاء نفسه من الشرفة» .  
ولم يدر انسان ماذا يمكن أن تحوى تلك الأسطر من حوادث خارقة ..  
وانطوت بموته حياته المزدوجة .. التى لم يعرف عنها احد سواى وسواه .  
ترى كيف كانت خاتمتها فى الحياة الأخرى .. هل استطاع انقاذ  
صاحبه ؟ ..

★ ★ ★





# كَانَتْ هُنَاكَ

ولقد عادت لي بعد ذلك ، لتطاربنى  
في كل مكان ، حتى بت أحس أنني  
على وشك الجنون .. ان لم أكن قد  
أصبحت بالفعل مجنوناً ..

شيخان .. سيد وخادم .. شديداً الزم من برباط من الود متين . والفت  
الأيام بين نفسيهما فأصبحا لا غنى لأحدهما عن الآخر .. فهما أشبه بانسان  
وظله ..

أما السيد فهو الأستاذ ، الدكتور عبد الله الشنواني ، .. أستاذ علم النفس  
بالجامعة . عالم من كبار العلماء .. المشهود لهم بالعقريّة والنبوغ ووفرة  
العلم .. يحيطه عارفوه ومريدوه بهالة من الاجلال والتقدير والاكبار ، ويحيط  
هو نفسه بهالة من الشهادات ذات الأحرف الأفرنجية المتعددة .. التي قل أن  
يفكر في فك رموزها انسان .. وهالة أخرى من المؤلفات والمحاضرات التي  
غمر بها المكتبات والمعاهد .. وهالة ثالثة من الشنوذ والشرود والذهول الذي  
يلذ للانسان العادي أن يراه فيمن يتخيلهم أرقى منه .. ولست أظنني مهما  
حاولت أن أنهكم على الرجل أو أكتب عنه بلهجة ساخرة ، بمستطيع أن أنكر  
فيه فضلاً هو السبب في كل ما وصل اليه .. وهو فرط الذكاء المقترن بطيب  
الخلق ، وكرم النفس ، والميل الى فعل الخير .

ويخيل لى أن الرجل قد وجد أن علم النفس اضحى ( مودة ) هذا الجبل وأن الانسان من فرط ولعه بنفسه قد أقبل عليها بحلها ، ويشرحها ، ويقتلها بحثا وتمحيصا .. فأتجه الى دراسة ، علم النفس ، وبرع فيه ، كما كان لا شك سييرع فى أى شىء آخر يوليه نفس الانهماك والاقبال . وقفز الرجل من درجة الى درجة .. ونال الشهادة تلو الشهادة .. وبين عشية وضحاها ، وجد نفسه أستاذًا شهيرا ، وعالما جليلا .

فاذا ما غرضنا الطرف عن الرجل كعالم وأستاذ ودكتور وتركنا جانباً مؤلفاته ، ومحاضراته ، وشهاداته ، وتلامذته ، ومقدراته ، وعارفى فضله .. وحاولنا أن نصفه كإنسان عادى ... وتعقبناه فى عقر داره .. وجدناه قد جلس فى حجرة نومه لينضو عنه ملابسه .

الساعة الثانية بعد الظهر ، والرجل قد عاد من الخارج .. بعد أن انتهى من حضور أحد المؤتمرات .. التى تعقد وتنفض دون أن يفهم هو منها شيئا .. فهو اما متكلم أو ( سرحان ) .. ولا تظن بقية الأعضاء خيرا منه ، فكثيرا ما يحدث النقاش بينهم فى أمرهم متفقون عليه .. أو يحاولون اقناع بعضهم بعضا برأى لم يختلف عليه أحد .

ويبدأ الرجل فى خلع ملابسه وقد وقف بباب الحجرة ، عم على اللبثى ، خادمه الأمين أو الفردة الأخرى ، كما كان يحلو لبعض الناس أن يطلقوا عليه .. فهو يكاد يكون صنو سيده .. بين أحدهما والآخر شبه عجيب .. ولو حلا لأحدهما مرة أن يلبس ثياب الآخر فخرج ، عم على ، مثلا من الدار مرتديا بدلة سيده الرنجات وياقته المنشأة اللتين لا يغيرهما حتى فى هجير بؤونة ، وأمسك بعصاه وتأبط حافظته ، وكبس طربوشه حتى أذنيه .. ووضع على عينيه منظاره السميك .. لما شك أحد فى أن الرجل هو الدكتور « عبد الله » نفسه .. أو لو خطر ببال امرئ ان يجردهما من الثياب ووضع كلا منهما أمام أخيه عاريا لتسبب فى مشكلة كبرى .. اذ يصعب أى نميز الخادم من السيد .. ويزيد المشكلة صعوبة ان الأمر لابد سيختلط عليهما فلا يعرف أحدهما من يكون « اللبثى » ، ومن يكون « الشنوانى » .

خلع الأستاذ سترته ، وقذف بها على الفراش ، ثم بدأ يفتك أزرار البنطلون وتركه يسقط على الأرض ، ثم خلع القميص ورماه على أحد المقاعد .. ووقف فى أرض الحجرة مرنديا سروالا من الفانلة الصوف غطى ساقيه الرفيعتين حتى القدمين ، وفانلة صوف ذات أكمام طويلة ، ولف وسطه بحزام صوف خمس أو ست مرات ، وتلى رأسه استقر الطربوش ثابتا على أنفيه .

وكان الشهر وقتذاك شهر يونية ، والساعة - كما قلنا - الثانية ظهرا .. ولست أظننى فى حاجة بعد ذلك الى أن أصف النار الموقدة التى كان يستعر أوارها ، ولا الشرد ، الذى كان يهب من النوائذ فيلفح الأجساد .

ووقف السيد عبد الله ، فى وسط الحجرة وبدأ عليه التأفف ، فقد كان الصوف يخز جسده ، ومد عم على يده بالجلباب الكستور الثقيل ، وسأله الأستاذ مترددا :

-- الست ترى ان الجو قد دفى بعض الشيء .. ما رأيك فى أن أخلع الحزام ؟

ولم يجبه عم على ، ولا ظهر عليه حتى أنه قد سمع سؤاله بل دفع اليه بالجلباب وقال له بلهجة حازمة :

-- اليس بسرعة .. والا تستهوى .

وأسرع الأستاذ بوضع الجلباب على جسده بسرعة .. فقد خاف فعلا ، أن يستهوى .. فقد كان فى مسائل والبرد والحرارة .. وكل ما يمكن أن يؤثر على الصحة يعتمد اعتمادا كليا على عم على .. ويثق فيه كل الثقة .

ولم يكن صاحبا قد خلع بعد طربوشه .. فقد كان رأسه هو نقطة الضعف فيه .. ولم يكن يجسر أن يتركه عاريا لحظة واحدة .. وظل الطربوش جاثما عليه حتى تعطف عم على ، ومد له يده بالطاقيّة الصوف ، فنزع الطربوش ، وكبسها ، بسرعة على رأسه .

وبدا الخادم الهرم يعلق الثياب على المشجب .. وجلس الأستاذ يفرك أصابع قدميه ، ويدفع عصاه في قفاه فيحك بها ظهره .. ثم سأل الخادم فجأة :

- عم على .

ورفع الخادم اليه عينيه دون أن يجيبه .. واعتبر السيد هذا بمثابة الرد ، وأردف يتم حديثه :

- ألم تسبح منذ شهرين ؟

- آه .. لقد نسيت .

ولم يكن الرجل قد نسى .. ولكن لم يجد ردا أسلم عاقبة من هذا .. وعاد فسأله بعلا برهة :

- ماذا طبخت اليوم ؟

- قرع .

وبدا الانزعاج الشديد على وجهه .. وقال في استياء :

- قرع ؟ أنا لا أحب القرع .

ونظر اليه ، عم على ، نظرة رادعة :

- القرع خفيف على معدتك .. القرع المسلوق .

وازداد انزعاج السيد وعاد يكرر :

- قرع مسلوق ؟ ولكن معدتي بخير .

- ليست بخير .

- ولكنى لا أحس بها ألما .. انها بخير .

- وأنا أعلى أنها ليست بخير ، لقد كنت ، تتكرع ، كثيرا في الليلة الماضية .

وهز الاستاذ رأسه وأدرك أنه لا فائدة من المناقشة ، فأتخذ الجانب الآمن .. وأجاب الاجابة التى تقيه الشر :

- آه .. لقد نسيت .. معك حق ، وماذا صنعت حلوا ؟  
- بلوظه .

وبدأ الاشعزاز على وجه السيد .. وقال بلهجة المغلوب على أمره :  
- كنت أفضل البطاطا .. بطاطا مغمسة فى العسل النحل .. انها تماما كالمارون جلاسيه .. بل وخير منه .  
- هذه أشياء ثقيلة على المعدة .. هذه رمرمة .

- معك حق .. ان شاء الله عندما تصح معدتى سنجرب هذه الأكلة ..  
عندما تخف معدتى تماما .

ولم يجب ، عم على ، فقد تحرك خارج الحجرة بعد أن أتم عملية تعليق الملابس وتفريشها .

وجلس الأستاذ يتناول طعامه .. ويدفع بالقرع المسلول فى جوفه متقرزا متأنيا ، وهو يرقب ، عم على ، الواقف على باب الحجرة بنصف عين .. وقد تملكه منه حنق شديد .. وطافت برأسه صحتبهما القديمة .. وتذكر صباهما وكيف أرسله أبوه معه من البلد لخدمته والعناية بأمره .. كان ذلك منذ أربعين عاما .. وذهب الاثنان الى القاهرة .. فاستقر بهما المقام فى احدى حجرات شارع ، ممتاز ، بالبيالة .. منذ ذلك اليوم لم يفارق أحدهما الآخر لحظة واحدة .

هل من الانصاف بعد كل هذا ان يوصف ، عم على ، بأنه كان خائما له ؟

طبعاً لا . وهو ليس من الضعة وانكار الجميل بحيث يعتبر الرجل خائما فقد كان له كل شيء : كان الأب ، وكان الأم ، وكان الزوجة .. وكان الشيء الذى لولاه لما كان هو نفسه .. ولما وصل الى ما وصل اليه .. لقد كان المشجع ، وكان النصير .

أربعون عاما .. تقلب كلاهما بين يدي الزمن في رفع وخفض ، وسراء  
وضراء .. وهما متلازمان متماسكان .

كم سهر بجواره يعينه على الاستنكار تحت ضوء المصباح الغازي  
الخافت .. وكم أرق لمرضه ، وجاع ليطعمه .. كم تحمل في سبيله الأذى  
والضرر .

وبدأت الحياة تبتسم وأخذ يرتقى الدرج شيئا فشيئا وبدأ يسطع نجمه ..  
وكان « عم على » يعرف واجبه تماما ويعرف كيف يدبر أموره ، ويرتقى  
بالمسكن والملبس ووسائل العيش حتى يجعلها تتناسب دائما مع مركزه في  
الحياة .

ولم يكن هو نفسه له دخل في هذه الأمور .. بل كان لـ « عم على »  
سميعة مطيعا .. فهو يعتبر أن الرجل ولى أمره .

وهكذا وجد نفسه ينتقل من « البغالة » الى « جنينة ناميش » الى « جنينة  
رشيد » الى « المنيرة » .. ولو كان الأمر بيده ، لظل كما كان ، في حجرته  
بالبغالة .. ولظل مداوما على الفول والطعمية ، والعسل والطحينية -- وفي  
حالات اليسر - البيض والعجوة .

أربعون عاما .. لا يستطيع أن يتصور كيف كانت تمر به لولا « عم  
على » .

وازدرد الرجل آخر قطعة من القرع المسلوق . وأمسك بالمعلقة يدفع  
بها في « طبخ البالوظة » بمنتهى التبرم والاشمئزاز .

ورفع عينيه الى الرجل الواقف بجوار الباب كأنه تمثال لا يتحرك  
ورمقه بنظرة حقن وغضب ، وعاد يحدث نفسه :

لقد أضحي الرجل لا يطاق ، وأنه ليكاد يضيق به ذرعا وينسى له فضل  
الأربعين سنة من فرط ما يسبب له من مضايقات ، ما ضره لو استبدل بالقرع  
بطاطس أو بادنجان ، ثم ما الداعي لهذا الاصرار منه على الحزام الصرف  
الذي يتقل به بطنه .

ولكن الذنب ذنبه هو .. فهو المستكين المستسلم ، وهو الجاهل الذى لا يعرف من شؤون الحياة شيئا .. لم لايحضر له طبأخا ويحضر له بضعة خدم اخرين .. لقد كبر ، عم على ، ومن الحق ان يفرض نفسه عليه مدى الحياة .. انه قد أضحى هو نفسه فى حاجة الى من يخدمه ، لقد أضحى متعبا .. ومتعبا . وزاد الطين بلة هذا الصمم الذى أصيب به أخيرا مما يضطره الى الصباح به بضع مرات حتى يستجيب لندائه .. ولقد تعود الرجل أيضا أن يحدث نفسه ، وأن يرى أشياء لا يراها سواه ، أشباحا أو أرواحا أو شيئا من هذا القبيل .. ربما خيالات وأوهاما .. وهو يسبب له بذلك ازعاجا شديدا .. حتى أنه ليخشى أن ينتهى الأمر بأحدهما الى الجنون .

وسمع ، عم على ، يقتم لنفسه ببضع كلمات .. فأصابته الاستاذ رجة شديدة ، ولم يجد خيرا من أن يكلم الرجل حتى يمنعه من الحديث الى نفسه ، فصاح به :

-- عم على ...

ورفع الرجل بصره ولم يجب .. واستمر الأستاذ :

- سيزورنى اليوم ضيف فى حوالى الخامسة بعد الظهر ، أرجو أن تجهز لنا شايًا .

وصمت لحظة ثم أردف :

-- ضيف عزيز ورجل محترم من عليّة القوم .. فأرجوك أن تخرج الطقم الصينى المذهب .

وأشار الرجل برأسه علامة الموافقة .

وعاد الأستاذ يؤكد :

-- الطقم الصينى المذهب .. سامع ؟ لا أريد أن تخجلنى أمام الرجل بالفناجين الفخار الصفراء .

وقام ، الأستاذ ، ليغسل يديه ، ثم اتجه الى حجرته ليضطجع ومر بالخادم وهو يزيل بقايا الطعام من فوق المائدة فقال له للمرة الرابعة :

- الطقم الصينى يا ، عم على ، .. لا تنس .

وأشار الرجل بالموافقة دون أن يصيبه أى ضيق من الحاح سيده ،  
والواقع أن هذا الالاحاح من جانب الأستاذ لم يكن فى غير موضعه .. فقد كانت  
مسألة ، طقم الشاى ، من المسائل التى ظلت معلقة بينهما لم يحسهما نقاش أو  
نزاع .

فـ ، عم على ، يتخذ من طقمى الشاى معيارا يزن به أقدار الناس .  
فتراه قد قسم الضيوف والصحاب الى قسمين : قسم مرغوب فيه ، وقسم غير  
مرغوب فيه .. أو كما يقول هو : الأشرار والأبرار ، وهو يصر على الا  
يشرب الأشرار الا فى الفخار .. أما الطقم الصينى فهو يحتفظ به للذين يود  
أن يخصصهم برضائه ، ويشعرهم باعزازه وأكرامه .. وهو يعتبر نفسه فى هذه  
المسألة .. مسألة الفخار والصينى دكتاتورا مطلقا .. الذى يقرر أهل الصينى  
وأهل الفخار .

وكان من المحتمل الا تزعج ، الأستاذ ، هذه المسألة ، وأن يقبل تحكم  
الرجل فيها كما قبل تحكمه فى غيرها ، لولا أنه يحس أن ، عم على ، يخلط  
بين أقدار الناس ، فيقدم الصينى لم لا يستحقه ويقدم الفخار لم يستحقون  
الصينى . فلم يجد بدا من أن يحذر ، عم على ، فى كل مرة ويفهمه عن الطقم  
الذى يجب أن يقدم ورغم هذا التحذير والتفهم .. كان ، عم على ، لا يفعل  
الا ما فى رأسه .

واليوم سيزوره رجل من كبار الرجال ذوى الشأن والمكانة ليستشيريه  
فى مشكلة ألمت به .. وليسألته العون والنصح باعتباره من كبار علماء  
النفس .. وهو يخشى جدا أن يخلجه ، عم على ، كعادته ، فيقدم ، الشاى ،  
للرجل فى الطقم الفخار .. فلم يجد بدا من تحذيره والالاحاح عليه .

ودقت الساعة الخامسة ، ودق معها جرس الباب ، وكان الأستاذ قد  
انتهى من ارتداء ملابسه ، وسمع ، عم على ، يفتح الباب ، ويدخل الضيف  
فى سكون الى حجرة الاستقبال فوضع المنظار على عينيهِ ، وكبس الطربوش



على رأسه ، وهروا لتحية الرجل ، وصادف ، عم على ، خارجا من  
الحجرة ، فعاد يكرر عليه للمرة الأخيرة :

الطعم الصينى يا ، عم على .

وهز ، عم على ، رأسه موافقا كعادته دون أن ينبس ببنت شفة .

وجلس ، الأستاذ ، يحبى ضيفه ، ويحيطه بما يلىق بمكانته ومركزه من  
آيات الاحترام والاجلال . وجرت بين الاثنين أحاديث سطحية عابرة .. عن  
الجو .. وعن السياسة .. والغلاء .

وبعد فترة دق الباب ، ثم دلف ، عم على ، الى الحجرة متحركا ببطء  
وتؤدة حاملا صينية رصت عليها الفناجين وبرد الشاي وبقيت الأتوات ، وكان  
الأستاذ موليا ظهره لباب الحجرة فلم ير الرجل حتى لف حوله ووضع الصينية  
فوق المنضدة .

ونظر ، الأستاذ ، الى الصينية ، وأحس يخيبة أمل شديدة ! ان الرجل  
الغنى اللعين قد ركب رأسه وضرب برجائه عرض الحائط .. فلقد أبصر على  
المنضدة الثلاثة فناجين الفخار ! . وعلام الفناجان الثالث ؟ .. ترى هل ينوى  
الأحمق أن يجلس فيشاركهما الشاي ؟ من يدري ؟ قد يفعلها .. فقد تطور فى  
السنوات الأخيرة فأضحى لا يستبعد عليه أى شيء .

ورفع السيد بصره الى خادمه الذى وقف فى صمت بجوار المنضدة  
والتفت الأبصار ، وكان كل منهما يستطيع ان يقرأ ما فى رأس الآخر  
بسهولة .. ولكن فى هذه المرة لم يجد فى عينى خادمه ما يقرأ .. فقد بدا عليه  
شيء من الشرود .. الشرود الذى يبديه وكأنه يرى أشياء غير مرئية ولا  
ملموسة .. ولشد ما كان ذلك يزعج ، الأستاذ ، ، ويخيفه ، فأمر خادمه أن  
ينادر الحجرة لأنه سيصب الشاي بنفسه .

وأخذ الأستاذ يصب الشاي ، وبدأ صاحبه يقص قصته .

قال الرجل : ان مسائلته من المسائل التى يصعب على العقل البشرى

نصديقتها ، فهو مصاب بشيء لا يحس به سواه ، وهو يخشى أن يقصه على الناس فيتهموه بالجنون ، ولذا فقد لجأ اليه لأنه يعتقد فيه سعة العقل وهو لا شك يستطيع أن يفهمه جيدا . كان الرجل يعرف في صباه امرأة من بنات الهوى .. وحملت منه المرأة فحاول اجهاضها عبثا .. وحان وقت ولادتها فنقلها الى احدى المستشفيات ، وكانت ولادتها عسيرة مضنية .. وأخيرا وضعت الجنين .. وماتت هي ، وأوصته بابنها خيرا ، وهي تلفظ آخر أنفاسها .

ورشف الرجل من فجاجه الأصفر رشقة طويلة وعاد يقول :

- لتتصور يا سيدي موقفي وأنا في السنة النهائية من الدراسة .. وأنا أعيش في بيت والدي الرجل القاسي الصارم .. وقد انجبت ابنا ، لا أم له .. ولا انسان يحمل عنى عبئه .. لقد حملته الى أحد الفنادق .. واستأجرت وياه غرفة .. آويه فيها .. حتى اسطيع ان أكبر أمرى وأمره .

وكانت ليلة عاصفة شديدة البرد ، والريح تعوى في الخارج عواء ذئاب ضارية . وينفذ فحيحها الى الحجرة من خلال النوافذ كأنه فحيح الأفاعى .. وأجهت رأسي لكي اجد لى مخرجا من مأزقى . وأخيرا مر بذهنى خاطر عجيب .. استطعت بواسطته أن أتخلص من حملى الى الأبد .

لقد خطر لى أن هذه الريح العاوية خير من يحمل عنى عبئى .. فلو فتحت لها النافذة وسمحت لها بالدخول لحظة وأطلقت فرها على الطفل .. فانها لا شك ستكون القاضية .. وسيموت الطفل دون أن يكون هناك أى مظهر مظاهر الجريمة .

وبعد لحظة كانت الريح تزارر في الحجرة .. والطفل يرتجف وبرتعد .. وفى الصباح قضى الأمر .. وذهبت الى الدار بعد أن القيت عنى ما أثقل كاهلى !

وصمت الرجل برهة شرد فيها ذهنه وعاد يتمتم :

- لقد ظننت أنني تخلصت من العبء نهائيا .. فلقد ذهبت الأم .. وذهب الطفل ، وأصبحت حرا طليقا من كل قيد .. ومرت بى الأيام وأنا أغترف من

ملذات الحياة حتى شبعت وارتويت .. ثم شعرت اخيرا بحنين الى الاستقرار  
والى أن يكون لى زوجة وبيت وأولاد . وفلا تزوجت .. ووضعت امرأتى  
أول طفل .

وفى ذات ليلة .. ليلة ليلاء سوداء .. أحسست بالنافذة تفتح على  
مصراعيها وبالريح تندفق من النافذة وبعد بضعة أيام مات أبنى .

وقد تقل أن الحادث مجرد صدفة .. وقد كنت أستطيع أن أقنع نفسى  
بذلك . لو لم أرها بعينى رأسى تعدو منطلقا من الحجرة بعد أن فتحت النافذة .

من هى ؟ .. المرأة القديمة ، التى قتلت ابنها . لقد عدت خلفها وهى  
تعدو الى الباب بعد أن فعلت ما فعلت وحاولت أن أهوى على رأسها بعصاى  
هذه .. وذهلت زوجتى وحاولت أن تمسك بى .. لأنها لم تستطيع أن تبصرها  
كما أبصرتها .. وظننتى أتخيل خيالات ..

ولقد عادت لى بعد ذلك . لتطاربنى فى كل مكان ، حتى بت أحس أنى  
على وشك الجنون .. ان لم أكن قد أصبحت بالفعل مجنونا .

وصمت الرجل وبدأ الأستاذ يهدىء من روعه ويوهمه أن ما به عقد  
نفسية ناتجة عما يحسه من تأنيب الضمير على الجرم الذى ارتكبه .. وأنه ليس  
هناك أية امرأة تطارده .. وأن النافذة قد فتحتها الريح .

وأخيرا خرج الرجل بعد أن هدأت نفسه بعض الشيء وأقبل « عم على »  
ليحمل صينية الشاى .. وتذكر الأستاذ مسألة الفناجين وكيف أخجله « عم  
على » مع الرجل بالفناجين الفخار فضغط على أسنانه وصاح به ناهرا لأول  
مرة فى حياته :

- ألم أقل لك أن تقدم الطقم الصينى .. لقد كررت عليك الرجاء مائة  
مرة .. ماذا أصنع بك ؟

ونظر « عم على » اليه وقال بهدوء :

- الطقم الصينى ليس به سوى فنجانين ! .

- ومن قال لك أننا نريد أكثر من فجانين ؟

وصمت ، عم على ، برهة وهز رأسه وقال وهو يحمل الصينية ويغادر  
الغرفة ببطء وثقل ، وفي عينيه النظرات الشاردة التي تظهره كأنه يرى أشياء  
خفية :

- لم أكن أظن أن المرأة التي تبعت الرجل .. ستصرف دون أن  
تحتسى الشاي .

★ ★ ★

# صَدَقْتُ بِمَجْهُولٍ

... ولم استطع أن أقول غير  
ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟ من  
الحديث التيلفونى ؟ من كان  
المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ .. ولم ؟

كنا صبحبة نسمر ذات ليلة .. وتشعب بنا الحديث ذو الشجون ، فاذا  
به يخوض بنا فى العالم المجهول ، عالم الأرواح ذى اللجج العميقة والمجاهل  
والمضال والتقى كل منا بما يعرف .. وما لايعرف .. وبدا حديثنا أقرب الى  
الترهات والأباطيل .. والأقاويل والأسنابل .. ولم أجد فى كل ما قيل أكثر  
من خبطات عشواء فى غياهب شك ، وظلمات ترجيم .

وتتابع الحديث ، واحتدم الجدل .. كل يسوق الأدلة ويضرب الأمثال ..  
وكان بيننا زميل طبيب لزم الصمت فما فاه ببنت شفة .. واستمر ينصت ولا  
يتحدث حتى أفرغنا ما فى جعبتنا من هراء ولغو وهذيان .. ثم رأيته يهز رأسه  
ببطء كأن هناك ما يحيره ويشغل ذهنه مما لا يود قوله .. وقلت له متسائلا :

- ما بالك ؟

- لاشئ .. خير لنا أن تكف عن الحديث فى الموضوع .. فنحن  
أعجز من أن نستطيع فهم حقيقته ، أو ادراك كنهه .. وخير لنا أن نقتع  
بظواهره من خفاياه ولا نحاول كشف غياهبه .. فكلما ازدادنا توغلا فيه ازداد

علينا حلقة وتعقيدا .. لندع العالم المجهول .. مجهول كما هو .. ولنلق انفسنا  
 خطر علمه .. فلقد صادفتني حادثة .. لها بهذا العالم صلة . حاولت أن أفحص  
 فيها وابحث وأجد في التعليل والتفسير .. ولكنى لم أفر بطلان .. ونأيت بذهنى  
 عنها خشية الجنون وقبلتها على علانها .. وفزت من العلم بسلامة العقل .  
 وصمت الطبيب برهة استعاد فيها الحوادث الى ذهنه .. ثم قال :

- لست أدرى .. لم كنت أول من لجأ اليه خاضعه عندما وجده ميتا فى  
 مقعده .. ولكن أغلب ظننى أن الخادم نفسه لم يخطر على باله أن سيده مات  
 فعلا ، عندما اقتحم عليه غرفته بعد أن وجده قد تأخر فى الاستيقاظ على غير  
 عادته .. ففوجئ بأن يراه قد تمدد على مقعده الضخم بجوار آلة التليفون وهو  
 بكامل ملابسه .. ولم تخطر على بال الرجل فكرة الموت .. بل ظن أن المسألة  
 لاتعدو اغماء بسيطا فأسرع فى استدعائى .

وبدت وفاة الرجل للمسؤولين وفاة طبيعية .. لا تخان حولها ولا غبار  
 عليها .. فقد مات الرجل بالسكتة القلبية .. ولم يكن هناك أى احتمال لأن يقال  
 شئ غير هذا .. ومع ذلك فقد كنت احص فى قرارة نفسى بما ينبئنى أن فى  
 وفاة الرجل شيئا خفيا .. لقد كنت أعلم أكثر من غيرى .. أن الرجل ذو قلب  
 سليم قوى .. فقد كشفت عليه منذ بضعة أيام ، ولم أجد به ما يبعث على  
 القلق .. ثم ما معنى تلك التعابير العجيبة التى ارتسمت على وجهه الميت ؟

كنت أعرف الرجل منذ سنين خلت .. فقد كنا جيرانا فى المعادى ..  
 ولم تكن داره لتبعد عن دارى الا مسيرة دقائق معدودات .. وعرفته فى أول  
 الأمر كرفيق قطار .. تشابهت مواعيدنا .. فتكرر لقاءنا فى القطار ذهابا  
 وعودة .. حتى كنت لايكاد يمر على يوم دون أن أبصره .. ولم يكن هناك  
 بد .. والأمر كذلك - خاصة وان الرجل لم تكن تبدو عليه سيماء شر .. ولا  
 مخائل سوء - من أن تنشأ بيننا صداقة عابرة لايزيد مظهرها عن ايماء  
 بالرأس ، وتبادل بضع كلمات عن الجو ، والسؤال عن «الصحة» .

كان الرجل اسمر الوجه حليقه .. على شئ من البدانة والترهل وثقل  
 الحركة .. وكان يبدو فى الحلقة الخامسة من عمره أبرز ما فيه مظاهر الطيبة

التي تبدو في قسماته ، والتي تعززها تلك المسبحة التي لا تفتأ حباتها تنزلق بين أصابعه .. وتلك الهمسات غير المسموعة التي تتمتع بها شفتاه .

وازدادت بيننا أواصر الصداقة .. فعلمت أنه رئيس قلم في إحدى المصالح ، وأنه يملك فوق مرتبه دخلا ثابتا من أرض لزوجته مما يجعلها في بسطة من العيش .. خاصة وأنهما لم ينجبا أبناء .. ويمر الأيام بدأت أتبادل مع الرجل الزيارات المنزلية فوجدته وزوجته مثلا لزوجين راضيين قانعين ، يجد كل منهما في قناعته بصاحبه أقصى متعته في الحياة .

وعندما أقول زوجان راضيان قانعان قد يبدو ذلك الوصف طبيعيا بالنسبة لأي زوجين .. لأن المفروض في الزوجين قناعة كل منهما بصاحبه .. ولكني من جانبى أرى أن الوصف على شيء من الغرابة .. لأنى لا أعتقد ان القناعة شيء طبيعي من جانب الرجل - وليعذرني الرجال على هذه الصراحة ، فكلنا في الهوى سواء - لأن الرجل خلق بطبعه شديد التعطش الى النساء .. لاتروى غلته امرأة واحدة .. ولا اثنتان .. ولا عشرة .. ولا مائة .. فهو دائم التطلع الى كل حسناء يقع عليها بصره .. قد يختلف الرجال في قدرتهم على كبت تلك التشوق وإخفاء تلك اللفة .. وقد يتفاوتون في مدى تهافتهم أو السيطرة على نفوسهم .. ولكن ما من شك في أنهم في بطولهم رجل واحد يتمنى أن يرتقى في أحضان أول حسناء تصادفه .. حتى ولو كانت له مائة زوجة .

وعلى ذلك فقد كنت أرى في قناعة الرجل بزوجته .. وفي رغبته عن سواها وزهده في غيرها .. حتى ولو بمجرد التطلع أو الحديث شيئا يستدعى منى التقدير والاعجاب .. وكنت أدهش من ذلك الامعان منه في النأى عن كل ما يتصل بالنساء وبسيرتهن .

وعندما زادتني الأيام معرفة بالرجل وبزوجته بدأت أسائل نفسي :

ترى أنلك الاخلاص منه والوفاء مبعثهما شعور صادق بالقناعة والرضا .. أم أن مبعثها ليس سوى خشية المرأة والخوف منها ؟ . لقد كانت الاجابة عن ذلك أمرا عسيرا .. فالرجل ممثل جيد .. لا يستطيع الانسان

بسهولة أن يسبر غوره .. ولكنى كنت أميل الى الاعتقاد الأخير -- لا لأنى من أنصار المبدأ القائل بأنه لا يوجد فى الدنيا رجل قنوع بامرأته قناعة حقيقية غير مكره عليها - بل لأن المرأة فعلا كانت من نوع شديد السيطرة ، قوى الشكيمة .. تتحكم فى كل شيء ، وتتصرف فى كل نافهة .. وكان هو سميما مطيعا ، راضيا قانعا .. أو هكذا كان يبدو .. فقد كان كما قلت معنلا جيدا .

وفى ذات يوم أصيبت المرأة فجأة بنزيف فى الرئة .. وأخذ مرور الأيام ينهش من حياتها حتى تركها جسدا طريح الفراش هزيلا نحिला .. وعندما ماتت لم يكن فى موتها أية مفاجأة .. فقد كانت نتيجة منتظرة محتومة .. ولا أظن الرجل الا قد حزن عليها ، وان كان قد حاول جهده أن يبدو متمالكا متماسكا وبأن يتنزع بالصبر والايمان وبـ «انا لله وانا اليه راجعون» وبدأ عليه هزال شديد فى الفترة التى أعقبت الوفاة .. وكان دائم الوجوم والأطراق .. وخيل الى أنه يقاسى ألم الفقرة والوحدة .. حتى وجدته بعد فترة من الوقت يمسرد نفسه .. ويعود الى سابق حالته .. لانهول ولا ذبول .. ولا وجوم ولا أطراق .

ولم أجد فى أمر الرجل شيئا من الغرابة .. لأنى أعلم أنه ما من نعمة من الله بها على عبده خير من نعمة النسيان .. وأنه ما من حزن أصاب الانسان الا وكان الزمن كفيلا بمحوه .. كل شيء فى الحياة الى الزوال مصيره .. حتى الأحزان ، والأشجان .

أقول أننى لم أدهش فى أن يعود الرجل الى نفسه .. ولكنى دهشت كثيرا عندما وجدته قد عاد الى أكثر من نفسه .. لقد لمحت به كثير تحول وتبدل .. فما عاد يعرض عن سير النساء أو يتجنب الحديث عنهن كما كان يفعل قبل وفاة زوجته .. وما عاد يخشى أن يبدى إعجابه بهذه أو بتلك .. وذهب عنه قديم زهده ، وسابق تعففه .. وبالطبع لست أقصد بقولى هذا أن الرجل قد تحول فصار زير نساء .. أو أنه قد بات صائد غوان أو مطارذ ظباء .. فانه مازال كما هو بطيبته وحيائه .. ولكنى تبينت ذلك التحول من طريقة حديثه .. فقد بدأ يكشف الحجاب عن نفسه ، ووضح لى أنه مخلوق مثلنا يستملح ويتمنى



ويشتمى ، ولم أشك وقبّذ فى أننى كنت على حق عندما ظننت أن مبعث زهده وعفته كان خشية من أمراته التى كانت شديدة السيطرة عليه .

وصادفت فى بضعة مرات امرأة من أصدقاء زوجته تزوره فى داره .. امرأة لا أظن هناك أصدق من وصفها من « بنت حنت » ولم يكن من العسير أن أكتشف أن صاحبنا مفتون بها .. فقد كانت توجد فى نفسه حالة سرور ونشوة ، ولم يكن يتورع من أن يخلع عليها ألفاظ المديح والثناء .

وفى ذات يوم - ولم يمض على وفاة الزوجة الا أشهر معدودات - بدا لى من حديث الرجل أن به رغبة فى زواج المرأة .. لولا أنه يخشى بعض أقرابه الذين سيعارضون فى ذلك .. ولست أدري أى شيطان جعلنى أتمنى فى ذلك الوقت أن أرى زوجته فى قبرها حتى أخرج لسانى لها ولغيرها من المخدوعات فى مسألة الوفاء الزوجى وفى قناعة الرجل وزهده .

ومرت الأيام ، وأنا أحس أن الفكرة قد اختمرت فى نفسه ، وأنه قد يقدم عليها فى أية لحظة رغم معارضة أقرائه حتى وجنته يقبل على ذات مرة فى دارى وقد بدا عليه قلق ظاهر .. وجلس يتحدث الى وهو يحاول أن يبدو طبيعيا الى أن قال فجأة :

- اسمع .. وقع لى اليوم حادث غريب يحيرنى أشد الحيرة .. لقد غادرت مكتبى فى هذا الصباح لفترة قصيرة وعندما عدت أنبأنى حاجب المكتب ان مبيدة طلبتني فى التليفون وطلبت منه بأن ينكرنى بأن أحضر الفستان من «النتلرى» فقد مضت عليه مدة طويلة .. وأدهشنى قول الرجل دهشا شديدا .. فان زوجتى قبل وفاتها قد أرسلت أحد ثيابها لتنظيفه ، وما زال الثوب هناك حتى الآن .. ولا أظن أن هناك من يعرف أمره الا أنا ، وهى ، وصاحب المحل .

مسألة غريبة ! ولست أنكر أن دهشى لم يكن أقل من دهشه .. ولكنى حاولت أن أجد تفسيراً لأخف من قلقة فقلت له أن المتحدثة لابد قد أخطأت الرقم ، وأنها قد تكون زوجة موظف آخر لها فستان تريد من زوجها احضاره وأن المسألة قد حدث فيها التباس .

وبدا لى أن الرجل يحاول جهده أن يقنع نفسه بما قلت .

وفى اليوم التالى أقبل على الرجل وهو أشد تجهما وأكثر قلقا وأنبانى أن المحادثة تكررت .. وأنه لم يجد بدا من الذهاب لاحضار الثوب .. وعندما عاد به الى الدار أقبل عليه الخادم ، وقد بدا عليه الانزعاج وأنباه أن سيدة تحدثت فى التلفون وقالت انها والمرحومة، وطلبت منه عندما يحضر سيده الفستان أن يعلقه فى الدولاب الأوسط .

ولولا ما كان يبدو على الرجل من دعر شديد لانطلقت مقهقه فانى لم أشك أن المسألة عبث عابث .. وان ماجنا يحاول أن يهزل مع الرجل هزلا ثقيلا .. واخذت أهدى روعه وأفهمه أن الأمر لايمكن أن يكون الا مزحة بلهاء ..

وعلمت ان الرجل متعب الأعصاب . وأن تلك المزحة الخبيثة قد صادفت من نفسه مرتعا خصباً للازعاج .. فنصحته أن يأخذ اجازة وأن يخلد الى الراحة التامة .

وصرفتنى عنه ظروف العمل ثم لقيته بعد ذلك بأسبوع .. فهالنى امره .. اذ وجنته قد أصابه هزال شديد وبدا شاحب الوجه غائر العينين .. وسألته فى دهش عما أصابه .. فأجاب لاشيء .. وعدت ألح عليه فى السؤال قائلا :

- لابد أن يكون هناك شيء .. أما زالت تقع تلك المحادثات التليفونية ؟

وتنهذ الرجل تنهيدة طويلة كمن يرزح تحت عبء ثقيل ، ثم قال فى ذهول :

- فى كل مكان أذهب اليه .. أجد منها رسالة تليفونية تنتظرنى .. فى المقهى .. وفى النادى .. وفى المكتب .. وفى المنزل .. وأؤكد لك ياسيدى أن المحادثات لايمكن أن تكون مزحة مازح .. ففى معظم الأحيان أجد فيها اشياء عن الماضى لايعرفها الا هى ، وأنا ..

- قد تكون المسألة مجرد توارد خواطر .

- مع من ؟ انها تذكرنى أحيانا بأشياء أكون قد نسيتها تماما .

- ولكن هذه الأشياء لاشك موجودة فى عقلك الباطن .

- ياسيدى ! لاتدعنى اتهمك بالسخف ! من تظن ذلك الذى يظل يطاردنى بين القاهرة والمعادى لينقب عما فى عقلى الباطن لكى ينقله الى فى التليفون بعد ذلك ؟ . ثم هناك أمر آخر ، هل تصدق أننى ذهبت لزيارة بعض الأقارب فوجدتهم فى حالة ذعر مخيف وأخبرونى أنها قد طلبتنى قبل ذلك بلحظات وأن من ربت عليها استطاعت أن تميز صوتها تمام التمييز . انها تعرف كل مكان أذهب اليه ، حتى ولو ذهبت اليه فجأة .

ولم أدر بم أجيب الرجل .. فقد كانت أعصابه محطمة ، ولم يكن هناك فائدة من الحديث معه .. وعندما فحصته طبيبيا وجنته سليما معافى ليس به الا اجهاد جسمانى ناتج عن الأرق .

وهذأت روعه بعض الشيء وحاولت أن أفحص المسألة معه فى هدوء ... قلت له :

- هب أن ذلك الذى يطلبك حقا زوجتك .. ماذا تظنها تريد منك ؟

قلت ذلك وأنا أتوقع منه أن يجيب بأنها تريده الا يتزوج .. ولكنه هز رأسه قائلا :

- لاشيء .. انها لم تذكر ذلك الشيء الذى قد خطر ببالك .. كل ما تطلبه أشياء بسيطة تافهة كالتى كانت تطلبها فى حياتها .. أو تذكرنى بأن أفعل كذا وكذا .. ولاشئ أكثر من ذلك .. ويخيل لى أنها بذلك تحاول أن تقحم نفسها فى حياتى مرة أخرى وأن تستعيد نفوذها على .

- وماذا يخيفك من ذلك .. فدعها تفعل كما تشاء .. حتى نمل من تلقاء نفسها وتتركك .

- ياسيدى العزيز .. ان أكثر ما أخشاه أمر واحد .. ان محادثاتها تقترب منى شيئا فشيئا .. أعنى أننى لا أكاد أذهب الى مكان حتى يخبرونى

أنها تحدثت منذ دقيقة أو دقيقتين .. ولست أدري والله ماذا يمكن أن يحدث لي اذا ما رفعت السماعة ذات مرة .. فسمعت صوتها ..

أجل لشد ما بخيفنى ذلك فما أظن أن هناك امرا قد خاطب الموتى قبل ذلك .. ان ذلك الأمر يسبب لى ذعرا شديدا .

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي أبصره فيها الرجل على قيد الحياة . فقد رأيته بعد ذلك عندما استدعاني الخادم . فوجدته ممددا على مقعد بجوار التليفون وقد تبلت السماعة بجواره .. وارتسمت على وجهه علامات ذعر شديد .. وقال الخادم انه سمع جرس التليفون يدق فى المساء .. ثم سكن الرنين فأدرك أن سيده لابد أن يكون قد أجاب عليه .

وفى الصباح وجده على حاله تلك وقالوا ان الرجل قد مات بالسكتة .. ولم أستطع أن أقول غير ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟ من الحديث التليفونى ؟ من كان المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ . ولم ؟

★ ★ ★

وصمت الطبيب وارتسمت على وجوهنا علامات دهش شديد .. ورأيتنى أفكر فى كل ما قال .. وأحاول أن أجده له تفسيراً .. انى شخصياً لا أومن بالأرواح ولا بالعالم المجهول .. ولكنى أومن بالبشر ، وب عقل البشر ، ورداءة البشر .. لست أدري لم ذهب ذهنى .. الى أقارب الرجل الذين كانوا يكرهون زواجه فى المرأة التى كانت على وشك أن يتزوج بها ثانية .. الا يمكن ان يكونوا هم الذين دبروا تلك المحادثات التليفونية لاختافة الرجل حتى حطموا أعصابه .. الا يمكن أن تكون واحدة منهم هي صاحبة المحادثة التى تسببت فى قتله ؟ أم ترى أن الصوت كان حقاً من العالم المجهول ؟ . من يدري ؟

★ ★ ★

# هَذَا الْبَيْتُ لِي

كم أود الانطلاق من هذه الدار ..  
أن روحى حبيسة فيها . انى أود  
الانطلاق الى ما هو أكثر رحابة  
وسعة .

استقر بهم المقام أخيرا فى هذه الدار الرحبة الواسعة بحلمية الزيتون ..  
ولم يكن صاحبنا ليصدق انه يستطيع الحصول فى هذا الوقت الذى استبدت  
فيه أزمة المساكن وارتفع ايجارها على مثل هذا المسكن بمثل هذا الأجر ..

من يصدق هذا ؟ فيلاء من بابها .. خمس حجرات متسعة وبدروم  
وحديقة مترامية الأطراف بخمسة جنيهاً وبلا دخل رجله .. لقد كانت  
بلاشك صفقة عجيبة .. أغلب الظن أن أحدا لا يعلم بخلو الدار ، والا لما  
استطاع الحصول عليها بمثل هذه السهولة .. انها مسألة حظ لا أكثر ولا أقل .

ومضت الأيام القلائل الأولى ، والزوجة منهمكة فى تنظيف الدار  
وتنظيم الأثاث بمساعدة الخدم .. أما هو فقد جعل الحديقة من نصيبه ، فانهمك  
هو وابنته فى تشذيبها وتهذيبها واصلاحها بعد طول اهمال ..

وانصرف الأسبوع الأول وهم فى حركة دائبة حتى أعادوا الى الدار  
رونقها وجمال مظهرها فأحسوا بالهدوء والسكينة والاستقرار .

ومرت بهم الأيام ، قريرين هانئين . وجلس الأربعة ذات مساء في الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة ، وقد اضطجع الأب على أحد المقاعد المريحة ومد ساقيه على حافة الشرفة ، وجلست الأم وببديها ابرتين وقطعة من الصوف وبكرة من الخيط تنسج له صديريا ، وبجوارهما ركع الابن والابنة - في الثانية عشرة والتاسعة من عمرهما - يلهوان بأحدى اللعب ..

وندت عن الأب تنهيدة ملؤها الارتياح ، وقال في لهجة راضية :

- هذا مكان نموذجي للكتابة .. ان حجرة المكتب بذلك المنظر الذي تطل عليه .. والهدوء الذي يسودها .. لاتصلح الا لأن تكون مهبط وحى .. ولشد ما أخشى الا ينسب الفضل بعد ذلك فيما أكتب لى .. بل للمكان الذي أكتب فيه .. اذ يبدو لى أن أى انسان يحل به سينقلب نابغة عبقرى .

ولم يكن صاحبنا بالكاتب المقل أو المرفه الذى لا يستطيع أن يكتب الا فى أجواء معينة ، ولكنه مع ذلك كان يصاب فى بعض الأحيان بفحط ذهنى .. يجعله فى حالة ركود تام .. ولم يكن يخشى بذلك أن يموتوا جوعا .. فقد كان له دخل ثابت بقيهم شر العوز .. ومع ذلك فقد كان يكره أن يتوقف عن الكتابة .. أولا : لأنه يجد فيها متعة .. وثانيا .. لأن المزبد من الكتابة يعنى المزيد من النقود .. وما من انسان - كائننا من كان -- لا يريد مزيدا من نقود .

وضحكت امرأته وقالت :

- أجل .. ان المرء ليحس فيه هدوءا عجيبا ! . بعد هذا الضجيج الذى قاسمناه سنينا فى بيت العباسية .. ضجيج الترام وصخب العربات والأوتوبيسات ، وصياح الباعة ، أن ما نحس به لاشك رد فعل لطول ما ملأ آذاننا من ضجة دائمة لاتهدأ .

وصمتت لحظة ثم أردفت وهى تتنهد فى ارتياح عجيب ، ومازالت أصابعها دائبة فى عمل التريكو :

- هذا البيت كان لى أمنية العمر .. كنت أتمنى أن أسكن فى «فيلاء ذات حديقة غناء .. لاشاركنا فيها انسان .. كنت أتوق الى هذه السكينة وهذا الخلاء

وتلك الشمس التي تسطع في كل مكان من أنحاء الدار .. والهواء الطلق الذي يسرى في أنحائها ، وإلى تلك الخضرة والنظرة التي تمتد على مدى البصر .. كل هذا كان ينتهي أملئ ..

ومد الأب يده فتناول سيجارة من علبة على منضدة بجوارها واشعلها ، ثم أخذ منها نفسا طويلا وقال معلقا :

- وأعجب ما في الدار أنك لاتحبين بها وحشة أمثالها من الدور العتيقة الواسعة .. أو المنازل الخلوية ، فهذه الحجرات الرحبة والجدران الضخمة والأسقف العالية .. وهذا الفضاء من حولنا .. كان يجب أن يكون له وحشته .. ومع ذلك فما أحسست له وحشة قط .

- هذا نفس ما أحس به .. أمر عجيب ! انه دائما (ونس) ماشعرت بالوحدة فيه قط .. وما أحسست وأنا في حجرة أن الحجرة خاليه .. واننى وحدى .. رغم انه قد لا يكون بها سوى ان جدرانه السميكه لا تمنع الضوء .. فليس به تلك الأركان المعتمه التي تعويئنا في الدور القديمه ، انى ما أحببت بيتا كهذا وما أحسست بالاستقرار كما أحسست فيه .. انه كأنما قد بنى من اجلنا .. حتى الأثاث يبدو في الحجرات كأنه قد عمل خصيصا له .. لقد منحنا الله به نعمه كبرى .

وران الصمت ، وسادت السكينة ، لا تقطعها الا هبات من نسيم الصيف تبعث بأطراف الشجر ، أو صيحات تنبعث من الطفلين الراكعين المنهمكين في اللعب بين آونه واخرى .

وشردت الام بذهنها .. واستعادت لنفسها قولها :

وما أحسست وأنا في حجراته أن الحجرة خاليه .

وكيف يحس انسان بالوحدة في هذه الدار .. ؟

انها تذكر ذات مرة .. أو مرتين .. وقد وقفت أمام دواب الفضية تلمع ما به من ألوان .. انها أحسست أن زوجها أو أحد الأطفال يجلس على

المنضدة .. واستمرت منهمكة فيما تفوم به .. وهى لاتشك أن هناك انسانا معها  
فى الحجرة حتى التفت فجأة .. فأدهشها الا تجد هناك أحد .

ومرة اخرى وقد هبطت الى الحديقة .. ثم عادت الى الدار فوجدت  
زوجها يقف بالباب وقد حملق فيها دهشا .. وسألها :

- متى هبطت الى الحديقة ؟ لقد خيل الى أنك تجلسين فى الصالة .. !  
وهكذا .. دائما .. لا يكاد الانسان يشعر أنه وحده .. بل يحس دائما أن  
هناك .. من يجلس هناك .

وتنبهت السيدة من شرودها على صوت الخادمة تقول :

- العشاء جاهز .

وجلس الأربعة على المائدة ، وبدأ الابن والابنة عراكهما الطبيعى على  
من يجلس على الكرسي ، أو ذاك .. أو على من يأكل هذه القطعة ، أو تلك .  
وصاحت بهما الأم بانذارها التقليدى الذى لم يكن لها بد عنه :

- مس .. ويعدين .. ؟

وجرى الحديث خلال العشاء بين الأربعة ناعما لطيفا لايخلو من  
الضحك والنهر والزجر والشكوى والمطالب حديث نمونجى لعائلة قريرة .

وصاح عمر - الابن - مبلغا احدى شكاواه لاييه :

- باباء .. كوتره كسرت سن القلم الذى أعطيته لى .

واندفعت كوتر - الابنة - مدافعة عن نفسها :

- أبدا باباء هو الذى كسره .

- كذابه .

وقال الأب مهدئا :

- لا بأس سأحضر لك بدله .



ومضت فترة صمت قصيرة .

بدا «عمر» كأنما قد سرح بذهنه في مسألة عويصة ، ثم سأل فجأة :

- بابا ..

- نعم .. ؟

- أليس أموا من الوحدة .. الا تستطيع الوحدة .. عند ما تريد

الوحدة .. ؟

- لا أفهم ما تعنى .. ؟

- ألم تقل «ماما» أن البيت «ونس» وأتينا لانحس بالوحدة أبدا .. ؟

- أجل ..

- هذا شيء يضايق .. فأحيانا يريد الانسان أن يكون وحده .. ولكن  
هذا البيت لانستطيع .. لابد أن يكون هناك أحد معنا ..

- لم تقصد «ماما» أن هناك أحدا معنا فعلا . بل هو مجرد شعور  
«بالونس» .. مجرد احساس بالراحة لأننا لسنا وحيدين .

- ولكنى أحس بأن هناك أحدا معنا فعلا .

- ماذا تعنى أيها «الحمار الصغير» .. ؟ هذا وهم ..

- ليس وهما .. لقد وضعت بالأمس علبة دودة القز على الدولاب  
فوجدتها فى الصباح ملقاة من النافذة .. ووجدت العلبة فارغة فى الحديقة ولم  
أجد الدود .. وأول أمس وجدت كاوتش الدراجة ممزقا .. ووجدت زجاجة  
الحبر قد سكبت على كراسة الرسم .

ونظر الأب الى «كوثر» بعين الاتهام .. ولكنها قالت بصوت فيه رنة  
بكاء :

- والله يا «بابا» مانا ..

وقال «عمر» مؤكدا :

- ليست هي .. انى متأكد .

وتدخلت الأم :

- قد يكون أحد من الخدم .. لم لم تخبرنى حتى أعرف من منهم فعل

ذلك ؟

- أنا متأكد أن أحدا منهم لم يفعل .. ان الذى فعل .. هو ذلك الذى

لايتركنا منفردين .. انه ذلك الذى يسبب لنا «ونساء» ، والذى نحس به أنه دائما

هناك .. انها هي لاشك فيها .. فانى أحس أنها تكرهنى .

وصاح به الأب ضاحكا فى سخرية :

- من «هى» هذه التى تتحدث عنها ؟ ثم ماذا يجعلك تظن انها «هى»

وليس هو .. ؟ هل تظن أن بالدار عفريتا .. أيها الأبله ؟ هذه أو هام

عجائز .. ! ليس هناك شىء اسمه عفاريت .. هل أنباك أحد من الخدم ان الدار

مسكونة ؟

وأجابت كوثر :

- لقد سمعنا بائع اللبن ينبىء «أم على» أن البيت به عفريته .

- الحمار ابن الحمار .. ! لا تصدقا كلمة واحدة مما قال .. هذه كلها

خرافات .

وذهب الأطفال للنوم ، ولم ينس الأب أن ينادى «أم على» ويزجرها

بشدة ، وينهاها عن أن تخيف الأطفال مرة ثانية بهذه الخزعبلات التى يسمونها

عفاريت .. وأجابت الخادمة :

- وانا مالى .. دا بتاع اللبن .

وفى اليوم التالى روعت الأم وهى فى المطبخ بصرخة استغاثة ،

وهولت الأم فاذا بابنها معلق فى فروع احدى الاشجار ، واذا بالسلم الخشبى

ملقى على الأرض .

ورفعت له السلم ، وهبط الصبى وجلا خائفا ، وأمسكت الأم بأذنه  
تعرکہا فى غیظ قائلة وهى تلهث من فرط الخوف :

- هذه المرة كان عنقك يوشك ان يندق .. ألم أقل لك مائة مرة .. كف  
عن هذه الشقاوة والشعبطة على الأشجار !

وجرت دمعتان على خد الطفل محدثتين مجريين فى وجهه المترب  
وقال وهو ينشج :

- لقد قللك لك أنها تكرهنى ، انها هى لاشك التى دفعت السلم من أسفل  
قدمى .. !

وأحسبت الأم برجفة تسرى فى جسدها ، وسألت فى ذعر :

- من هى التى تكرهك ؟ لابد أن السلم قد انزلق من تلقاء نفسه .

- أبدا .. جربى .. لقد كان مثبتا فى الأرض جيدا .. انها هى .. دائما  
تلاحقنى بهذا العبث .

وعندما سمع الأب بما حدث هذه المرة كان أقل سخرية .. ونظرت اليه  
الأم فى دهشة وهو يتلقى النبأ فى صمت واطراق .

وأخيرا رفع رأسه قائلا :

- لاشك أن هذا بله منا . اننا سعداء جدا .. وان البيت نموذجى ..  
فكيف نحاول أن نفسده بهذه الأوهام .. مارأيك ؟ هل نترك البيت ؟ هل تعتقدين  
حقا أنه مسكون ؟ وأن به عفريته تكره الولد ؟

- لا أستطيع أن أصدق مثل هذا القول .. وان كان ذلك لا يمنع من أنه  
يسبب لنا قلقا ذهنيا .. يجعل راحتنا وهدوءنا موضع الشك .. من ناحيتك أنت ،  
أريد أن أسألك هل كتبت كما تود ؟ هل أعانك على الكتابة ؟ هذه نقطة هامة  
يجب الا نغفلها اذا كنا ننوى التفكير فى المسألة جديا .

- حتى الآن .. لا .. لأنى لم انو الكتابة فعلا .. ولم اجرّب بعد ..  
ولكنى سأحاول اليوم الكتابة .

.. وفى هذا اليوم أغلق الأب على نفسه حجرة المكتب .. ولم يغادرها الا فى منتصف الليل . وعندما فتحت الأم عينها لتبصره يأوى الى فراشه .. بدا لها متعبا مكدودا .. فلم تشك فى انه استطاع أن يقضى وقنا مفيدا ، وأنه لابد قد انتج شيئا .

وقضى اليوم الثانى بأكمله فى مكتبه .. لم يغادره الا لتناول الطعام . وكان يبدو عليه الارهاق ، وبدا متثاقلا خابى العينين ولم يكن منظره يبعث كثيرا على الاطمئنان والسعادة .. كان شبه محموم .

وفى اليوم الثالث لم يغادر المكتب حتى الطعام .. ولم يتناول سوى فنجان من القهوة ، وفى المساء ترك الحجرة وسار الى امراته محطما مهدما كأن على كتفيه ما أنقض ظهره . ومد يده اليها فى سكون بورقه مكتوبة ، وقال فى صوت ضعيف خافت :

- هذا كل ما استطعت كتابته .. الحمد لله .. لقد انزاح العبء .

وبعد لحظات كان يغط فى نومه .

وفحصت المرأة الورقة فى دهشة . كانت مكتوبة بخط يده وكانت الكتابة متناثرة على الورقة يمينا ويسارا ، وكان الخط ردينا كأنما كتبه ببده اليسرى أو كأنه كان يكتبه وهو يرتجف محموما .

وبدأت المرأة فى القراءة :

«هذا البيت لى .. هذا البيت لى .. لى وحدى .. لقد كان دائما لى .. لو استطاع أبى لوهبه لى .. ولما ساء أخى هذا .. فما كان البيت يهمه كثيرا ، فقد قضى حياته بعيدا عنه .. انى لم أكره أخى قط ، رغم أنه ورثه دونى ، فقد سمح لى بالبقاء فيه ، ولقد أسفت على موته .. ولم أحاول أن أكره امرأته كذلك .. اذ كانت امرأة تافهة لا تستحق الكره .. وكانت تنوى أن تغادر الدار بعد موته ، ولكنها بقيت من أجل ابنها الذى آلت اليه الدار بعد موت أخى .. لقد كنت أكرهه .. كان طفلا مقلقا .. مزعجا ، وكنت أتمنى أن أهدأ وحدى فى الدار وأنعم بسكينتها .. وأخذت انتظر وانتظر حتى آلت الى أخيرا ..

بعد أن سقط الصبى من السلم ودق عنقه .. وبقيت فى الدار وحدى .. كما كنت أتمنى دائما .. ومع ذلك فما أحسست بأية متعة .. انى قلقة حائرة .. انى ضالة شاردة .. انى لم أقصد قتله .. لقد دفعت السلم من أسفله ولكنى لم أقصد قتله .. لقد أخذ الندم يحرقنى بعد ذلك حتى أقدمت على الانتحار .. ولكنى مع ذلك لم أحس راحة ولا استقرار .. كم أود الانطلاق من الدار .. أن روحى حبيسة فيها .. أود الانطلاق الى ما هو أكثر منها رحابة وسعة .. رب خلص روحى من هذا الأسر . هذا السجن الذى طالما تمنيت البقاء فيه .. انى أحس الآن بشيء من الراحة بعد أن اعترفت بجرمى .. وبعد أن لفظت تلك الجمرات التى تحرق نفسى . الرحمة يارب .

وأحسنت الأم بيدها تمزق الورقة اربا .. وهبت نسمة ذريتها فى الهواء .. وعندما استيقظ الزوج بدا كأنه قد أبل من مرض طويل وداء عضال .. والتصقت به الأم وهى ترتجف وسألته فى صوت خافت :

- هل تغادر الدار ؟

- لا داعى .. لقد انطلقت هى ..

ومنذ ذلك اليوم لم يعد يحس أحد من أهل الدار بأن هناك دائما من يجلس هناك .

★ ★ ★



# خزني معك

فالتفت اليها مشدوها . ووضعت  
العلية على المنضدة .. واقتربت من  
الفتاة وهمست بها «ما بك ؟»  
فأجابتنى «أنقذنى . خذنى معك» !

دعائى صديق فنان ذات يوم لزيارة احدى الدور القديمة فى حى  
«طولون» لنشاهد بعض آيات الفن القديم . واتفقنا على أن أمر بداره فى الساعة  
الرابعة بعد الظهر . وناولت الغداء فى ذلك اليوم ثم استلقيت فى غفوة قصيرة  
استيقظت على أثرها فاذا بالساعة قد بلغت الرابعة .

وارتديت ملابسى على عجل ، وأسرعت الى دار صاحبنى . ولكنى  
أنبتت أنه انتظرنى طويلا فلما طال تأخرى اضطر للخروج .. فلم أشك فى  
أنه قد سبقنى الى الدار التى نقصدها فأخذت طريقى اليها .

ووصلت الى الدار .. ووقفت على درجها الحجرى المتسع .. أتأمل  
جدرانها الضخمة الشاهقة المبنية على الطراز العربى القديم .. وقد علت  
الأثرية حجارتها وكساها القم لونا داكنا موحشا ، فبنت كأنها احدى القلاع  
الحصينة .

وصعدت الدرجات المؤدية الى الباب ووقفت برهة مترددا وقد تملكتنى  
رهبة وخشية ، ثم مددت يدى فطرقنت الباب الخشبى الضخم بالمقبض الحديدى

المثبت فيه .. ووصل الى أننى صدى الطرقات ثم ساد بعد ذلك سكوت عميق .. جعلنى أجزم أنه ما من أحد بالدار .. وان صاحبى لاشك لم يصل بعد ، وهممت بأن أعود أدراجى عندما وصل الى أننى من الداخل صوت أقدام تقترب ، وفتح الباب .. وبدا لى من خلاله عبد أسود .. قد وضع على رأسه عمامة ضخمة بيضاء ، وارتدى سروالا واسعا وسترة مطرزة بالقصب .. وبدا لى كخدم القصور فى العصور الغابرة .

ونظر الى العبد نظرة فاحصة ثم وجدته ينحنى فى احترام بالغ ويطلب منى التفضل ..

دلفت الى الداخل فاذا بى فى صالة رحبة متسعة الأرجاء عالية السقف قد شاعت فيها الظلمة ، لا يكاد يصل اليها الضوء الا من خلال النوافذ العالية ذات الزجاج الملون .

واستطعت أن ألمح على الضوء الباهت النقوش العجيبة والزخارف الرائعة التى نقشت على السقف والجدران . وعبرنا الصالة التى لم يبد لى فيها شيء من الاثاث الى ممر ضيق طويل حيث وجدت عبدا آخر شديد الشبه بالخدم الأول وقد انحنى لى عندما مررت به حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه .

وتملكنى دهش شديد .. فما كنت أتوقع أن أرى فى الدار آثارا حية .. كهؤلاء الخدم الذين يبدوون لى كأنهم جزء من الدار بل كنت أتوقع أن أرى أحد موظفى الآثار يتولى ارشادنا والشرح لنا .

وأدهشنى أكثر من ذلك الا لأجد فى الدار أى أثاث أو أى مظهر من مظاهر الحياة يستدعى وجود هؤلاء الخدم «الأرستقراطيين» بل كانت الدار خاوية ، حتى بدا لى الخدم كأنهم بعض العمود أو بعض التماثيل .

وانتهيت من هذا الدهليز الى حجرة أخرى.. وجدت فيها أول مظهر من مظاهر الحياة .

وتلفت حولى فى شيء من التردد والخشية .. فوجدت الحجرة قد رص بها أحد تلك الأطعم المذهبة الدقيقة الصنع .. وقد غطيت أرضها بسجاجيد



عجمية فاخرة تغوص القدم فيها . وعلقت على النوافذ والأبواب ستائر فخمة زرقاء .

ووقفت في منتصف الغرفة حائرا لاأدرى ماذا فعل ، فلقد تركنى الخادم الأسود الذى كان يتولى قيادتى .

وبعد فترة أحسست بوقع أقدام تقترب .. وفوجئت بصوت نسائى يهتف من ورائى :

-- أهلا .. وسهلا .

وتلفت فى دهشة .. فوقع بصرى على امرأة فى منتصف العمر ، وفاتة لاتتجاوز العشرين .

وتملكنى ذهول شديد .. فما كنت أتوقع قط أن أرى فى الدار نساء .. وبدأ الأمر يختلط على .. فلم أشك فى أننى قد أخطأت الدار .

وهممت بأن أقول شيئا للسيدة أوضح به ما يحتمل أن يكون قد حدث من خطأ ، ولكنى وجدتها تقترب منى فتشد على يدى مرحبة ، وتقول باسمه : -- لم أشك فى أنى سأعرفك لأول وهلة .. فان بك شيئا شديدا من أببك .

ولقد كان بى حقا شديد شبه بوالدى .. ولكن كيف عرفتنى السيدة وكيف عرفت والدى .. لقد أوشكت أن أجن من فرط الدهش .

وجلست السيدة والفتاة واتخذت مجلسى بجوارهما واخذت افحصهما بنظرات سريعة فوجدت السيدة نصفاً فى العمر وفى الشكل وفى الحجم ، ولكن آثار الارستقراطية تبدو عليها واضحة فى كل حركة لها ولفتة ، أما الفتاة فقد استرعت منى التفاتنا أكثر ، اذ كانت جميلة حقا .. وان كان جمالها من نوع حزين صامت ، وفى جسدها تحول ، وفى وجهها شحوب ، وقد تهدل شعرها الحالك على كتفيها ، وبدت عيناها تشعان بسحر عجيب .

ولم تكد تضى لحظة قصيرة تبادلنا خلالها بضع كلمات ترحيب حتى أقبل خادم يدعونا للشاى ، ووجدت السيدة تنهض وتتقدمنا الى حيث أعد الشاى .

ودلفنا من حجرة الى أخرى حتى وصلنا فى النهاية الى شرفة فسيحة من النوع القديم المسمى «المشربية» ، تتكون من خشب دقيق الصنع كأنه الدنتيلا ، وبالشرفة أريكة متمعة قد فرشت بالحشايا والوسائد المغطاة بالأطلس ، وفى وسطها منضدة مستديرة من المرمر ثلثة القوائم قد وضع عليها غطاء رقيق مشغول بالبرودريه ، وصفت عليها ادوات الشاى من أطباق مذهبة وأكواب فضية منقوشة ، وفناجين رسمت عليها رسوم دقيقة .

وجلسنا حول المنضدة وبدأ الخدم يحضرون الشاى فى ابريق فضى جميل ثم بدأوا يحضرون الفطائر والأطباق المملأ بأنواع الفاكهة الفاخرة .

وخيل الى أن المسألة انما هى أضغاث أحلام .. فقد تذكرنى كل هذا بما سبق أن قرأته فى ألف ليلة وليلة .. وقلت لنفسى ماذا يضيرك أن يكون حلما أو غير حلم أقبل على المتع التى أمامك واذكر قول الخيام «ويلنا أن ضاع يومى من يدي» .

وبدأت السيدة الحديث ففهمت منها أن بين أسرتينا ودا قديما .. وأنا كنا نوشك أن نكون أنسباء ، فقد كان جدى عى وشك الزواج من أمها .. لولا أن حدث سوء تفاهم بين أبويهما أدى الى نزاع شديد ..

وفهمت كذلك أن الفتاة ليست ابنتها ، كما كنت أعتقد ، بل ابنة أخيها وهى تتكفل بها بعد أن مات أبوها وأمها .

وانتهينا من تناول الشاى عندما حضر احد الخدم فانحنى أمام السيدة ثم اقترب منها وهمس فى أذنها بضع كلمات فوجدتها تنهض مستأننة قائلة أنها ستعود بعد بضع دقائق .

وانصرفت السيدة .. ووجدت نفسى قد خلوت الى الفتاة الحزينة الشاحبة التى تبدو فى رقتها كأنها طيف .. وأحسست بدافع قوى يدفعنى الى الحنو عليها والى أخذها بين ذراعى واسناد رأسها على صدرى .. ولكن الحياء كان يمنعنى .. وبدأ الارتباك يتملكنى .. وأخرجت من جييبى علبة سجائرى محاولا التشاغل بالتدخين .

ولم أكد أفتح العلبة حتى سمعت الفتاة تهتف باسمى هامسة فى لهجة ملؤها المرارة والحزن ، فالنتفت اليها مشدوها .. ووضعت العلبة على المنضدة .. واقتربت من الفتاة وهمست بها بما بك ؟ فأجابتنى «أنفقتى .. خذنى معك !» .

ومددت يدى فضغطت على يدها .. ووجدتها قد نهضت وسارت بى خارج الشرفة هابطتين بضع الدرجات المؤدية الى الحديقة .. ونفذ الى أنفى عبق الزهور فملأنى نشوة وزاد مشاعرى اربابا ، وجلست والفتاة على مقعد تحت احدى الخمائيل .

وتحدثت الفتاة فأنبأتنى أن عمتهما سترغمها على الزواج من عشيق لها - للعمة -- نخشى أن يهجرها فهى تود أن تربطه بالفتاة الصغيرة حتى تضمن بقاءه الى جوارها .. وانها تلقى من عمتهما عذابا أليما .

وأحسست والفتاة تبتئى شكواها .. كأن هناك مغناطيسا يشدنى اليها ، وبدا لى كأننى لم ألقها منذ لحظات فقط .. بل كأننا أحباء العمر .. ووجدتنى أمسك بيدها فأضعها على شفتى ثم احتويت جسدها الرقيق بين ذراعى .. وضممتها الى فى رفق وأسندت رأسها الى صدرى ، ودفنت وجهى فى شعرها . ومضت لحظة والفتاة هائلة فى صدرى .. ثم رفعت الى عينيها العجيبين وقد كسبتهما عبرات تترقرق .. ووجدت شفتى تقتربان من شفتيها فتضغطان عليهما .. ثم أغمض كلانا عينيهِ ورحنا فى نشوة .

وفجأة سمعت صوت العمة ينادى الفتاة ووجدتها تقف منا على قيد خطوات .

وفزعت الفتاة .. ورأيتها تنظر الى المرأة نظرة متوسلة .. كأنها تسألها شيئا ، ولكن السيدة هزت رأسها فى جمود وقسوة وأجابت فى اقتضاب : - اذهبى ..

وسارت السيدة ، وسرنا وراءها حتى وصلنا الى الشرفة فسألتنى أن اتبعها لترينى بقية الحجرات .

وعندنا أخيرا الى الشرفة فلم أجد الفتاة ، بل أنبأني أحد الخدم أنها تعتذر الى لاصبتها بوعكة مفاجئة ، وأنها كلفته أن يحمل الى سلامها .

وأحسست بلوعة شديدة ، وتمنيت لو أدفع نصف عمري لأرى الفتاة الحزينة الجريحة القلب .. ولكن السيدة مدت الى يدها مودعة سائلة إياي أن أزورها دائما .

★ ★ ★

وخرجت من الدار .. وسرت في الطرقات .. وأنا أجد نفسي في تمام اليقظة فلا حلم ولا وهم .. وكان أول ما فعلته هو أن ذهبت الى بيت صاحبي فقصصت عليه كل ما حدث .

وقهقه صاحبي عاليا وإنبأني أن البيت كانت تسكنه حقا العائلة التي تكرت اسمها ، ولكن ذلك كان منذ سبعين عاما ، ثم أكد لي أن كل ما رأيته إنما كان وهما أو حلما .

وفي اليوم التالي ذهبت وإياه الى الدار ، ووجدنا أحد موظفي الآثار في انتظارنا ودخلنا الدار بعد أن فتح الباب بمفتاح في جيبه .. وأحدث الباب صريرا وكأنه لم يفتح منذ شهور أو أعوام .

وسرت في الدار فوجدت بها شيئا بالدار التي زرناها بالأمس ولكن الأثرية كانت تعلق الأرض والجدران ولم يكن هناك أى أثر للحياة ، لاخدم ، ولا مكان ، ولا حجرة استقبال ولا شرفة .

ونظر الى صاحبي ضاحكا في سخرية .. وهزرت رأسي في دهش شديد وأقعت نفسي أن كل ما رأيته إنما كان أوهاما ، وانتهينا من التجول في الدار .. وهمنا بالخروج .. عندما سألت الدليل عن حقيقة الدار .. فأنبأنا أنها حديقة مهمة ليس بها ما يستحق الرؤية .. ثم دلف بنا في عدة ممرات ليقودنا اليها .. وفجأة وجدت نفسي في شرفة الأمس ! .

أجل ! . لقد كانت هي نفس الشرفة .. وقد بدأ منها منظر الحقيقة والخميلة والمقعد الذى جلسنا عليه .. وبدأت فيها الأريكة ولكنها كانت عارية من الحواشى والوسائد ، وأشرت لصاحبى الى آثار الأقدام المزدوجة التى تبدو بالحقيقة .. وقلت له : «ما رأيك» .. «فأجابنى» : «هذه حتما هي آثار الجنائنى الذى يروى الحقيقة» .

وأحسست بشيء من الخذلان .. وتلفت فى الشرفة فإذا بالمنضدة المستديرة المصنوعة من المرمر قد توسطتها خالية من كل شيء . لا مفرش .. ولا أدوات للشاى ولكن شيئا واحدا هو الذى كان عليها وهو علبة السجائر ، علبتى أنا التى نقش عليها اسمى .. والتى أخرجتها بالأمس ثم تركتها على المنضدة .

وتناول صاحبى العلبة فى دهش شديد .. ولم ينبس ببنت شفة .. ماذا حدث ؟ وكيف ؟ من يعلم !

ومر الحادث دون أن أجد له تفسيراً أو تعليلاً .. قد يكون وهما أو حلما ، ولكن شيئا واحدا هو الذى يجعلنى أكاد أوقن بأنه حقيقة .. وهو تلك الصور التى أرانى اياها الدليل لأهل الدار .. والتى وجدت واحدة منها صورة طبق الأصل للفتاة الشاحبة الحزينة .. التى احتويتها بين ذراعى فى الخميلة .





# حَافَتِ قَرْبَرًا

لقد رأيت طفلة ، أو شبح طفلة  
بيضاء باهتة ، تتحنى على الفتى  
الراقد باسمه وتمد يدها فتأخذ منه  
القرط .

بدأت دباباتنا سيرها فى عجلة تجاه الشمال ، فقد أنبأنا الرئاسة أن العدو  
احتل ببعض عرباته موقعا يشرف على الطريق وأن علينا اجلاءه بكتيبتنا حتى  
نطهر الطريق ونعيد المواصلات بيننا وبين القوة الموجودة شمالا .

كان الوقت قبيل الفجر ، ولم نؤخذ بالأمر على غرة ، فقد قضينا الليل  
فى يقظة دائمة ، اذ كانت المعركة دائرة على أشدها ، وكان الدوى يسمع فى  
كل مكان ، والذهب يبرق هنا وهناك مبددا حلقة الليل .

كان العدو قد بدأ هجومه الغادر .. واستعر أوار المعركة فى شتى  
المواقع .. وأخذت مشاتنا ومدفيعتنا تصلياته نيرانهما فتردانه على أعقابهم ملوما  
محسورا .. مخلقا وراءه بساطا ممتدا من جثث القتلى ، تاركا الأرض وقد بدت  
مكدسة بالأجساد كأنها ورقة الذباب .

وقضينا الليل نرقب ومنتظر .. معدين عرباتنا ودباباتنا للانقضاض فى  
أية لحظة .. حتى وصلنا الأمر قبيل الفجر بالانطلاق لطرد العدو .. فانطلقنا .

وطلبت من اليوزباشى «محسن» قائد ثانى الكتيبة أن يأمر السرية الأولى بأن تتخذ مكانها فى المقدمة لكى تستكشف مواقع العدو وتعجم عوده وتستطلع قوته ، على أن يكون قائدها على اتصال دائم بنا لكى ينبئنا اولا بأول بكل ما يعرف .

وبدا عليه التردد ، ثم نساءل قائلا :

- ان السرية الأولى يقودها «قدرى» وهو كما تعلم مريض ويتولى قيادتها بدله الشاويش «قرشى» .. شاويش السرية .. فهل ندعه يقوم وحده بالاستكشاف ؟

وفكرت برهة ثم أجبتة :

- دع السرية الثانية تعمل فى المقدمة ، واجعل الأولى فى الاحتياطى .  
وهم بالانصراف لتنفيذ الأمر ، ولكنه توقف كأنما قد خطر له خاطر جديد وقال متسائلا :

- ولكن لم لا أتقدم أنا مع السرية الأولى للقيام بالاستكشاف ؟ .. هل لديك ما يمنع ؟

- أبدا .. اذهب اذا شئت .

وبعد لحظة كان قد اتخذ مكانه فى احدى دبابات السرية الأولى متوليا قيادتها ، متقنما بها على رأس الكتيبة لاستطلاع قوة العدو .

ووقفت فى برج دبابتى أرقبه يتباعد بسريره .. وبدأت الدبابات على خط الأفق سوداء قائمة وقد علا حولها الغبار وأخذ ضجيجها يخف رويدا رويدا .. حتى لم نعد نبصر منها الا أشباحا باهتة ، ولا يصل الى آذاننا من صخبها وضجتها الا ما يشبه الهمهمة والهمس .

وتحركات رياسة الكتيبة وبقية السرايا .. ولاحت لنا الشمس تتسلل من وراء الأفق خلف الرىبى والآكام .. حمراء الضوء .. أرجوانية الشعاع .. كأن بها جرحا يدمى .. وكأن اشعتها القانية دماء تراق على رمال الصحراء .



اية يا شمعى ١ .. لقد رأيت شروقك فيما مضى .. فكنت ابصر فى حمرة لون الورود ولون الخنود .. لشد ما تنكرت وتغيرت واستبدلت بشعاع الورد شعاع الدماء .

ألم ترى التغير قد أصاب العين التى تراك .. فلم تعد تبصر منك الا صورة لما حولها من دماء ولهيب ؟

وتحركت رياسة الكتيبة وبقية السرايا .. وثارت من حولنا الضجة وعلا الغبار وانتشرت بضع دبابات ذات اليمين وذات اليسار لتحصى القوة فى أثناء تقدمها .. وأخذنا نمنع فى المير .. وبين لحظة وأخرى تحمل إلينا رسالة من سرية المقدمة بأن العدو لم يبد بعد .. حتى وصلتنا الإشارة الإيجابية الأولى تحمل فى طياتها «أن العدو قد ظهر ببضع عربات عن يميننا» ، ثم رسالة أخرى «بضع عربات عن يسارنا» ورسالة ثالثة تتساءل «هل نشبك ؟» .

وتناولت سماعة اللاسلكى ،، وطلبت «محسن» على الجهاز واستفهمت منه بشئ من التفصيل ، ثم أمرته بالاشتباك .

ووقفنا منتشرين فى أماكننا واتخذت الدبابات بقدر الاستطاعة مترا من ثنيات الأرض .. وحملت الريح الى آذاننا أولى الطلقات تدوى من بعيد .. فعلمنا أن الاشتباك قد بدا .

واستمر الدوى .. يعلو حيناً ويخفت حيناً .. ووصلت إلينا الرسالة بعد الرسالة تنبئنا أن الاشتباك مستمر وأن العدو يجاوب نيراننا بما ملكت نيرانه ، وأن المعركة على أشدها متأججة اللهب مستعرة الأوار .

وفجأة وصلت الى رسالة احسست منها بهزة فى جسمى كأن هناك مطرقة أصابت مؤخرة رأسى .. ولم يكن ما جاء بها أكثر من «أصيبت دباباتى» .

ولم تمض بضع ثوان حتى تلتها طريقة أخرى .. أو طعنة أخرى .. أصابت حشائى .. ولم تكن سوى «أنى أموت» .

أجل .. أن محسنه يموت .

وثوان أخرى وتحديث عامل اللاسلكى يقول أنه قد مات .

انى أبكى وأنا أكتب ما أكتب ، رغم أنه لم يكن لدى وقتك فرصة  
لبكاء .. فقد سلبتنى قسوة الموقف كل ما بى من حس وشعور .. وكان يخل  
لى أنى لم أعد من دم ولحم ، بل من حديد وحجارة .. وكنت أشبه بانسان ألقى  
به فى بحر من الجليد فجمدت أطرافه حتى فقد حساسيته .

فى ثوان معدودات قضى صاحبنى .

أجل :- لقد انتهى فى كلمتين : انى أموت .. ثم .. مات . وكما قلت  
لم يكن هناك وقت لحزن أو بكاء .. أو حتى للتفكير فيما مات .. أيا كان ..  
حتى ولو كان الميت أنا !

ان كل ما تبقى فينا من حس هو الاحساس بالواجب .

نحن فى عمل .. ولابد لنا من انهاءه .. فاذا مات واحد منا أو متنا  
جميعا .. فذلك أمر ثانوى .. أو قل أنه أمر مفروض . هل هناك حرب بلا  
موتى ؟ .. وما فائدة الطلقات والنيران والأسلحة .. اذا لم يقتل بها بعضنا  
بعضا .

ذلك هو الشعور الذى كان يخيم علينا وقتذاك .. شعور القسوة  
والجمود .. أو اللاشعور .. الذى يجعلنا نتجاوز عن الحزن لنستمر فى تأدية  
واجبنا .. كأننا لم يكن لنا بموتانا أدنى صلة .

وهكذا اندفعت أتمم واجبى ، أما احدى السرايا بالتقدم لمعاونة سرية  
المقدمة فى اشتباكها مع العدو ، متقدمة معها .. حتى استجلى الموقف بنفسى .

وبدأنا نتقرب من أرض المعركة ، ولاحت لنا نباباننا وقد تشابكت مع  
العدو الرابض عن يمينها ويسارها .. وقد بدا لنا أنها قد زجرت بنفسها فى مأزق  
حرج .. وأن العدو يوشك أن يغنيها جميعا بعد أن حاصرها بنيرانه ، ووجدت  
أن من الأفضل أن أحاول تطويق العدو بها ، وأن أمر بحركة التفاف واسعة  
النطاق حول أحد جناحيه . .

وأمرت السرية بالتوقف قبل ان تتورط فى مرمى نيران العدو ..  
وطلبت من قائدها وهو الملازم «على يحيى» أن يقوم بحركة الالتفاف  
المطلوبة .. وافهمته أن لا فائدة من التقدم الى السرية الأولى لأنه سيتردى  
فى المصير ذاته ، وأن خير طريقة لاتخاذ من تبقى منها واجبار العدو على  
الانسحاب ، هى حركة الالتفاف التى شرحتها له .

ووجدته ينظر الى وقد بدا فى قسماته حزن شديد ولاحت عليه علامات  
التردد .. كأنه يعترض على ما قلت ، ويود أن يبدى رأيا آخر ، وسألته فى  
عجلة :

ماذا ؟ ..

ووجدته يضغط على نواجذه كأنه يحبس فى جوفه شعورا يوشك أن  
ينطلق .. وعدت أسأله :

- ماذا تريد ؟

ورأيت فى عينيه طبقة لامعة من الدمع الحبيب وسألنى فى صوت  
مكتوم وهو يشير برأسه الى حيث السرية الأولى مازالت تتبادل الطلقات مع  
العدو .

- ومحسن ؟

- ماله محسن ؟

- جئته ؟ .. هل سنترك جئته للعدو ؟ .. لابد أن نحضرها .

وأحسست بالجمود الذى أصاب مشاعرى يتفتت ويذوب . وقفزت  
الدموع الى محاجرى وهممت - لولا بقية من تجلد - بأن اندفع فى البكاء .

لقد عدت مرة اخرى انسانا .. وهاج قول صاحبى الصغير حزننى ..  
وأثار مشاعرى .. وبدا لى أن من الواجب علينا أن نحضر جثة «محسن» ..  
ولكن كان من الجنون أن نتقدم الى أرض المعركة فى احدى الدبابات .. فقد  
كان غرضنا ظاهرا .. وكان العدو لابد مريها ومصيبها فى الصميم .

وكأنما ادرك «يحيى» ما يجول بخاطري .. فقال فى اصرار وتأکید :  
- انى على استعداد أن أتسل على قدمى وازحف الى هناك .. وأؤكد  
لك انى سأحضرها فى بضع دقائق .. لن نتأخر .. أؤكد لك ..

ولم يكن به من حاجة لإقناعى .. فقد كنت أنا نفسى متلهفا على احضار  
الجنة العزیزة .. وفى غمضة عين حزمت أمرى .. وقلت له انى سأذهب  
معه .

وبدأنا التسل والزحف .. منتفعين بسواثر الأرض والأعشاب والثلثيات  
حتى بتنا فى منطقة النيران .

هل يستطيع انسان منكم أن يتصور الجحيم ؟

لقد كنا فيه بلا جدال !

كيف لا .. وقد كدت أوقن انى لم أعد على قيد الحياة .. وأن ما تبقى  
منى ليس الا روحا تطوف بجهنم .. وساءلت نفسى فى دهشة .. انى يارب  
مسلم .. فماذا دفع بى الى هذا الحميم ؟

واللثقت الى صاحبى الصغير فسمعت يسملى .. فلم أشك فى أنه قد خطر  
على ياله ما خطر لى .. وأنه قد تخيل أنه ليس سوى روح يصلى صقر !  
ووصلنا أخيرا .. والنار من حولنا ومن فوقنا . ووقع بصرنا على دبابة  
«محسن» .

ونظرت اليه .. ونظر الى .

هل تعرفون الجمر .. الجمر الأحمر المتأجج الذى لا تبصر فيه سوادا  
ولا بياضا .. بل قطعة حمراء .. صافية الحمرة .

لقد كانت الدبابة كذلك .

لقد حرقت الدبابة .. ولم يكن بها أثر لـ«حان» .. أو «هاب» ، بل كانت  
جمرة حمراء يشع منها الصهد .. وتلفح وجوها منها حرارة لاسعة .

ولم نتكلم .. بل بدأنا العودة واجمين فى صمت واطراق .. وقد شرد  
ذهنانا شرودا شديدا .

وبدأنا العودة متسللين ، كما جننا ، وسط عاصفة النيران .

ولكن العودة لم تكن سليمة اذ أصيب صاحبى الصغير بشظية فى جنبه  
أرنته على الأرض .. وهو يكن أنينا خافتا .

ووجدت الفتى قد راح ضحية رقة مشاعره ومشاعرى وأنه كان من  
الواجب على الا ألين .. وأن أترك الموتى لرحمة ربهم .. وأستمر فى واجبى  
حتى لا أضيف الى الموتى ، ضحايا جديدة .

وبهذه المشاعر المتحجرة تركت الفتى ملقى على الأرض منه تنزف  
الدماء ، واندفعت الى السرية الواقفة تنتظر فأمرت أحد ضباط الصف أن يحمل  
بعض الضمادات الى الجريح ويقوم بعمل الاسعافات الأولية حتى ننتهى من  
مهمتنا .

وبدأت أدفع السرية حول ميمنة العدو ، أمرا سرية اخرى بتطويق  
ميسرته .

وأحطنا بالعدو .. ودارت بيننا وبينه معركة كبرى .. انتقمنا منه لأنفسنا  
شر انتقام ، ودمرنا عددا كبيرا من مصفحاته وأكرهناه على الانسحاب .. تاركا  
حطامه وقتلاه ، راضيا من الغنيمة بالاياب .

انتهت المعركة وقد قارب اليوم على الانتهاء ، وأحمست بتعب النهار  
وسهر الليل يحط على جسدى .. وبدأنا نلم شعثنا ونعود أدرأجنا للتجمع  
والرحيل .

وكان أول ما فعلت هو السؤال عن الصاحب الجريح .. فوجدته قد تمدد  
بجوار احدى العربات .. وهو يلفظ آخر انفاسه .

ركعت بجواره وانا أحس بأحشائى تتمزق كأن فى جوفى من الشظايا  
أضعاف ما بجنبه ، وتمنيت لو استطعت أن أفعل له شيئا .. أى شيء !

لم لاتقوى أمانى الأحياء على أحياء الموتى ؟ .. لقد كانت بنفسى من  
الرغبة فى اعادته الى الحياة ما أستطيع به أن أحيى جيلا من الموتى ، فلم  
لم يبعث حيا ؟ .

لقد جلست بجواره .. وأمسكت بيده بين كفى .. وأحس بى ففتح  
عينيه .. ولاح على شفتيه شبح ابتسامة . ثم قال فى صوت خافت :

- كيف الحال ؟

- انتصرنا وطردها من مواقعهم .

- الحمد لله .

وكانت المرة الأولى فى حياتى التى أجلس فيها الى انسان يموت .. وأى  
انسان ! .. انسان جاد بروحه فى سبيل جثة صاحبه !

وسمعتة يتمتم بصوت خافت :

- انى سعيد .

ولم أدرى ماذا أقول له .. وخفت أن ينطلق دمعى .. فجاهدت حتى  
كبتة ، وقلت له فى رفق وحنان :

- ألا تريد شيئا .. الا أستطيع أن أودى لك أى شىء ؟

- كنت أريد شيئا واحدا لا أظن هناك من يستطيعه ! كنت أريد أن أرى  
ابنتى مرة واحدة ! مرة واحدة فقط .. لقد أوصتني بأن أحضر لها هدية عند  
عودتى .. ولقد ابتعت لها قرطا عندما ذهبت الى «بيت لحم» .

ومد يده الى جيبه فأخرج قرطا صغيرا ، وأردف قائلا :

- اعطها هذا القرط .. وقبلها لى .. كم كنت أريد أن اعطيها اياه  
بنفسى .. فليس هناك أحب الى من أن أحمل لها الهدايا .

وصمت لحظة تمالك فيها أنفاسه وعاد يتمتم فى صوت خافت :

- أريد أن أراها .. مرة واحدة .

وأغمضت عيني .. فقد كان قوله أفسى على نفسي وأشد إيلاما من أفسى  
ومائل التعذيب والإيلام .. كيف لا .. وهذا الإنسان الجميل النفس والقلب ،  
لا يطلب أمنية قبل موته الا أن يعطى ابنته الطفلة هديتها الصغيرة !  
وفتحت عيني .. فأصابتنى رعدة .. اذ أبصرت أمامي أمرا عجيبا .

لقد رأيت طفلة .. أو شبح طفلة بيضاء باهتة .. تتحنى على الفتى الراقد  
باسمة ، وتمد يدها فتأخذ منه القرط ، ورأيت وجهه يتهاول بشرا . ومد ذراعيه  
فاحتواها بينهما وقبلها في عطف وحنان . وفي لمح البصر تلاشت في  
الهواء .. ولم أعد أبصر سوى الفتى وقد أغمض عينيه وبدت على وجهه أبلغ  
آيات السعادة والهناء .. وأحسست ببرودة تسرى في جسدي .

لقد .. مات .. انتهى .

كيف حضرت الطفلة ؟ .. كيف ذهبت ؟ .. لقد كانت لاشك من بنات  
الأوهام .

ان ما رأيت لم يكن الا من فعل الخيال المجهد المكثود .  
وبحثت عن القرط في يده .. أو في يدي .. فلم أجده .  
أجل لقد كانت المسألة كلها من صنع وهمي وخيالي .  
وثوى صاحبي في باطن الأرض .. وغاب فيها .. كما غاب أصحابه  
من قبله وكما سنجيب من بعده .  
وعدت الى القاهرة بعد ذاك .. وحملتني قدامى لأودى الرسالة .. ولقيت  
زوجته .. ولقيت ابنته .

يا لله ! .. لقد كانت نفس الطفلة .. لا تفترق عن الشبح الذي رأيت ،  
سوى أنها نموذج حي .

وفي أُنْها وجدت القرط ..

كيف وصل اليها ؟ .. لم أجسر على السؤال !





# صَفْحَةُ حَبِيبٍ

هذا الرجل العاقل الرزين .. قد  
باع عربته لشبح من عصر محمد  
على .. وهو يقص القصة بمنتهى  
الثقة والاعتزان كأنها حقيقة واقعة ..  
ماذا أقول له ؟ .

ملذ بضعة أيام سافقتنى الصدف الى لقاء منولى افندى عبد الرحيم  
مدرس الرسم فى مدرسة شبرا الثانوية . فأقبلت عليه أحبيه فى شوق ولهفة ،  
اذ كان أحب المدرسين الى نفسى وأقربهم الى قلبى .. أولا لأننى كنت أجيد  
الرسم فكنت أعتبر حصصه أوقانا للترفيه والتسلية ، وثانيا ، وهم الأهم ، لأنه  
كان مخلوقا ما عرفه انسان الا أحبه لطيبة قلبه ووداعة نفسه ، ولما فى أطواره  
من غرابة وطرافة .

كان الرجل فنانا أكثر منه أى شىء آخر . ولم يكن ذا كفاءة ظاهرة فى  
مهنة التدريس . وهى مهنة تحتاج قبل كل شىء الى هقدائى يعرف كيف  
يعامل هؤلاء التالمة الذين يسمونهم التلاميذ . أما هذا الرجل الفنان بجسده  
الرفيق ، وذمته الشارد ، فقد كان أبعد الناس عن أن يكون مدرسا .

كنا نحبه جميعا بلا استثناء .. وكيف لانحب مدرسا لانكاد نحس وجوده  
ولا يكاد هو يحس وجودنا رغم ذلك الضجيج الذى كنا نحدثه فيوقظ أهل  
الكهف ؟

أقول انتنى لقيت الرجل منذ بضعة أيام .. لأول مرة منذ سنوات طوال .. وكان اللقاء فى قصر الجوهرة بالقلعة حيث انتتلب لاعادة رسم بعض الزخارف ، ولم أره قد تغير كثيرا عما كان .. بياقته المنشأة ذات الأطراف المثنية وقد خرج منها عنقه المعروق الرفيع يحمل فى نهايته رأسه الصغير ذا الشعر الأشعث ، وقد أسند منظاره السميك على أرنبة أنفه ، وأغرق جسده فى بخلته ، الأسموكن، السوداء .

وأقبلت عليه أحبيه .. وأستطاع هو أن يميزنى بنظرة من وراء منظاره ، فرد على تحيىى بنفس الشوق واللهفة .. ودار بيننا حديث لم يكف خلاله عن الاتهماك فيما يرسم .. ونظرت الى تلك الزخارف البديعة ، وهو يحرك عليها فرشاته فى مهارة وحنق ، وقلت بصوت ملؤه الاعجاب :

- رائعة .. ان عمك فى منتهى الدقة والبراعة .

فهب الرجل رأسه لى شىء من الاستخفاف ثم أجابنى قائلا :

- انتنى لا أفعل أكثر من أن أعيد رسمها .. فإذا كنت ترائى بارعا لمجرد النقل .. فمادنا تقول اذا فيمن خلقها وأوجدما ؟

وصمت الرجل برهة ثم عاد يقول :

- يخيل الى أن الذهن البشرى سائر فى طريق العجز .. فنحن فى كل ما نفعل اليوم لسنا الا ناقلين عن سبقونا من العباقرة ، ولم نزل الى الآن نستوحى أفكارهم ومبتكرات عقولهم .

ونظرت اليه وقد انهمك فى عمله ، وقلت أناقشه فى شىء من الدهش :

- الذهن البشرى سائر فى طريق العجز ؟ . لا . لا يامسدى قد يكون حقا لننا ننقل عن اسلافنا بعض أفكارهم ومبتكراتهم لنستعين بها .. ولكن هذا ليس دليل عجز .. أن الذهن البشرى قد يأتى الآن بأشياء لو رآها اسلافنا لصرعهم الدهش .. وانى لا أتصور ماذا يمكن أن يكون حال صاحبنا الذى رسم هذه الزخارف أول مرة لو بعث الآن من مرقده ليرى ما صنعه الذهن البشرى .. دعك من الذرة .. أو اللامسكى .. أره فقط عربة تجرى فى الطريق .

وهنا رأيت الرجل قد وضع وفرشاته فجأة ونظر الى بحدته واستغراب ، ثم قال :

- عجيب هذا الذى تقوله عن الرجل ، وعن العربية التى تجرى فى الطريق .. !  
- وأى عجب فيه ؟

وأطرق الرجل ، وساد الصمت برهة ، ثم تكلم أخيراً كأنه يحدث نفسه :  
- لو رويت لك الحقيقة لقلت ثمل أو مخبول .. هل يمكن أن تصدق أن الرجل الذى تعنيه قد حضر الى فعلا .. وأنا تحدثنا عن العربات ؟

ويستطيع القارىء طبعاً أن يدرك كيف وقع قول الرجل فى نفسه ..  
ويستطيع طبعاً أن يدرك مبلغ الجهد الذى بذلته لكى أكسو وجهى مظهر الجد ، وأن أكتف تلك الضحكة التى كانت تصطبغ فى صدرى .. لقد كان الرجل جاداً فى قوله .. ولم يبد عليه أنه ثمل أو مخبول .. بل كان يتكلم بلهجة ملوفاً الصدق والاخلاص .. ثم هو فوق ذلك مدرس ومازالت أشعر نحوه باحترام التلميذ .. فقلت وقد بدت على أبلغ آيات الدهش :

- شىء عجيب ! ..  
- انه كذلك .. وقد حدثت .. رأيت أمامى كما أراك الآن ! ..  
- وكيف أتى ؟ .. ومتى ؟ ..

وصمت الرجل برهة استجمع فيها شوارب أفكاره ثم استطرد قائلاً :

- كان ذلك منذ بضعة أيام قبيل الغروب .. وقد انهمكت فى الرسم .. عندما خيل الى أن شخصاً برقبنى ولم أكن قد سمعت أحداً يدخل .. ولا كنت أنتظر زيارة أحد .. والتفت فجأة فإذا بى أجده أمامى تماماً كما تقف أنت .. وقد أخذ يرقبى بهدوء .. مرتدياً سرواله الفضفاض وعمامته وصديريته ومركوبه .. ثم رأيت بهز رأسه باعجاب قائلاً :

- شيء بديع .. هل تعلم أن هذا من صنعى ؟ لأظن أن عندكم الآن  
من يستطيع أن يفعل مثله .

ولست أدري ما الذى جعلنى لا أولى من الرجل - أو من الشبح - فرارا  
ولا أصرع منه رعبا .. ولكن الله أنزل السكينة فى قلبى فوقفت أتحدث اليه  
كما أتحدث اليك .. بغير خوف أو وجل .. ووجدتنى أقول له مجاملا :

- الواقع أنها شيء رائع .

ورأيتَه يَنلُفُ حوله ثم يتساءل :

- لقد وجدت على القلعة أعلاما وزينات .. ما سرها ؟

- اننا نحتفل بتسلمها .

- تسلمها ؟ .. ماهى ؟

- القلعة .

- تسلمها ممن ؟

- من المحتلين .

- أو قد عاد اليكم نابليون مرة أخرى ؟

- لا .. ليس نابليون .. انهم الانجليز هذه المرة !

وبدا عليه الدهش .. ووجدت أنه شخص متعصب ، وأننى لو أطلعت  
رغبته فى الاستقضاء على هذا النمط لاضطررت الى أن أسرد عليه تاريخ  
مصر منذ أن شيدت القلعة الى يومنا هذا .

وكانت الظلمة قد بدأت تنتشر فلم أجد خيرا من التخلص منه  
بالانصراف . فبدأت أجمع أدوات الرسم فى حقبتى وأتھيا للخروج . ونظر  
الى متسائلا :

- الى أين ؟

- سأنصرف .. فقد أقبل الليل .

- ولم لاتوقد الشموع ؟

وهممت بأن أجيبه بأننا لانستعمل الشموع بل نضيء بالكهرباء ..  
ولكنى تصورت أى مأزق يمكن أن أضع فيه نفسى اذا سألتنى عن الكهرباء  
فلم يكن خيرا من أن أوفر على نفسى الشرح .. فقلت له ببساطة :

- لقد نفذت الشموع .

ونظر الى نظرة رثاء لهذا الفقر الذى صرنا اليه ، ثم عاد يسأل من جديد  
أسئلته التافهة :

- ولم ترك الانجليز القلعة .. هل هجمتم عليهم ؟

- لا .. لا .. لم تحتج المسألة الى هجوم أو غيره . لقد استيقظ الوعى  
القومى ومطالب بالجلاء .. فجلوا .

- لا .. لأظن .. أغلب ظننى أنهم جلوا عنها لأنها قد أضحت قديمة  
غير ذات قيمة .. وأن الفضل فى جلائهم عنها يرجع الى انتشار البق فيها .  
- أنت لاتعرف شيئا . لقد قلت أن الوعى القومى قد استيقظ ، وأن الأمة  
كلها قد هبت لمطالب بالجلاء ووحدة وادى النيل .

- وحدة وادى النيل ؟ ماذا تقصد .. وممن تطلبون هذه الوحدة ؟

- من الانجليز .

- وما دخلهم ؟

- انهم يسيطرون على السودان ، ويحاولون فصله .

- ولم لاتطردونهم بجيشكم ؟

وهنا وجدتنى أوشك أن أنزلق الى مسألة أشد وعورة من شرح  
الكهرباء ، وهى مسألة شرح حالة الجيش المصرى .

فقلت له :

- ان المسألة لاتحتاج الى جيش ، فالسودانيون اخواننا ونحن وهم شعب واحد ، وهم يرغبون فى الوحدة كما نرغب فيها .

- اذا فهم الذين سيثورون ويطردون الانجليز ليتحدوا معكم ؟  
وأقول الحق أن صبرى كان قد بدا ينفذ من الأسئلة التى أخذ ينهال على بها .

ولم أجد بدا من أن أنبئه أنى فى عجلة لأننى على موعد ولا بد لى من الانصراف ، ومددت يدى اليه محبباً ، ولكنه أنبأنى أنه سيسير معى ، فقلت له أننى لن أسير بل سأركب ، فسألنى : أعندك حمار ؟

فهزئت رأسى : كلا ..

- لاشك أن عندك عربة .

- أجل عندى عربة بعشرة خيول .

ورفع الى الرجل رأسه فى ذهول ، وظننى أمزح .. ولكن لم يكن فى قولى شىء من المزاح فقد كانت عريتى فعلاً عربة «فورد ١٠ خيول» . ووصلنا الى العربة ، ووقف الرجل أمامها حائراً .. لايجد أثراً لحصان واحد .. ونظر الى شىء من الاحتقار ، ولكنى قفزت بسرعة داخل العربة حتى أزيل ما بدا عليه من احتقار وأدبرت «المارش» ، وبدأت العربة تحدث صوتاً عالياً ، فقد كانت ما سورة (الشاكمان) مكسورة .. فوجدت الرجل قد قفز من مكانه مرتاعاً وأخذ ينظر الى العربة فى حذر واحترس .. وطلبت منه الصعود فاخذ يدور حول العربة فى حذر ، ثم تجرأ على لمسها فلما لم تلحق به أذى أخذ يتحسسها بيديه كأنه يتحسس ضريح أحد الأولياء .. وعلت البشاشة وجهه وبدت عليه فرحة طفل يلهو بدمية .

وجلس بجانبى وانهال على بسيل جارف من الاسئلة حاولت أن أجيب عنها فى حدود معرفتى بالعربيات وعلى الأصح جهلى بها . على أى حال ، لقد كانت أسئلته معقولة حتى وجدته يسألنى فجأة أن أبيعه العربة فان لديه من الذهب ما يكفى لشراؤها .

ونظرت الى الرجل الأحمق فى دهش وقلت :

- ولكنها لن تكون ذات فائدة لك .. حقيقة انه ليست لدى فكرة واضحة  
عن المكان الذى أتيت منه . ولكنى أعرف أنهم لا ينتقلون هناك فى عربات .

- من أنبأك ؟ .. لا تحاول أن تستدرجنى لأشرح كيف يعيشون ..  
فالواجب على أن ألزم الصمت .. على أنه ليس من شأنك أن تكون ذات فائدة  
لى أم غير ذات فائدة .. المهم هل تبيع ؟

وهنا أخرج من سرواله كيسا مملوا بالقطع الذهبية وأفرغ جانبها منها  
فى حجرة فراغى بريقها ، وعاد يسأل فى شيء من العظمة :

- كم تريد ثمنها لها ؟

وترددت برهة فقد كنت أعلم قبل كل شيء انه لا يعدو أن يكون شبعا  
ولم أجد ضيرا من أن أسير فى المزحة الى نهايتها . فقلت له :

- خمسين قطعة .

بدا للرجل بعد القطع .

وأخيرا جمعت النقود فى الكيس ووضعته بجوارى .

★ ★ ★

وصمت الرجل .. وأخذت أحملق فيه دهشا ذاهلا .. هذا الرجل العاقل  
الرزين .. قد باع عربته لشبح من عصر محمد على .. وهو يقص القصة  
بمنتهى الثقة والاتزان كأنها حقيقة واقعة .. ماذا أقول له ؟ .. لقد قلت متكهما :

- ثم ماذا .. ماذا حدث بعد أن أعطاك النقود ؟

- لقد حدث بعد ذلك الشيء الغريب حقا فى الموضوع (كأن كل ما قصه  
على كان شيئا لا غرابة فيه) فلقد رأيتنى فجأة على رصيف الشارع فى المكان  
الذى سمعت فيه آخر كلمة .. بلا عربة وبلا شبح . لقد أختفى كل ما حولى  
كلمح البرق .. أو كأنما قد استيقظت من حلم . ولكنه لم يك قط حلما :

- هل أنت متأكد ؟

ولم يجب الرجل بل أخرج من حقيبة بجواره كيسا قد ملئ بالقطع الذهبية وبدا يفرغه أمامي قائلا :

- لو لم أجد هذا الكيس بجواري لقلت مثلك أنني كنت في حلم أو أن ما رأيته لم يكن سوى خيالات ثمل .

وساد الصمت .. واستغرقت في تفكير عميق .. أنا شخص سبق لي أن قلت عشرات المرات أنني لا أومن بالأشباح ولا بالأرواح ولذا فقد وجدتني أحاول أن أجد تعليلا لما قاله الرجل .. لقد كان يبدو لي أنه صادق في كل ما قال .. فهو من ذلك النوع الذي لا تملك الا أن تصدقه .. والذي لا يمكن أن يكذب .. اذا فلا بد أن يكون ما قصه قد حدث له .. أو على الأقل قد خيل اليه أنه حدث له .. وعلى ذلك فالمسألة لاتعدو أحد أمرين : أما أنه كان ثملا وسرقت منه العربة ، وهذا غير معقول لأنه قد وجد بجواره النقود . واما أنه ضحية خدعة محبوبة الأطراف .. وهذا هو الأكثر احتمالا . وخاصة أنني شاهدت ملابس عهد محمد على متوفرة لدى الجنود الذين كانوا يقومون بالحراسة في الاحتفال بتسليم القلعة ، وعلى ذلك فلا يستبعد أن يكون خبيث قد استطاع الحصول على هذه الملابس ، وأنه قد مثل دور الشبح مع الرجل خير تمثيل ، وأن ما أعطاه اياه من النقود ليس الا قطعاً مزيفة ، وانه قد ضربه ضربة أفقنته رشده ، ثم تركه على أفريز الشارع .

وكنت أعلم أن هذا الافتراض لا يخلو من ركاكة . فان هناك وسائل لمسلب الرجل عربته أسهل بكثير من هذه الوسيلة .. ولكنني لم أجد تعليلا لما قصه الرجل خيرا من هذا التعليل .. ولا شك أنني استطيع أن أجزم بصدقة لو استطعت أن أثبت أن القطع التي مع الرجل قطع مزيفة .

وسألت الرجل أن يعيرني قطعة منها حتى أريها لخبير ليتأكد من أنها ليست مزيفة . ولم يتردد الرجل فأعطاني القطعة وتواعدنا على اللقاء في اليوم التالي .



وذهبت الى رجل أعرف له خبرة بهذه الأمور .. وفحص الرجل القطعة  
وامعن في فحصها ولشدة عجبى رأيته ينظر الى ثم ينيلني انها صحيحة . وأنها  
نادرة الوجود ، فهي من القطع التي كانت تستعمل فى عهد محمد على .

ورغم ما كان فى قوله من تأكيد للصفقة العجيبة فان ذهنى لم يستطع  
أن يقبل القصة بعد ، وذهبت الى دارى ، وفى الصباح استيقظت وفى نيتى  
أن أعيد القطعة الى صاحبها .. ولكنى لم أجدها حيث وضعتها .

ومضت بضعة أيام وأنا أجهد نفسى فى البحث عنها دون جدوى .. ولم  
أجد خيرا من الذهاب للاعتذار اليه ، وأن أعرض عليه ثمنها لها .

وذهبت الى الرجل فلقينى مرحبا ، وبدأت أروى له كيف سرقت  
القطعة .. ولكنه قاطعنى قائلا ببساطة :

- لا عليك .. لقد أعادها الى !

- من ؟ ... من الذى أعادها ؟

- الشبح .. لقد أنبأنى أنه خشى أن تضيعها فسرقتها منك وأعادها الى ..

وهزرت رأسى فى حيرة .. كيف أستطيع أن أصدق هذا ؟ كيف  
سرفت ؟ وكيف أعيدت ؟

أغلب الظن أن الرجل بعقله شيء .. لوثة .. أو خبل .

على أية حال .. حمدا لله ، أن الشبح السارق قد أعاد القطعة اليه ..  
فأبرأ نمتى .

وحمدا لله أيضا أننى لم أكن مستيقظا عندما ارتكب سرقة .. والا كانت  
تبقى عبارة .

★ ★ ★



# عَلِمَهَا عِنْدَ رَنِي

كيف حدث ما حدث ؟ .. أين  
ذهبت الدار ؟ .. هل كان كل ما رأيت  
حلما ؟ .. هل كانت الفتاة شبيحا ؟ ..  
هل شفيت الفتاة ؟ .. هل ماتت ؟ ..

كان ذلك فى احدى الأمسيات .. وقد ضمنتنا ندوة من الأصدقاء  
والمعارف .. وكنا خليطا من مختلف المهن والأعمار ، وأخذنا نقطع الوقت  
بالمسمر أو لعب النرد والورق .. وجلست أنا أمام المذياع أنصت الى بعض  
الهذر واللغو حتى ضقت به ذرعا فأسكتته .. والتفت الى الصحبة السامرة  
اشترك معها فى الحديث فسمعت أحدهم يقول متعما بقية قول لم أسمع أوله :

- واستمر الطرق على النافذة فى نفس الموعد كل ليلة .. وكنت أسمع  
وقع أقدام فوق السطح تغدو وتروح .. ثم أسمع صوت هبوط جسم ثقيل ..  
واؤكد لكم أننى لم أكن جبانا فى يوم من الأيام .. ولكن هذه الأصوات فى  
منتصف الليل كانت تبعث فى جسدى قشعريرة .. ولقد حاولت بضع مرات  
أن أتسلل الى الظلمة وقد أمسكت فى يدى سكيناً لعل الطارق أو السائر يكون  
لصا .. ولكنى لم أعثر على أحد قط .. وكنت لا أكاذ أبى الى فراشى حتى  
يعود الطرق .. وأخيرا لم أعد أحتمل .. فتركنت الدار تنعى من بناها .

وصمت القوم .. وأخذوا يهزون رؤوسهم فى دهش وتساؤل ، ثم قال  
أحدهم معلقا :

- أجل .. لاشك في وجود الأرواح والأشباح ، لقد سكنا ذات مرة بجوار إحدى الدور المسكونة .. التي قيل لنا أن صاحبها مات محروقا .. ولم يكن الأنين ينقطع طول الليل وكنا أحيانا نسمع عويلا وصراخا .

وأمن البعض على أقواله بهز الرؤوس ، وبدت للحيرة على البعض لآخر .

ولم أحتمل هذه الخرافات .. فانبريت أقول وأنا أضحك ساخرا :

- كلام فارغ - هذه كلها أو هام وتصورات مبعثها ضعف الأعصاب .. هذا الطرق على النافذة ، والأقدام التي تروح وتغدو والصراخ والأنين .. لاشك أنها صادرة من مصدر ملموس كائن .. لست أدري ما الذي يبعث روحا من الأرواح على أن تمضى ليلا في دق نافذة ، أو التمشي على سطح .. أو ببح صوتها في الصراخ والأنين ، هذه سخافات .. حرام علينا أن ننسبها للأرواح .. ولو بحثنا جيدا لوجدناها ناتجة عن أتفه الأسباب .

وصاح الصديق صاحب النافذة المطروقة :

- كيف ؟ ومن تظن انه صاحب الطرقات وصاحب الأقدام التي تغدو وتروح ؟

- صاحب الأقدام قد تكون قطعة على السطح .. أما الطرقات فقد تكون صادرة من شكل مكسور تعبث به الريح .

واندفع صاحب البيت المسكون يقول في استخفاف وسخرية :

- والأنين والعويل .. ما سببهما ؟

- كلب جريح .

- لا فائدة من المناقشة معك ، انك انسان تستخف بكل شيء وتظن أنك تعرف كل شيء .

واندفع الباقون يسفهون رأيي .. فانتظرت حتى خف ضجيجهم وقلت :

- لابد أن يكون لكل شيء سبب .. ولو بحثنا عن أسباب هذه الخزعبلات جيدا لاستطعنا أن نعثر عليها .. ولوجدناها في منتهى التقافة .. لاتمت الى الأرواح أو الأشباح بأية صلة .

وكان واحد من القوم قد اتخذ مكانا قصيا .. ولم يحاول أن يشرك نفسه في المناقشة ، وهو طبيب معروف عاقل رزين فسمعته يقول معقبا على قولى :

- معك حق .. فأنا مثلك لا أومن بالأشباح .. ولكن بخيل لى أن هناك قوى مجهولة تأتي بأفعال - غير ذلك العبث من طرق على النوافذ وأتئين فى سكون الليل - أفعال تعنى شيئا .. أو تكون ذات فائدة لكائن بالذات .. دون أن نستطيع أن نحلل كيف حدثت أو من فعلها .

ولم أفهم بالضبط ما يقصده الطبيب ، وكذلك بقية الرفاق والظاهر أنه قد رأى قوله غير مفهوم .. فقد تناول ثقابا وأشعل سيجارته ، وقال وهو ينفث دخانها ببطء :

- يبدو أنى لم أستطع أن أوضح قولى جيدا .. إذن فاسمعوا ما أقصه عليكم :

حدث هذا منذ بضع سنين اذ كنت مدعوا لقضاء بضعة أيام فى عزبة زكى بك عبد العالء صاحب مصانع النسيج المعروفة بالمحلة .. وهو رجل كريم لطيف المعشر .. زرته بضع مرات فى مرض ألم به فأصدر على أن يرد الجميل بدعوتى الى عزبته .

ولقد قبلت الدعوة مكرها ، اذ كنت موقنا بأنى لن أجد من وسائل التسلية فى عزبته النائية ما يجعلنى أقضى وقتا طيبا .

ودُهبت .. لمجرد رغبتي فى الا أولم الرجل برفض دعوته على أن أعود بعد يومين على الأكثر .

واستقر بى المقام فى الدار القائمة بين المزارع المترامية ، وأدهشنى

أن أجد فى الريف بيتا بمثل هذه الفخامة .. فقد كانت تتوفر فيه كل وسائل الراحة والتسلية .

ومرت بى الأيام الأولى دون أن أحس بأى ملل .. فقد كانت لكل تلك المرغبات - مضافا إليها عامل مهم ، أو هو أهمها جميعا ، وهى بنت أختى زكى بك - أثرها الفعال فى استبقائى .. ونسيانى ما كنت قد عقدت النية عليه من عودة سريعة .

كنت أقضى اليوم فى لعب التنس ، أو فى السباحة ، أو فى ركوب الدوكار ، أو صيد السمك .. تشاركنى الفتاة فى كل ما أفعل .. وكانت سمراء جذابة ، شديدة المرح ، تفيض أنوثة وجاذبية .

ورحلت الفتاة فى اليوم الرابع .. وبدأت أحس بالفراغ والوحشة .. وخيل الى أنى قد أحببت الفتاة .. وصممت فى نفسى على أن أتقدم لخطبتها . وحدث فى اليوم الذى عرّضت فيه على الرحيل أن دعانا «عمر بك شريف» لزيارته وقضاء المسهرة عنده .. وكان يملك العزبة المجاورة ، وقبيل الغروب أخبرنى «زكى بك» أنه يحس بتوعك وأنه يفضل أن يستريح ، وسألنى أن أذهب وحدى قائلا : أنه قد أمر الأسطى محمود بتجهيز الدوكار ، ليقلنى الى هناك .

وكننت أحب قيادة الدوكار ، فأجبت به بأنى أعرف الطريق الى بيت عمر بك وأنى أستطيع الذهاب وحدى .. فلا ضرورة لأن تتعب الأسطى محمود .. دعه يستريح .

وبدأت السير وأنا أحس بنشوة عجيبة .. وكنا فى أكتوبر ، وجو الخريف رطب منعش ، والشمس تتهاذى فى الأفق مجررة ذيلها الحمراء على رؤوس الأشجار وأطراف المزروعات .. والجواد يمشى مرحا .

ولاحت لى أخيرا الأشجار العالية المحيطة بدار شريف بك .. ثم عبرت البوابة الخشبية القائمة أمام باب الدار والمتصلة بالسور الذى يحيط بالحديقة .. وكانت الظلمة قد سادت وتبدد النور الا بقايا باهتة واهنة تبدى من المرثيات أشباحا غامضة .

وتسلم العربية والجواد أحد الحراس .. ودخلت الدار فوجدت صاحبها  
في انتظارى مع ثلة من الأصدقاء واعتذرت عن زكى بك ثم اتخذت مجلسى  
بينهم .. متشاعلا بالحديث تارة وباللعب تارة أخرى .

وحان وقت العشاء فنهضنا الى حجرة الطعام .. ويبد كل كأسه ،  
ومرت بينهم أحمل كأسا من الويسكى المخفف أخذته بعد الحاح ، اذ لم أكن  
متعودا الشراب .

ولم أتناول من الطعام الا قليلا .

وعندنا بعد العشاء لنواصل اللعب والضحك .. وعندما بلغت الساعة  
العاشرة استأذنت فى الانصراف .

وخرج شريف بك ليوصلنى الى الحديقة ، ووجدت العربية فى  
الانتظار ، وقد أضاء الحارس مصباحها ، واتخذت مكانى على مقعد السائق ،  
وقلت لمضيفى :

- أرجو أن أرد ضيافتك فى مصر .. حتى استعيرى الريال الذى  
خسرته فى اللعب .

وضحك شريف بك وقال :

- سأزورك ان شاء الله .. لأضعاف الربح .

وحبيته ، ثم جذبت اللجام فتحرك الجواد ولوحت للرجل بيدى ،  
وانطلقت من البوابة الخشبية الى الطريق .

ولم تكن الظلمة شديدة فى بادىء الأمر ، فقد كانت أضواء النجوم تظهر  
لى هيئة المراثيات واضحة جلية .. ولم يصعب على أن أميز أوهبات التربة  
من أشجار وأكواخ ، وكان مصباح العربية يبدد بعض الحلكة فيزيينى  
اطمئننا .

ولكن عندما أمعنت فى السير بدأ الضباب يملأ الجو وزادت الظلمة  
ونهب الضوء الخافت الشاحب الذى كان يهبط من النجم المتألقة .. ولم يعد  
المصباح قادرا على أن يكشف جوانب الطريق .

وبدأت أتمهل وأعيد لنفسى وصف الطريق وألف الى اليمين عند شجرة الكافور التى تكسبت بجوارها أكوام المباح .. ويظل الطريق مستقيما حتى أبلغ بضعة أكوام محيطية بساقية ، فألف الى اليسار ثم أعبّر القنطرة ، وأسير بجوار التربة حتى أبلغ البيت .

وأحسست بشيء من الراحة عندما أقنعت نفسى بأنه لا خوف على من الضلال وسط الضباب والظلمة .

ولاحت لى شجرة الكافور فاتجهت يمينا ، وواصلت السير فى الطريق المستقيم .. وأنا أمعن البصر فيما حولى باحثا عن الأكوام والساقية ، وخيل الى أنى قد مرت أكثر مما يجب دون أن أبصر فى الطريق أية معالم .. وتوقفت برهة ونزلت من العربة وأخذت أسير هنا وهناك محاولا العثور على مكان الساقية حيث يوجد الطريق المتجه يسارا والذى يعبر القنطرة ..

وعدت الى العربة دون أن أتبين من حولى شيئا .. وقلت لنفسى أننى قد أكون مخطئا فى تقدير طول المسافة التى قطعتها وأن الساقية ما زالت بعيدة .

وعاودت السير مرة أخرى ، حتى لاح لى طريق يتجه يسارا فدللت فيه آملا أن أعبّر القنطرة بعد حين .. ولكن السير طال دون أن أعثر على أى أثر .. وأدركت أنى ضللت الطريق ، وقلت لنفسى أن خير ما أفعل هو أن أعود الى بيت شريف بك لأستعين بأحد رجاله ، أو لأقضى الليلة معه حتى الصباح .

وأدرت العربة عائدا من حيث أتيت .. وبدأت أستعيد لنفسى المرات التى لففت فيها حتى لا أضل فى العودة أيضا .

ومع ذلك فقد ضللت ، وأخذ الوقت يمر بى وأنا مععن فى السير ، أتخبط على غير هدى .. دون أن تبدو لى بارقة ضوء

عجبا .. ألا يوجد كوخ واحد من أكوام الفلاحين أستدل منه على الطريق .. فلا شك أن أى فلاح فى هذه المنطقة يعرف بيت «زكى بك» أو «شريف بك» .



يجب الا أياس ، فلا بد أن أعثر على من يدلنى على الطريق ، أو على من يأوينى عنده حتى الصباح .

وسار الجواد متثاقلاً يضرب الأرض ضرباته المنتظمة .. وأحسست بالتعب ، وبالنوم يثقل أجفانى .

ولست أدري بالضبط هل نمت طويلاً وأنا ممسك باللجام ، أم أن عيني لم تغفل سوى لحظة خاطفة .. فالإنسان عندما ينام فى مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يعرف مدة نومه ، بل لا يستطيع أن يعرف ان كان قد نام أم لا . على أية حال لقد كان أول ما أبصرت عندما فتحت عيني ضوءاً يلوح على مقربة .

وبدد رؤية الضوء ما عراني من خمول .. وحثت الجواد متجها الى مصدر الضوء .. وبعد فترة قصيرة كنت أقف أمام بوابة خشبية مغلقة .

وهبطت من العربة واقتربت من البوابة القصيرة ودفعتها ففتحت .. ووجدت الأشجار المتكاثفة قد حجبت الضوء الذى كنت أبصره وأنا فى الطريق .. ولم أعد أميز شيئاً أمامى ، فعدت الى العربة ونزعت منها المصباح حتى أسير على هديه .

وسرت فى ممر ضيق يقوم على جانبيه سور من الدرنه لم تمتد اليه يد المقص منذ زمن طويل .. وفجأة انطلقاً المصباح ووجدت نفسى مرة أخرى فى ظلمة دامسة .. ولم أجد بدا من التخبط فى الظلمة حتى أصل الى نهاية الممر .

ولم يطل بى السير حتى وجدت نفسى أمام بضع درجات حجرية تؤدي الى باب ، ولاح لى الضوء الذى أبصرته وأنا فى الطريق .. ومددت يدي فقرعت الباب .. ومضت برهة ثم سمعت وقع أقدام متثاقلة تقترب من الداخل .

وأحسست بشيء من الخجل وأنا أقف أمام الباب فقد كانت الساعة تكاد تبلغ الثانية عشرة .. وتصورت ذلك الازعاج الذى سببته لأصحاب الدار .. وتصورت حقهم عندما يتبينون انى اسألهم عن الطريق الى بيت فلان أو علان .

وتوقفت الأقدام وراء الباب ، ثم ضغطت على زر كهربائى فأضاء فوقى مصباح غمر المكان بنور قوى ، ثم فتح الباب ووجدت أمامى امرأة فى خريف العمر ، تلتحف بشال أسود غطى رأسها وكثفها وبدأ وجهها أصفر تتخلله بعض التجاعيد وتحيط به الشعيرات البيضاء .

وأحنيت رأسى وقلت بأقصى ما استطعت من أدب ورقة أشرح لها ما أريد :

- مساء الخير .. أنا الدكتور ...

وهنا حدث آخر ما كنت أتوقع .. حدث ما تركنى مشدوها مذهولا .. وأوقف الكلمات على لسانى .

لم تكذ المرأة تسمع منى كلمة «دكتور» حتى اندفعت الى تمسك بذراعى وتصيح فى صوت متشنج باك :

- الدكتور ! .. أغثنا ياسيدى .. أدركنا .. لقد كدنا نيام من حضورك .. ابنتى يادكتور .. أرجوك .. تفضل .. لقد أرسلنا الخادم لكى يحضر طبيبا من البلدة منذ ساعتين فلم يحضر حتى الآن .

ولم يكن يسعنى سوى الرضوخ للمرأة ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع على ، ولم تكن حالتها تعيننى على أن أشرح لها ما أتيت من أجله أو التفاهم معها على أى شيء ! ..

وتبعتها صاغرا مشدوها الى الطابق الأعلى وهى مستمرة فى نشيجها وتوسلاتها الى أن أنقذ ابنتها .

ودخلت وراءها فى إحدى الحجرات ، فإذا بى أجد فتاة راقدة على فراش .. فتاة .. ما زالت صورتها حتى الآن مطبوعة فى ذهنى لاتفارقه .

لقد كانت جميلة ما فى ذلك شك .. ولكنى لا أظن الجمال وحده يمكن أن يترك فى نفسى ذلك الأثر .. لقد كان بها ما يشبه السحر .

وجلمت بجوارها وهى مغمضة عينيها نصف اغماضة ، وقد بدا عليها الألم .. فأمسكت بيدها أجس نبضها وأنا أطلب من امها الهدوء ، وسألتها أن تشرح لى ما بها .

ولم يصعب على أن أدرك أن الفتاة مصابة بنزيف أحدثها هبوطا فى القلب ، وأنها فى أشد حالات الخطر ، وأن الاعياء قد بلغ بها حدا تحتاج معه الى اسعاف سريع وعلاج عاجل .

وكان على أن أبدا باعطائها كورامين .. ثم أخذ فى إيقاف النزيف واسعافها بالعلاج العادى .

ولم يكن بالدار شيء من هذا .. ولم تكن هناك صيدلية قريبة .

وتكرت أن زكى بك يحتفظ فى داره بكمية من مختلف أنواع الأدوية للطوارئ .. فنهضت من مقعدى ، وقلت للمرأة أنى سأعود إليها حالا ، بعد أن أحضر لها الأدوية المطلوبة .

واندفعت أهبط فى سرعة جنونية ، وقفزت الى العربى ، وأهبت ظهر الجواد .. فانطلق يعدو ...

الى أين .. ١٩

يا للحق والغباوة .. لقد نسيت أهم شيء أتيت من أجله نسيت أنى قد ضللت الطريق .

وهمت بأن أجنب الجواد لأعود الى المرأة مرة أخرى وأسألها عن الطريق الى البيت الذى أريده .. فلاشك أنها تعرفه ..

ولكنى لم أكد أجنب اللجام حتى سمعت صوت حوافر الجواد تطرق أرضا خشبية .

عجبا .. انها القنطرة .. وليس على لكى أصل الى البيت الا ان أسير  
بجوار التربة .  
وعجبت لتصاريف القدر ، لو أنني سرت برهة ولم أتوقف عند الضوء  
لعرفت الطريق ولما فكرت في أن أتوقف وأقرع الباب وأعود المريضة التي  
كانت تتلف على طبيب .  
وأخذت أستحث الجواد ، غير عابىء بظلمة ولا ضباب ، وانطلقت  
العربة بسرعة جنونية .  
وفجأة كبا الجواد .. وأحسست بالعربة تتمايل وتترنح .. ولم أشعر  
بنفسي الا وأنا ملقى على الطريق أكاد أهوى الى الماء ..  
ونفضت أتحمس أعضائي فوجدتني سليما لم يمعنى سوء .. ولكن  
الجواد كان ملقى على جانبه والعربة مقلوبة .  
ونظرت أمامي فوجدت أضواء تلوح على بعد ، لم أشك في أنها صادرة  
من الدار التي أقصدها .  
وبلا تفكير انطلقت أعود .. ووصلت الى الدار مبهور الأنفاس خائر  
القوى ، ووقفت أمام الباب أقرع الجرس قرعا متواصلا .  
وفتح الباب ، ووجدت «زكى بك» ينظر الى مشدوها وقد بدا عليه  
الانزعاج ، وسألني عما أخرني الى هذا الوقت ؟  
واندفعت أقص عليه كل ما حدث باختصار ، وأسأله أن يريني الصيدلية  
التي لديه حتى أأخذ منها ما أريد ، وأن يأمر بتجهيز عربة أخرى .  
ونظر الى «زكى بك» في ذهول واقترب مني يشم رائحة فمي وقال في  
هدوء :

- لقد شربت أكثر مما يجب .

- أخرجوك يازكى بك .. أستمع الى .. انى لم أشرب سوى كأس  
واحدة .

- وهذا أكثر مما يجب .. ان ما رأيته لايمكن أن يكون حقيقة لسبب بسيط ، هو أن هذه المنطقة لاتحتوى ، - لمسافة أربعين كيلو - غير بيتى وبيت مشريف بك ، وأكواخ الفلاحين .. وما سمعت قط أن هناك امرأة وابنتها فى دار على مقربة من هنا وأنت نفسك مررت بالطريق قبل ذلك ، فهل أبصرت هذه الدار التى نتحدث عنها .. ؟ ادخل .. ادخل هداك الله .

- ولكننى أقسم أن ما رأيته حقيقة ، ان الفتاة توشك أن تقضى نحبها . وكنت ، وأنا اؤكد له قولى ، أقول لنفسى : حقا انى لم أبصر أثرا للدار قبل الليلة .

ومع ذلك فقد أصررت على العودة ، وعلى ان آخذ الأدوية ، وقال لى زكى بك :

- لايمكن .. ان أدعك تخرج .. انك متعب .. انتظر حتى الصباح وسأذهب معك بنفسى .

- ولكن لن تعيش الى الصباح .

ومع ذلك فلم يكن هناك بد من الانتظار .. فقد أصر زكى بك على الا يعطينى الأدوية ، والا يسمح لى بالخروج ، وكانت قنماى لاثقويان على حملى من فرط ما عدوت .. ولم أجد بدا من الاستلقاء بملابسى على احدى الأرائك حتى الفجر .

وقبل أن تشرق الشمس ، كنت أوقف زكى بك وأرجوه فى الحاح أن يعطينى الأدوية .

وهز الرجل رأسه فى دهش واستسلام ، ثم نهض وارتدى ملابسه وانطلقنا بالعربة بعد أن أحضرها رجاله وأصلحوا ما بها .. وغيروا الجواد .

ولا أظننى فى حاجة الى أن أخبركم مبلغ ذهولى وخجلى ، ونحن نجوب المنطقة شبرا شبرا .. نبحث عن الدار المزعومة فلا نجد لها أثرا .



كيف حدث ما حدث .. ؟ أين ذهبت الدار .. ؟ هل كان كل ما رأيت  
حلما طاف برأسي وأنا نائم على مقعدى بالعربة ثم أيقظنى منه وقوع الجواد  
وانقلاب العربة ؟ .. هل كانت الفتاة شبحا ؟ .. هل شغيت الفتاة ؟ .. هل  
ماتت ؟ .

وساد القوم سكون عجيب الا من صوت خافت همس بيننا :  
- أجل ماتت ..

ونظرنا متعجبين الى صاحب الصوت وكان رجلا كهلا حديث المعرفة  
بنا .

وتلفت اليه الطبيب وسأله فى دهش شديد .  
- من أدراك .. أتعرّفها ؟

فأجاب الآخر فى صوته الخافت ونبراته الهامسة :  
- أجل انها ابنتى .... ماتت منذ أربعة أعوام ، اذ حدث لها نزيف أودى  
بها .. وكنا نقطن وقتذاك فى الأقصر ، حيث كنت أعمل فى السكة الحديد ..  
وغبت عن الدار ذات ليلة فى جولة مرور ... وعدت فى الصباح وجدت الابنة  
قد ماتت ... والأم تردد فى شبه هذيان :  
- لو عاد الطبيب ، لما ماتت ...

وعلمت منها أن النزيف حدث فجأة ، وأنها أرسلت الخدام يبحث عن  
طبيب فطالت غيبته .. وأخذت تدعوة الله أن يعجل بحضوره ... وفجأة  
طرق الباب ، ودخل الطبيب ، وقد بدا لها كأنه هبط من السماء .... وفحص  
الفتاة ، ثم قال انه سيعود سريعا بعد أن يحضر الدواء والاسعاف اللازم ..  
ولكنه لم يعد قط .

وصمت الرجل ثم مد يده الى جيبه فأخرج محفظة صغيرة سحب منها  
شيئا .. أعطاه للطبيب .

وفغر الطبيب فاه ، وجحظت عيناه ، وهتف بصوت مبجوح وهو  
يحملق فى الصورة :  
- انها هى .

★ ★ ★

مجنونان .. مخبولان .. كيف يصدق عاقل مثل هذا الهراء ؟ .  
أيمكن أن يحدث هذا ؟ .

أهذا ما عناه الطبيب بقوله أن هناك قوى مجهولة تأتى بأفعال - غير  
ذلك العبث من طرق النوافذ وأنين فى جوف الليل ؟ - أفعالا تعنى شيئا دون  
أن نستطيع أن نحلل كيف حدثت أو من فعلها ..

كيف يمكن أن يعال ما حدث ؟  
أهو تجاوب أرواح .. الله وحده أعلم  
هو يسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي .

★ ★ ★





جناح الصدور



## الاهداء

الى الذين فى شفاهم صمت ، وفى حشامهم صخب .  
الى الصابرين على الجوى .  
الهائئين على السعير .  
الى الذين انطلوت قلوبهم على مشاعرهم .  
وأغلقت صدورهم على خباياهم .  
أهدى بعض ، خبايا الصدور ، .

يوسف السباعى



# وَسِيَّةُ الْفَرْدِ

أبتها الدمية .. سامحك الله .. انى أحبك  
حتى الآن .. حتى بعد أن وضعتك فى  
مصاف الدمى .. ولكن الى متى يوم  
حب الدامسى

لهفى : عليك يا ساحرة ، أن أضعك فى مصاف الدمى . لهفى عليك يا حبيبة  
الروح أن ينتهى بك المطاف .. لتستقرى بجوار غيرك .. ولتضيفى  
الى كوم الدمى ، دمية أخرى .

لهفى عليك وأنت المخلوقة الرقيقة المرفهة الحس المتأججة  
المشاعر .. أن أنزعك من القلب لألقى بك وسط الحطام البائد .. والرماد  
الخامد .

كنت أربأ بك عن هذا المصير .. كنت أنزهك عن التردى فيه ،  
وكنت أتشبه بك ، وأضم عليك الحنايا ، وأطبق الضلوع .. كنت مصمما  
على أن أبقيك الى الأبد ، كنموذج سام مرتفع يسمو عن الخطايا ، ويجل  
عن الهنات .

كنت مصمما على أن أجعل منك نسيجا وحذك .. نسيجا حيا .. غير نسيج الدمى البائعات الخامدات .

ولكن ما حيلتى معك ، وقد ابيت الا الزلل والهبوط ! ما حيلتى ! أخلق منك معبودة مقدسة .. فتصنعين من نفسك بشرا نافها .. أرفعك فوق الغمام فتتحدرين الى الرغام .. ما حيلتى ! أضعك فى قلبى .. فتتطيرين مع الهواء وتخرجين مع كل زفرة حارة ، وآهة ملتبهة .

ما حيلتى ! اجعل منك حبيبة الروح .. وتجعلين من نفسك دمية ؟ .

★ ★ ★

هل تذكرين قصة دمية .. بالطبع تذكرينها .

فما أظن هناك قصة كانت تشغل رأسك ، وتقلقك أكثر منها .

كنت تجزمين أن القصة حقيقة واقعة ، وكنت تكرهين بطلتها وتغارين منها ، رغم علمك أنها - بفرض صحة وجودها - قد اضحت خارج الحلبة .. وأن القلب قد خلا لك وحذك تتربعين فيه بلا شريك ولا منازع .

كانت القصة كما تذكرين تدور حول « فترة راحة » وكان بطلها الفنان الزوج الأب قد اندفع فى حب يائس لا أمل فيه سوى أن تهبه الحبيبة « فترة راحة » ، ولكن الحبيبة خذلته ونكصت على عقبيها .. فكتب يقول لها :

« لقد اندفعت فى حبك حتى خيل الى أنى أوشك أن أصل الى « فترة راحة » ولكنى رأيتك تنتئين فجأة وتقلبين ظهرك المجن وتبدلين على حقيقتك زائفة نافهة .

« ولا أكتفك أنى صدمت ، وأن الصدمة كانت شديدة الوقع على نفسى ، وأن صدك قد ألمنى ، وتحولك عنى قد أوجع نفسى ، واكتشاف حقيقتك عصر قلبى اعتصارا ، ولكنى استعنت بالصبر والتجلد ، وقاومت

صدك بصد مثله وصمعت على أن أقتلحك من قلبى اقتلاعا .  
 ، وأعاننى الله على البرء من حبك ، واستطعت أن أنساك أو أكاد  
 حتى أضحيته بالنسبة الى دمية كغيرك من الدمي ، .  
 وكان أكثر ما يقلقك .. أن تحل نهايتك معى كما حلت نهاية بطلة  
 القصة .

كنت تخشين أن أبرأ من حبك ، وأن أنساك ، وأن تصبحى بالنسبة  
 الى مجرد دمية .

وكنت تسأليننى فى لهفة :

- كيف سلوت صاحبائك الأوليات ؟ كيف طردتهن من قلبك ؟ كيف  
 كرهتهن ؟ . لشد ما أخشى أن ألحق بهن ؟ .

كنت تسأليننى وقد جلسنا متلاصقين ، والصحراء العريضة قد  
 امتدت أمامنا ساعة الغروب ، والشمس الهابطة تجر أنيالهال الحمر ، وفى  
 أقصى الأفق بدا المنظر الساحر الذى اتفقنا معا على أن نستوعبه فى رؤسنا  
 قطعة قطعة ، وأن نحفظ تفاصيله وحذافيره حتى يخلد فى نفسينا هذه  
 اللحظات السعيدة التى اختلسناها من القدر .

وانى أذكره بإفانته .. كأتى أبصره امامى ، وسأذكره دائما كشىء  
 .. لازم لك .. أذكر المزارع تمتد فى أقصى الأفق وراء الصحراء الواسعة  
 حضراء باهتة .. كأنها شريط يفصل صفرة الرمال عن زرقة السماء .  
 وأذكر المدخنة القائمة مرتفعة مستقيمة تنفث بخانها الأسود المتبدد مع  
 السحب ، وأذكر أكوام الرمال أمامنا التى استخرج منها الزلط ، وأذكر  
 العربات تقلقك كلما مرت من الطريق البعيد ، فخلتها قائمة الينا تقطع  
 وحدتنا ، وتزعج ، خلوتنا .

أذكر كل ذلك يا حبيبتي ..

وأذكر وجهك الدقيق الحلو وأنفك المستقيم وطرفوته المرتفعة التى

كان يلذ لي أن أملك بها برفق بين أسناني كأنى أوشك أن التهمها .

أنكر عينيك الساحرتين المتلهفتين اللتين تقطران وجدا وتفيضان  
جری وأنت تسأليننى :

- كيف كرهتهن ؟ .

- كرهتهن لأنهن أكرهننى على كرههن .. لأنهن كن نافهات  
متقلبات .

- كم أود أن أبقى فى قلبك الى الأبد . انى لا أستطيع الآن أن أشرح  
للك حبى ، انه شىء زاخر فياض ، لا تعيننى الألفاظ على وصفه ، ولكن  
فى المستقبل قد تستطيع أن تعرف مقداره .

- انى أعرفه الآن ، لأنى أشعر بمثله .. ولن يقدر على أن ينزعك  
من قلبى الا شىء واحد .

- ما هو ؟ .

- أنت .

- وكيف ؟ .

- أنت وحدك التى تستطيعين أن تنزعى نفسك من قلبى ، بأن  
تسميه ، وتجرحيه ، وتبدلينى بالهجر ، وتكبرى حبى ، وتستبدلينى بأخر  
او بأخرين .

ونظرت الى مؤنبه وتهتبت تنهيدة حارة ، وقلت فى صوت يذوب  
أسى :

- أنا أفعل ذلك ؟ ! ليتنى أستطيع أن أفعله .. ليتنى أستطيع ان أرفع  
عن نفسى عبء حبك .. حبك اليأس الذى لا أمل فيه .

ووضعت رأسك على صدرى وقلت هامسة :

- ولكنى عبتا أحاول .. انى لا أحس بالراحة الا الى جوارك ..



أحس أنى فى موضعى الصحيح .. وأننى بت ملكك ، تفعل بى ما تشاء  
ولا شىء يمتعنى أكثر من ذلك . أحبنى دائما فانى لا أتصور كيف أعيش  
من غير حبك .

- سأحبك دائما .. كيف لا أحبك ، وكل ما بك يبعثنى على حبك ؟ .  
كيف لا أحبك وأنا ما رأيت فى حبك لحظة شقاء ولا ضيق ؟ . كل ما ذقته  
من حبك سعادة خالصة لا تشوبها شائبة .. لقد أرضيت كل جارحة فى  
نفسى .. كيف لا أحبك وأنت تعتبرينى مخلوقا كاملا مثاليا ؟

- وإنك لكذلك .. وما من انسان الا ويعتبرك كذلك .

- لا .. لا .. ان عين حبك هى التى ترانى كذلك .

ولا أكاد أنتهى من قولى حتى ألمح سحابة حزن خيمت على وجهك  
فأسألك فى جزع :

- ما بك ؟

- لا شىء ..

- بل بك شىء !

- لا شىء أكثر من احساس بقرب الفرقة .. كم أكره أن أتركك ولو  
الى حين ، ويعلم الله ماذا يمكن أن يحدث لى عندما يقدر لنا أن نفترق الى  
غير لقاء !

وضممتك الى ومسحت بشفتى كل قطعة فى وجهك .. عينيك  
ورجنتيك ، وأنفك ، وخديك ، وذقنك ، وعنقك ، وكتفك ، وذراعيك ،  
وبيدك .. ثم استقررت فى النهاية على شفقتك .

★ ★ ★

حقوق منى أن أكرر ذلك الآن .. فما أظننى الا كالنائب فى مأتم أو  
كالنائح على قبر يستدر العبرات باستعادة ما مضى ويستدرف الدمع بترديد  
ما فات .

ولكنى اؤكد لك اننى اكتب بلا عبرات ، أو عبرات جامدة في  
المقالة .. ولو سألت لخففت عنى بعض الجوى ، واذهبت عنى بعض  
اللوعة .

لقد افترقنا وقتذاك وأنا أشعر أننا قد وصلنا فعلا الى فترة  
الراحة ، .. وأتأنا قد انغمرنا فيها .

وكيف لا .. وأنا ما أحسست براحة ذهنية أو روحية أو قلبية كما  
أحسست بجوارك أو بمجرد التفكير فيك .

كيف لا .. ورسالتك التى أرسلتها الى بعد افتراقنا تنطق بذلك ..  
وتشهد به .

كيف لا .. وأنت القائلة فيها :

لقد قلت اننى ما دمت قد سمحت لنفسى بأن أفعل معك ما فعلت ..  
فان من العبث أن أمل فى سعادة أخرى مقبلة .

أننى آخذ نصيبي من السعادة الآن فلا أظن أن هناك مخلوقا يستحقنى  
أو يستحق أن أحب له ما وهبت لك .. أكثر منك .. انى لا أستطيع أن أكون  
مثلك فأحب عشرات الرجال .. كما أحببت أنت عشرات النساء .. وأن  
أستمع بهم كما استمعت بهن .. لأننى لا أملك الا أن أحب مرة واحدة ..  
رجلا واحدا .. ولقد كنت أنت هذا الرجل .. ولا أحد سواك .

انى أجزم لك أننى حتى لو تزوجت فلان أحاول أن أحب زوجى كما  
أحببتك . قد أشعر له بنقص التقدير والاحترام اللذين تشعر بهما لزوجتك ..  
أو أقل .. ولكننى اؤكد لك أنى لن أجسر على تقبيله أو مسه أو على فعل  
أى شئ من هذا القبيل .. رغم أن هناك بعض الأشياء التى لا بد لنا من  
تأديتها لأن واجبنا يحتمها علينا .

ان متعتك بى لا تعادل منعنى بك .. لأننى أشعر أنى أحسو كل كأسى

الآن .. انى أفرغها حتى الثمالة .. انى أستمتع بضمة ذراعيك وحرارة شفتيك وبكل شيء فيك .

لقد كنت دائما اقول لنفسى انى لابد فاعلة ذلك مع أحدهم ، وماكنت أنت الآن - وستكون دائما - أعز الناس على نفسى وأقربهم الى قلبى .. فلا أظننى أكون بمخطئة اذا ما فعلته معك .

ان الحياة قاسية يا حبيبى ولا أظننا نملك ازاء قسوتها الا أن تختلس المتعة من حاضرننا فنقبل على بعضنا قدر ما نستطيع ونمتع انفسنا قدر مايمكننا ، وأن يثق كل منا بصاحبه دائما .

انى أثق بك برغم انى لا أثق قط برجل فى هذه الدنيا ، كل ما أرجوه منك هو الا تخذلنى أبدا .. أبدا .. ولنحفظ حبنا صامتا فى قلوبنا ، مستعرا فى حنايانا ، دون أن يشعر به أحد ممن حولنا .

المخلصة

.....

★ ★ ★

أجل يا أذى .. وليساعدنا الله .. ولكن علام ؟ على الحب ؟ أو على الخلاص من الحب ؟

أما أنت .. فأغلب ظنى - رغم محاولتك الانكار - أنك قد تخلصت منه .. أما أنا .. فانى أدعوه ليل نهار ، أن يخلصنى منه ، ولكن الله لا يستجيب دعائى .. فان الذهن قد يغفو عن ذكرك لحظة ، ولكنه لا يلبث أن يندفع وراءك يلاحقك ويطاردك ، فيصيب القلب منك ما يشبه الغثيان وتغرق النفس فى ظلمة من الحزن معتمة .. وأكاد لولا بقية من جلد ، ومسكة من الالباء والخجل ، أن أندفع فى البكاء .

لقد قلت فى رسالتك : كل ما أرجوه منك هو ألا تخذلنى أبدا ، .

وأنا أقرأ الان جملتك .. ولا أملك أن أمنع ابتسامة مريرة من أن  
تتخذ طريقها الى شفتى .

أنا أخذك ؟ ! لشد ما ظلمتنى برجائك .

والآن .. أينها العاشقة الولهى .. المحبة الى الأبد .. من منا الذى  
انتثى عن صاحبه وتركه فى منتصف الطريق .. أو على الأصح فى  
منتصف فترة الراحة .. أنا ؟ . أم أنت ؟ .

لقد فعلت بالضبط كل ما حذرتك من فعله ، لقد أنزلت بى من العذاب  
والألم ما لو سلطه على ألد أعدائى لعجز عن انزاله بى .. لقد ارتكبت معى  
جريمة قتل .. معنوى .. روحى .. قلبى .

لقد قذفتنى من حالى .. وأشعرتنى بمنتهى التواضع ، وقد يكون هذا  
بعض ما تستحقين عليه الشكر ، اذ لأبد للانسان من بعض الصدمات التى  
تعيده الى نفسه وتجعله يفيق من غروره .

ولكن أكنيت أنا حقا مغرورا ؟ يعلم الله أنى قلت لك مائة مرة انى  
لا شيء .. ولكنك كنت تأبين الا تأليهى .. واتهامى بالعنصرية والذنب ..  
سامحك الله وعفا عنك .

والآن . ماذا فعلت بى ؟ وما الذى حدا بك الى فعله ؟

كل ما حدث بيننا سوء تفاهم لا يمكن أن يخلو منه عاشقان ولمست  
أظن هناك فائدة من سرد تفاصيله ، ولكن أذكر ان أقصى ما فعلته بك هو  
أنى غضبت عليك لأنك لم تستطعنى لقائى ، ورفضت أن آخذ منك تذكر  
لمشاهدة حفل كنت مستقومين بالتمثيل فيه .

أفعلت أكثر من هذا ؟ .

فماذا فعلت أنت ؟ .

وأنت - هذه - تحتاج الى بعض الضغط والتأكيد .. والشرح  
والتفسير .

أنت .. القائلة : انك ستتبعيننى الى أقصى الأرض .. القائلة بأنك  
 لست مثلى .. أنا المتقلب المتحول .. العاشق لعشرات النساء .. لست مثلى  
 لأنك لم تحبى ، ولن تحبى سوى رجل واحد .. هو أنا .  
 أنت المرتجفة خوفا من أن أنساك .. الغير مصدقة أنى أحبك حقا .  
 انت .. وأنت تعرفين أكثر من كل مخلوق .. ما كنت وما قلت وما  
 كتبت ، وما فعلت .

بعد كل هذا أيتها العاشقة الوفية .. ماذا فعلت بعد أول خصام  
 بيننا ؟ .. لقد كتبت الى رسالة وداع تقولين انك تكرهين أن تنهى ما بيننا ..  
 وأنت مازلت تحبيننى ، وأنت برسالتك تنهين لقاءنا ، ولكنك لا تنهين حبنا  
 وأنت ستظلين تحبيننى بينك وبين نفسك حتى تتحاشين الزلل والخطأ ،  
 وحتى يستريح ضميرك .  
 وكانت كتابك - والحق يقال - قطعة رائعة فى الوداع ولم أملك الا  
 أن أرد عليه بمثله .

ومع ذلك - ورغم أننا أعلننا الوداع بالرسائل - فقد كنت غير مقتنع  
 بأن ما بيننا يمكن أن ينتهى حقا بمثل هذه السهولة .. بمجرد رسالة منى  
 ورسالة منك .. كنت واثقا - لا سيما وقد قلت انك لازلت تحبيننى - ان  
 الحنين العائد والشوق الزائد لاهد معيدان كل منا الى صاحبه .  
 وبعد بضعة أيام حادثتك فى التليفون .. لأطلب منك لقاء قصيرا ..  
 فقد كنت واثقا أن مجرد لقائنا سيذهب كل ما فى نفسنا .

فماذا قلت لى فى التليفون ؟

قلت لى : انك مشغولة .. وانه ليس لديك وقت .. وانك لا تستطيعين  
 لقائى .. ولا الحديث معى .. وأنه كان يجب أن أعرف أن كل ما بيننا قد  
 انتهى .. ثم .. ثم أغلقت السماعة فى وجهى .

وأمسكت بالسماعة برهة ، وأنا انظر اليها فى عجب وذهول .. ثم  
وضعتها فى مقرأها فى صمت كأنى أضع ميتا فى نعشه .

ان الأمر قد يحدث لأى رجل .. ومن أى امرأة .. وحاشاى أن  
أستكبر وأغتر فأقول انى لست أنا الذى تعود من النساء القسرة والهجر  
والخذلان .

ولكن منك انت .. لى أنا .. كان أكثر من أن يحتمل . كان مذهلا ..  
كان قاتلا .

انت .. يارقيقة الحاشية ، يا مرهفة الحس .. ياملتهبة العاطفة ،  
ياذائبة القلب .. يا من تتمنين ألا أخذلك .

ومع ذلك فقد احتملت الصدمة .. ولم أحاول ردها لك .. ولم يكن  
أمامى سوى الاحتمال لأنى مازلت أحبك .

والتقينا بعد ذلك لقاء قصيرا عابرا .. وقلت لك فيه انى ما زلت رغم  
ما حدث أحبك .. فبرزت رأسك وقلت : كأنى لا أفعل ، .

أجل .. لقد قلت انك أيضا ما زلت تحبيننى رغم كل ما حدث .

مكذا كان قولك .. أما فعلك فقد كان يكنبه تكنيبا قاطعا .. لانى  
عندما لقيتك ثانية .. مددت يدى لمصافحتك - لأنى كنت أعقد أننا نستطيع  
على الأقل أن نكون أصدقاء - فلم تمدى يدك .

وأحسست بخجل شديد وقلت لك :

- انها أول مرة أمد يدى فلا تلقى يدا .

- كان لابد أن يحدث ذلك فى يوم ما .

- كنت أود ألا يكون منك أنت !

وأحسست بالخجل فمددت يدك ، وصافحتنى ، ولكن بعد أن  
أحسست أن كبريائى قد تحطمت .

وبعد لحظات انزلت بى الضربة الأخيرة .. والقاضية .. فلقد رأيتك  
تجلسين مع آخر ، وقد بدت عليك أقصى آيات البشاشة والرضا والهناء .  
وفى اليوم التالى تكررت منك اللطمة .. وأحسست ان الأمر بيننا  
قد انتهى فعلا .



وهكذا فقدت كل أمل فيك ، ولم يبق لى من أمل فى غير الله ، لقد  
لجأت اليه بعد طول ذنب وعصيان ، وزال وخطايا ، أسأله أن ينقذنى منك  
ومن نفسى ، وينسبى اياك .

وأنا صبور .. شديد الجلد ، قوى الاحتمال ، ولكن الصدمة كانت  
أقوى من الصبر وأشد من الجلد .. لقد تركتني مروراً منها .

لقد كانت المسألة أشد من أن تكون مجرد فشل فى حب . لقد بدد  
انقلابك من النقيض الى النقيض كل ايمان لى بالحس البشرى والشعور  
الانسانى .. لقد كنت مخطئاً من الأصل فى حبك .. ولكن كان يعزىنى أنى  
مساق بحسى المرفف .. وقلبى الذى لا يهدأ .. وكنت أرى فيك صورة  
لنفسى .. فلما خذلتني جعلتني أشعر كالفريب الضال وأحس أنى بين الناس  
شاذ فى مشاعرى وفى حسى .

وحاولت جهدى أن أخفى صدمتى - وأن أبداً بين الصحاب كما  
أنا - ولكن صاحبى أدرك ما بى فقال ناصحاً مؤنباً :

- انت السبب فى كل ما حدث .

- كيف ؟

- لم تعرف كيف تعاملها .

وماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟

- انى أذكر اقصوصة عربية قد تعطيك درسا مفيدا . زعموا أن  
أعرابيا سأل عنتره بين شداد عن سر شجاعته فقال له : ضع أصبعك فى  
فمى وسأصبع أصبعى فى فمك . ففعل الأعرابى ، فقال له عنتره : فليعض  
كل من الآخر ، وبدأ كلاهما فى العض فصرخ الإعرابى من الألم ولم  
ينبس عنتره ببنت شفة .. وترك أصبع الأعرابى قائلا : هذا هو سر  
شجاعتى .. أن المى يعادل ألمك ان لم يكن أشد ، ولو لم تصرخ أنت  
لصرخت أنا ، ولكنى استطعت أن احتمل حتى صرخت أنت فبدوت أنا  
أكثر شجاعة .

وصمت صاحبى برهة ثم أردف :

- وهكذا كان يجب عليك أن تفعل .. انها تعض على أصبعك فعض  
على اصبعها واياك أن تصرخ حتى تصرخ هى وتسألك العفو واللقاء .

وهزرت رأسى ، أن صاحبى لا يفهمنى ، وشرما فى الأمر أنه ليس  
هناك مخلوق يمكن أن يفهمنى .. الا مخلوق واحد .. هو أنت .

أبعد هذا سخرية ؟ أنت وحدك التى كان يمكن أن أشكو اليك نفسك  
فتفهميننى وتقدرين أساى وحزنى .

ولقائى صاحبى بعد هذا فسألنى :

- كيف حال أصبعك ؟

فأجبته ضاحكا :

- الألم يشتد به يوما بعد يوم .

- اصبر واستمر فى العض .

ولكنى لم أحاول أن أعض لأنى أكره - بعد كل ما فعلت - ايلامك ولم  
يكن أسهل على من أن أحاول عضك ، وأن أكيل لك بنفس الكيل وأنت تعرفين  
أن الصديقات اللاتى يحاولن أغاظتك فاجتذابى اليهن كثيرات .. وتعرفين أكثر



من هذا مدى ايلامك عندما ترين صاحبا لك معه فتاة أخرى ، فما بالك بصاحب .. تحبينه أو كنت تحبينه ؟

لم أحاول ايذاك .. وصممت على أن أحتمل الأمر ، وأصبر على الصدمة وأن أنساك .

وعندما سألتني صاحبي آخر مرة عندما أنزلت بي ضربتك القاضية :

- كيف حال أصبعك ؟

- قلت له :

لقد قطعته .

ولم يكن فى الواقع أصبعى ، بل كان قلبى .

انى أحس به يرمى وينزف .

ولكن لا بد لنزيفه من نهاية .

'أيتها الدمية .. سامحك الله .

انى أحبك حتى الآن .. حتى بعد ان وضعتك فى مصاف الدمى .

ولكن الى متى يدوم حب الدمى ؟

★ ★ ★

ووضع الكاتب قلمه وجمع الأوراق فطواها . وهم بالضغط على زو الجرس ليستدعى الحاجب حتى يعطى له القصة لتسليمها الى المطبعة .. فى الوقت الذى دفع الحاجب الباب ويده بضعة خطابات ووضعها على المكتب .

ومد الكاتب يده بالأوراق لتسليمها للحاجب عندما لمح خطها المكتوب على أحد الظروف فجذبه بحركة عصبية مفاجئة .. وأعاد الأوراق الى مكتبه ثم أمر الحاجب بالخروج والانتظار .

وفض الكاتب الخطاب بسرعة وأخذ فى القراءة ..

★ ★ ★

وأتذكر القصة التى كتبتها لك عن حبنا ٢ ، التى جعلت فيها البطلة .  
التى هى أنا - - تموت فى نهايتها بداء المصدر .. أتذكر رأيك فيها وقتذاك ،  
عندما قلت لى ، انك تحبين حبك وتفرعين أن تربه الى نهاية ، ولذا فضلت  
أن تضعى حدا لحياتك حتى لا ترين نهاية حبك .

انى الآن فى مثل هذا الموقف ، أرى نهاية حبنى ، ولكن لا أستطيع  
أن أضع لحياتى نهاية .. ان القدر يأبى على تلك النهاية التى منحناها لبطلة  
القصة .. فقد جعلنى سليمة معافاة أرقب نبول حبنى ، ولا أستطيع أن  
أغمض عيني حتى لا أراه .

ان أمامى الآن .. قصتك ، دمية ، .. أقلبها بين يدي وأقلب نظرى  
بين سطورها .

كم أحس بالألم والمرارة ، وأنا أراى قد زججت بنفسى بمنتهى  
الحق فى موقف بطلتها .

كم أحس بالانهيار وأنه أجد نفسى قد بت لديك مجرد دمية .  
كنت بلهاء حمقاء حينما حاولت أن أنتهز فرصة خصامنا لأنهى  
حبنا .. أجل .. لقد ظننت فى ساعة غضب عليك انى أستطيع التخلص منه  
وصممت على انهائه .. فقد كنت أعرف مبلغ ثقله عليك وعلى مبلغ  
خطيئتنا به وخشيئتنا منه .

وتكرت ما قلت لى من أنه لن ينزعنى من قلبك وينسبك أبلى الا  
أن أبديك بالهجر ، وأنكص فى حبك وأستبدل بك آخر .

وصممت على أن أبدأ التجربة .. تجربة انقاذك من حبنى .. وانقاذى  
من حبك ، وأخذت فى صدك وهجرى وأستبدلت بك آخر .. تماما كما قلت  
لى .

ويبدو لي أن الظروف كانت قد تأمرت على .. فقد تقدم الى أحدهم  
وقدذاك لخطبتي ، ولم يكن هناك غبار عليه .. بل كان في عرف أهلي  
يعتبر « لقطة » .

وقد وجدت فيه أنا من وجهة نظري خير « لقطة » تعاونني على تنفيذ  
خطتي ، وعلى وضع حد حاسم لما بيننا .. لاسيما وأني كنت أخشى أن  
أضعف أمامك ، فأنكص على عقبي .. وأعاود الانغماس في حبك بطريقة  
أشد عنفا وأكثر قوة .

ولم أحاول قط أن أفكر في ذلك الخطيب .. أو انظر اليه بعين  
فاحصة .. اذ كان لدى مجرد وسيلة للخلاص .

وبين عشية ونحاما اضحييت زوجة .. واعتبرت، اني قد انتهيت  
منك تماما .

ومع ذلك ..

أجل .. ومع ذلك .. لم أكد أفيق من غمرة الزواج واجراءاته ..  
حتى وجدت نفسي أشبه بالمجنونة .

أشبهه ؟ اني مجنونة فعلا !

ما هذا الذي فعلته ؟ ..

لقد دمرت حياتي بعملين أحمقين :

أولهما .. انني احببتك .. ولكن عذري في هذا : اني لم أكن مجبرة  
فيه بل مدفوعة اليه على الرغم مني .. اما الثاني ، الأشد حمقا ، والذي  
فعلته بمحض ارادتي ، فهو أنني هجرتك وأذيتك وحطمت كبرياءك ..  
وفعلت بك شر ما يمكنني فعله ، ثم تزوجت بعد كل هذا بمنتهى البساطة .

أهذه هي محاولتي لانتقاد نفسي ؟ ..

يا للحمق ويا للجنون ؟

انى أعرف انى قد فقدتك تماما .. وهذا هو ما يجعلنى أكاد اجن ..  
ويزداد جنونى عندما أقارنك بهذا المخلوق التافه الذى تزوجته .. وعندما  
أذكر السعادة العميقة التى كنت تمنحنيها بمجرد لمسة يدك .

انى لا أطيقه .. ولا أطيق رؤيته أو القرب منه .

لو تركت لنفسى لفررت عائدة اليك ضاربة بكل شيء عرض  
الحائط .. ولكنى أعرف أنى فقدت قيمتى لديك وأعرف انك حتى لو حاولت  
التظاهر بحبى .. فلن يكون ذلك أكثر من وفاء منك ورفق بى .. أما حبك  
المتأجج المستعر فانى موقنة تماما انى قد فقدته - بعد كل ما فعلت - الى  
الأبد .

ما قيمة حياتى ؟ .. وأنا أرى نفسى ميته لديك ؟ .. لقد كنت أحب  
الحياة من أجلك فماذا يغرنى بها أن فقدتك ؟ أليس الموت متغذلى ؟ .  
أليس خير ما ينعم به القدر على هو خاتمة كخاتمة بطلة قصتى ؟ .

ولكنى القدر ضنين حتى بالموت عندما نريده .

أجل .. انى أريد الموت .. لانى أعرف أنه سيحيينى لديك .. انى  
واثقة أنى لن أستعيد مكانتى فى نفسك الا بعد الرحيل .

انى أفضل أن أكون حية فى قلبك ، ميتة أمام الناس .. من أن أكون  
ميتة فى قلبك ، حية أمام الناس !

كل ما أرجوه منك هو الا تخذلنى .. بعد موتى .. وأن تجعل لحياتى  
المفقودة ثمنا .. هو حبك .

أحبينى يا حبيبى كما أحببتنى دائما .. حبا جارفا فياضا متأججا  
مستعرا .

انى ما زلت أثق بك .

وأرجوك أن تثق بى .

ثق أنى - كما قلت لك -- لا أملك الا أن أحب رجلا واحد .. وهذا  
الرجل .. هو أنت .

وأرجو - بعد ما قلت لك - ألا تصنعنى بعد موتى فى مصاف  
الدمى .. لأن الدمى لا تموت .

، وخير لى أن أكون حبيبة راحلة .. من أن أكون دمية باقية ،  
المخلصة  
، ..... ،

★ ★ ★

ولأول مرة يذوب جامد دمه .. فتساقط عبرتان على الرسالة ويدق  
الجرس ، ثم يطوى الرسالة مع القصة ويسلمها للحاجب وهو يقول فى شبه  
همس :

-- هاكم دمية أخرى .

★ ★ ★



# خَطِيئَةُ امِّ

فُرت أُمِّي .. فخلفت لنا فجيرة ما بعدها  
فجيرة .. ولم تكن فجيعتنا بفرارها ناتجة  
عن احساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هي  
بذات أثر في الدار فنحس بأثر لغيبها .. بل  
كانت فجيعتنا هي فجيرة عار وفضيحة ..

خطايا النساء ثلاثة :

خطيئة امرأة بلا زوج وبلا أطفال ..

وخطيئة امرأة ذات زوج ..

وخطيئة امرأة ذات زوج وأم أطفال ..

ولو جمعت كل خطايا الأرض لما ساوت خطيئة الثالثة ..

ان لم تصدقوني فاقروا هذه القصة .

هي قصة نفس مرهقة معذبة ، ألقت عليها الحياة عبء غيرها ..

فأنقلت به كاهلها .. وأنقضت به ظهرها .. نفس مرهقة حساسة .. طوت

بين الضلوع مرارة احزائها .. وجمرت أسماها ، حتى كاد يحرق صدرها  
ويتركها هشيمًا ورمادا .

حدثتني صاحبة القصة فقالت :

- أمى .. يا سيدى هى علة الشقاء .. ومنبع الداء .

أمى التى كان يجب أن تكون عونى فى الحياة .. كانت عونًا لها  
على ..

أمى التى كان يجب أن تبعد عنى الشقاء وتقينى الشر .. وتجنبنى  
الهموم .. لم يكن لى فى الحياة هم سواها .. كانت شقائى .. وكانت علتى .  
أى انسان لم يجد بين أحضان أمه ملجأه ؟ .. وعلى صدرها راحته ؟  
لقد كنت أعتبر نفسى يتيمة بلا أم .. وكنت أعدها فى عداد الأموات ..  
ولكن حتى هذا اليتيم لم ينعم به الله على .. فقد كنت أدرك فى قرارة نفسى  
أنها ما زالت حية تسعى .. وأنا - بعد طول فرقة - قد نلتقى فى أية  
لحظة .

لا تقل أن فى نفسى غلظة وقسوة .. ولا تقل عاقبة جاحدة .. ملأت  
نفسها المرارة فهى تفيض بها على ما حولها .. لا .. ولا تقل لى ان ، الجنة  
تحت أقدام الأمهات ، .. فما خلفت لى أمى سوى جحيم يستعر لهبها ،  
وتتأجج نارها .

فارقتنى وأنا فى الثامنة .. فارقتنى فلم أستشعر لفرقتها كثير  
لوعة .. وغابت عن الدار .. فما خلف غيابها فراغًا يحس به ، اذ كانت  
لا يستقر لها فى الدار قرار .. كانت أبداً فى انطلاق دائم .. لا تأوى الى  
الدار إلا للنوم والأكل والتزين .

دعنى أعرض لك صورة لما كنت أراه وقتذاك بعينى وأنا طفلة منذ  
أكثر من عشرين عاما .. أم وأب فى عراك دائم وتطاحن مستمر .. لست



أدري أيهما المخطيء ، أو أيهما المصيب .. ولا أيهما المعتدى أو أيهما صاحب الحق ، ولكن كل ما أعرفه أنى كنت أنجو بنفسى من تلك المعارك ، والوذ بأحضان - الحاجة - الخادمة العجوز ، فأدفن رأسى فى صدرها حتى تأخذنى سنة من النوم .

انى لأذكرها تماما ، بالرغم من تلك السنين الطوال التى طواها الزمن . أذكرها ، كامرأة غريبة لا كأم ، فما اذاقنتى طعم الأمومة قط .. فقد نصبت فى نفسها معين من الحنان .. أو قل انها لم تجد من وقتها فراغا تستطيع أن تشعرنى فيه أنها أُمى .. لا أظنها كانت قاسية .. ولكن كل ما فى الأمر أن فرط تعلقها بذات نفسها كان يستغرق كل وقتها . ويمتنع كل جهدها . فهى لا ترى سوى نفسها .. ولا تعنى الا بنفسها ولا تمتع الا نفسها .

لا أظننى كنت وقتذاك أستطيع فهمها كما أفهمها .. فما كنت أحاول ان افهم شيئا .. وما كنت أعرف أن هناك شيئا اسمه الأنانية .. وأن هناك شيئا اسمه الشر .. ولكن كل ما كنت أعرفه ، هو أن - الحاجة - كانت أقرب الى منها .. وكانت أكثر حنانا ، وأشد حبا .

كانت أُمى امرأة جميلة .. من النوع الذى لا تخلف فيه السنين أثرا .. فما كانت تبدو أما حتى ولا زوجة .. بل فتاة مرحة لاهية ، لا تهزل فى جسدها ، ولا تهزل فى صدرها ، بل تمالك واستواء .. ونضج وامتلأ .. ولقد قالوا لى انها لم ترضعنى خوفا على ثدييها من التلف .. واللّه أعلم ما فى قولهم من الصدق .. وان كنت أنا لا أستبعد .

ويخيل الى أنى قد ورثت عنها الكثير من ملامحها .. فلقد كانت - الحاجة - كثيرا ما تتبننى بأننى شديدة الشبه بها ، وكما أقض قولها هذا مضجعى .

كنت لا أراها فى الدار الا منهمكة فى تصفيف شعرها .. أو فى

وضع المعاجين والمساحيق على وجهها .. أو فى تزجيج حواجبها بملقاط بين أصابعها .. أو فى إزالة الشعر عن ساقها وعن جسدها .. أو فى طلاء أظافر يديها وقدميها .. حلقة مفرغة لا تنتهى منها أبدا .. تستغرق منها كل وقتها ، أو كل هنيئاتها التى تقضيها فى الدار أثناء البقطة .

وكننت أحس بأنها كانت تفعل أشياء .. لم أكن أعرف بالضبط ما هى .. وان كنت أدرك باحساس هاجس .. انها أشياء غير مشرفة .. أشياء مما لا يصح عملها الا فى الخفاء .. ويخيل الى أن - الحاجة - كانت تعرف تلك الأشياء وتكرهها .. وتكره أسمى من أجلها .. وتحترقها بيننا وبين نفسها وتزديرها وان كنت بالرغم من ذلك تحاول التستر عليها .

كان يخيل الى فى بعض الليالى .. ان هناك زائرا يزورنا فى الليل خلصة ، وينصرف قبلما يحضر أبى ، وكننت أوى الى فراشى مع - الحاجة - فأسألها عن بطرق الباب فتنبئنى بأنه بائع اللبن . أو الكواء .. وتطلب منى أن أنام .. ولكن كنت لا أنام ، بل أرهف السمع ، فيدهشنى أن الكواء كأنه قد تسلل الى داخل البيت ، ومكث فيه .. ثم يهاجمهى النوم ، فأروح فى سبات عميق ، لا أدري بعده ماذا يفعل الله بالكواء ، أو ببائع اللبن ؟

هل كانت أسمى تخدع أبى وتفعل ما يحلو لها من ورائه ؟ هل كان أبى يعرف ؟ ..

من كان أبى ؟ .

أبى - الذى أعرف أنه أبى - كان مدرسا .. ثم ناظر مدرسة .. كان رجلا من رجال العلم والتربية .

أتري رجال العلم والتربية كلهم كأبى ؟ اتراهم دائما عابسين متجهمين .. لا يستطيعون أن ينسوا لحظة أنهم مدرسون ونظار ؟ اتراهم لا يرون فى كل من حولهم الا تلاميذ ؟ . وعليهم أن يؤدوا لهم كل واجبات

التبجيل والاحترام ؟ أنراهم يعتبرون أن كرامتهم لا تحفظ الا بالتبجيل ؟  
وأن هيبته لا تصان الا بالتزمت والتكشير ؟

اقسم لك بأنى ما رأيت أبى يضحك قط . ولم أكن أكرمه .. ولكنى  
كنت أتمنى أن يكون خيرا من ذلك .. كنت فى حاجة الى من يدللى  
ويعطف على .. فلا أظن من السهل على طفلة أن تجد اهتماما من  
الناحيتين .. الأم والأب . فالمعتاد هو أن يعوضها أحدهما بحنانة عن  
الآخر .

فإذا كان الأب جادا عبوسا ، كانت الأم حنوننا رقيقة ، وإذا كانت الأم  
لاهية عابثة .. كان الأب ليانا عطوفا .. أما أن تكون الأم مشغولة بصقل  
جسدها ، وتزجيج حواجبها والمحافظة على بروز صدرها .. وأن يكون  
الأب منهمكا فى احاطة نفسه بهالة من الاحترام والمحافظة على هيبته  
وكرامته . فذلك ما لا يحتمل .

وهكذا مرت بى الطفولة وأنا مهملة منسية .. حتى كان ذات يوم ..  
وكانت الكارثة .. ووقعت الواقعة .. ففرت أُمى مع عشيقها .. زائر الليل  
الذى أفهمت أنه بائع اللبن تارة ، والكواء تارة أخرى .

فرت أُمى .. فخلفت لنا فجيرة ما بعدها فجيرة .. ولم تكن فجيعتنا  
بفرارها ناتجة عن احساسنا بألم الفقرة .. فما كانت هى بذات أثر فى الدار  
فنحس بأثر لغيبتها .. أو نشعر فراغا لافتقادها .. بل كانت فجيعتنا هى  
فجيرة عار وفضيحة .

تصور يا سيدى .. أبى .. الرجل الجاد العبوس .. القويم الخلق ..  
الذى يحلق بنفسه فى برج عاجى من الهيبة والكرامة .. والذى لا يهمله  
شئ فى الحياة قدر ان يحترمه الناس .. تصور هذا الرجل .. وقد فرت  
زوجته مع عشيق لها .. وتركته وراءها لقمة سائغة تلو كها الألسن ..  
وتمصنغها الأفواه .

لقد كان وقع المصائب عليه أشد من أن يوصف .. وأصاب منه  
موطننا حساسا .. فأضنى نفسه وأذى قلبه .. لقد هدد كيانه وحطمه  
تحطيا .. فبدا عليه الهزال والكبر كأنما هو قد زاد عمره فجأة عشرات  
السنين .

هكذا كان وقع المصائب بالنسبة إليه .. أما بالنسبة الى ، فماذا أقول

لك ؟

حقيقة أنى كنت طفلة فى الثامنة .. وأنى لم أكن على شىء من  
الوعى الذى يتيح لى ان أحس بمرارة الفضيحة .. ولكنها مع ذلك  
أوجعتنى .. وكان أوجع ما فيها أن مر الزمن - الذى يحمل فى طيه بلمس  
النسيان - لم يحمل لى فى طيه نسيانا قط .. بل كان كلما أمعن فى  
المرور ، وكلما ازدادت وعيا وازددت فهما .. تزايدنى . الاحساس  
بالفضيحة .. وتمادى تأثيره على حياتى .

كان أول تأثير لها على .. هو تلك النظرات العجيبة .. التى أضنى  
بوجهها الى أبى .. نظرات الريبة والشك والحيرة والقلق .

هل كان يشك فى انى لست أبنته ؟ جائز جدا ؟ وماذا يمنعه من هذا

الشك ؟

زقد كانت أمى ، هى أمى .. الخائنة الخادعة التى لوشت شرفه  
وطعنته فى كرامته .. من يدري أنى لست أبنته وهو لا يعرف متى بدأت  
أمى خديعتها له .. ومتى بدأت تلقى بنفسها فى بؤرة الفجور ؟ . ماذا يمنعه  
من الشك .. وأنا - لسوء حظى - لا أكاد أحمل منه لمحة شبه .. فهو  
لا يجد فى الا صورة مصغرة منها ؟

لقد ملأه المصائب نفورا منى وتباعدا عنى ، وكان يخيلى الى أنه لا  
يرى فى سوى أثر الخطيئة .. أو على الأقل مصدرا لشكوك تساوره ..  
وربية تملأ قلبه .. ولقد كان معذورا .. فلولاى لاضمحلت ذكراها فى

رأسه .. ولا استطاع أن ينسى .. ولكن وجودى أمامه وشدة شبهى بها ..  
كانا يتكأن قرحة ويدعيان جرحه .. ان صدرا واحدا هو الذى استمر  
يؤوينى ، ويفيض على بحنانه .. هو صدر - الحاجة - العجوز التى  
أخذت تعيننى وتشد أزرى .

وانتقلنا من مسكننا الى مسكن آخر مبتعدين عن جيراننا الذين  
عرفونا وعرفوا فضيحتنا .. ولتستبدل بهم آخرين لا يعرفونا ولا  
يمضغوننا بأفواههم .. آخرين نستطيع ان نخفى عليهم أمرنا .. واستبدلت  
مدرستى بأخرى .. فقد كنت أحس بأنى لا أستطيع رفع رأسى بين  
صاحباتى القديمات ، وكنت أنأى بنفسى عنهن وأجلس وحيدة فما أكلم  
واحدة منهن .. وما أن واحدة عرضت فكلمتنى .. ملأ نفسى احساس  
بالذل .. وشعور بالهوان .. تماما كأنى أنا التى ارتكبت وزر أمى .

وبدأنا الحياة فى مسكننا الجديد .. وذهبت الى مدرستى الجديدة بعد  
أن امرنى أبى بأن أقول للناس اذا ما سألوك عن أمى : انها ماتت ، ولم  
أحس من قراره بضيق ولا بغضاضة فقد كان هذا خير ما يمكن أن يقال .

ومرت الأيام .. وعلم كل من تعرفت بهن من صديقاتى الصغيرات  
ان أمى مينة ، وبدأت أحس بالكثير من الراحة والاطمئنان .. وان كان  
ينتابنى خوف بين أونة وأخرى من أن أمى ما زالت على قيد الحياة وأنها  
قد تظهر مرة ثانية فى أفق حياتنا فتجدد فضيحتنا وتعيد تلويثنا .

وذات يوم حدثت فى المدرسة حادثة نأفة .. ومع ذلك فقد نكأت  
جرحى وسببت لى ألما شديدا .

كنت وقتئذ فى الرابعة عشرة .. وكانت المدرسة على أهبة أن تقوم  
بحفلتها السنوية .. وكنت سأشارك فى تمثيل احدى للروايات التى كنا  
منقوم بتمثيلها فى الحفلة .

وبدأت المدربة بتوزيع الأدوار .. ووقفت بين صاحباتى منتظرة

نورى ورأيت السيدة ترفع أصبعها وتشير الى ثم نقول ببساطة : متقومين  
أنت بتمثيل دور الزوجة الخائنة .

وأحسست بأن الدماء قد تصعدت الى وجهى .. وأن رأسى من فرط  
الحرارة التى تعمل فيه على وشك الالتهاب .. وأحسست بنفخة فى حلقى  
وبغشابة على بصرى ، وصمت لحظة ثم انطلقت صائحة فى غضب  
جنونى دون أن أدري ما أنا قائلة : « أنا لست خائنة » .

وبهنت السيدة للوهلة الأولى .. وبهنت الفتيات من حولى ، ومضت  
لحظة قصيرة ساد فيها السكون وعم الدهش وكانت لحظة قصيرة جدا ..  
تعالىن أنفسهن بعدها .. ثم استغرقن فى الضحك ، وأخذن يتندرن بى  
ساخرات قائلات : « هذه هى الزوجة الخائنة » .

وعصفت بى نوبة من البكاء لم استطع مقاومتها ، وأمرت المدربة  
الفتيات بأن يكلمن عن مزاحهن .. وأفهمتنى أنها واثقة من أننى خير  
الفتيات .. وأن هذا مجرد تمثيل .. وأنها ستعطى الدور لقناة أخرى .. ما  
دام هذا يؤلمنى .

عدت الى أثبيت وبنفسي انهيار تام ورغبة فى البكاء .. وارتعيت  
فى أحضان - الحاجة - باكبة ، وأنبأتها بما حدث ، فضممتنى إليها ،  
وأحسست لأول مرة بدموعها الساخنة تنساب على صفحة وجهى .. وقالت  
بصوت ملؤه الرقة والعطف :

- يا حبيبتى .. انت سيدة الناس .. وستزوجين من سيد الناس .

وهمست أجيها فى صوت مرير :

ابنة الخائنة .. لا تلتقى بسيد الناس أبدا .

- ومع ذلك فقد التقيت به .. سيد الناس بلا جدال .. وأحسنتهم خلقا  
وخلقاً .. فتى يقطن الدار المجاور .. هادى الطبع ، جم الأدب .. وكان

طالباً في كلية الطب .. ولم أكن أحس بوجوده بالرغم من تقارب دارينا .. حتى كان ذات يوم أصيب أبي بنوبة أعماه .. وأصابنا جزع شديد .. وخرجت .. الحاجة - فزعة مرتاعة .. تستغيث بأقرب مخلوق ، فصادفها الفنى خارجاً من داره وسألها عما بها فأنبأته ، ودف معاً الى الداخل .. ففحص أبي وقام بأسعافه .. ثم خرج لاحتضار أحد الأطباء .

و عاد مع الطبيب الذي أنبأنا بأن أبي قد أصيب بشلل وأشار ببعض أدوية .

ومنذ ذاك اليوم بدأت أحس بتغيير كبير طرأ على حياتي ، وكان منشأ ذلك التغيير .. أمرين : أبي .. وصاحبى .

أما عن أبى فقد بدأ يتحول رجلاً آخر .. وبدأت أحس لأول مرة في حياتى ، بعطفه وحنانه . لست أدري أكان ذلك صدى لما أبديته من جزع عليه وتقان في خدمته ، أم أحساساً بأنه قد ظلمنى بطول اماله وتباعده وشكه وريبته ؟ على اية حال لقد أحسست أنني أحبه ، وأنه مخلوق طيب .. وأن أمى هى المسئولة عن كل ما به .. وأنها كانت تستطيع أن تجعل منه انساناً بشوشاً مرحاً ، لو كانت امرأة طيبة عاقلة .

أما عن صاحبى .. فقد ألقى على حياتى شعاعاً بدد ظلماتها وجعلنى أحس بأن الحياة جميلة باسمه .. وشغلنى التفكير فيه عن التفكير فيما عداه .. ولأول مرة في حياتى بدأت أحس بلذة التفكير .. ولو قال لى انسان قبل ذلك ان للتفكير لذة لقلت عنه انه مجنون .. ما كان أمتع التفكير وقتذاك .. وما كان أعجب تلك اللذة التى أنسجها من خيوط الفكر والخيال . وما كان أقدرنى على ان أمتع نفسى بنفسى ! كان يكفى لى أغمر نفسى بالسعادة وأحيطها بالنعيم .. ان اتذكره . ان أتذكر تقاطيع وجهه .. وبسماته وضحكاته ، وحركاته وأفاته .. كيف ينظر الى ؟ ماذا قال لى ؟ أتذكر كل كلمة وأتصور كل نظرة .. ما كانت أرخص السعادة

وقئذاك ! وما كان أسهل الحصول عليها ! لقد كانت تأتي من نبع دافق ، ومورد فياض .

ومرت الأيام وعلاقئنا بجيراننا تتوطن يوماً بعد يوم .. ونشأت بين أبويننا صداقة توثقت مع الأيام عراها ، وذهبت لزيارة أمه .. فإذا هي سيدة كاملة .. نموذج لزوجة وأم .. بل نموذج لما يجب أن تكون عليه كل امرأة في رقتها وطبيعتها .. وحلاوة لسانها .. وملاوة جديتها .. لا تبغض احداً ولا تنهش عرض احد .. تحب الناس جميعاً ، وتمدحهم جميعاً .. لا تنكر الا حسناتهم ، اما الهنات فلا تراها .

التقيت بصاحبى ذات مرة وجلسنا نتحدث .. فأخذت امتدح له أمه .. وبدأ عليه الاعتباط لمديحى اياها وقال لى :

- ان مديحك لها ليس الا ترديدا لمديحها لك .. فانها معجبة بك أشد الاعجاب .. وكـم سرنى أن تتحابا بمثل هذه السرعة .

وصمت لحظة ثم أردف بلهجة يشوبها الأسى :

- هل لك أن تعتبرها أما لك ؟ كم وددت لو رأيت أمك . فلا شك فى أنها انسانة فاضلة .. حدثينى عنها .. كيف كانت .

وأحسست بقلبي يذق بعنف وانتابنى شعور غريب .. وحاولت جهدى أن أتمالك وأتماسك ، واستطعت أن أجيبه فى النهاية قائلة :

- لقد ماتت وأنا طفلة . انى لا أذكر عنها الشئ الكثير .

- وافترقنا بعد ذلك .. وانتابنى شعور بالخوف والقلق .

لقد كان يسهل على أن أكذب عن كل الناس وأن أقول لهم ان أمى ميتة ، وأن ألقى عليهم بما أشاء من الأكاذيب .. أما عليه هو فقد كان ذلك أمراً شاقاً عسيراً ، لأنه - بالنسبة الى - ليس ككل انسان .. فلو تحققت



أحلامي العذبة وأمانى الحلوة ، ولو منحني الله ما أتوق اليه .. فارتبطت  
حياتي بحياته وأضحيت زوجة له لا يفارق أحدهما الآخر حتى نهاية العمر ..  
لوتحقق أملى هذا .. فلا شك في أن الأكذوبة ستضحي أمرا خطيرا .. من  
الصعب الاستمرار عليها .. فقد تكتشفها الظروف يوما ما .. فيعرف أنني  
ابنة غادرة خائنة فرت من زوجها ومن بيتها .. وأناى قد كذبت عليه  
وخدعته .. ماذا يكون موقفى وقتذاك ؟ اليس من الأفضل لى أن أحسم  
الأمر من البداية .. فاما أن أنأى بنفسى عنه .. واما أن أكون شجاعة  
فأخبره بالحقيفة .

وجلسنت الى - الحاجة - فى تلك الليلة .. وقد تملكنتى لوعة  
وأسى .. وأخذت تحسس برفق على رأسى وتحدثنى حديثا لم أك أعى منه  
شيئا ، فقد كان بى شroud شديد . وأخيرا سألتها فجأة :

- يا حاجة !

- نعم يا حبيبتى .

- هل يحق لى أن أحب ، وأن أتزوج كبقية الفتيات ؟

ونظرت الى فى شىء من الدهش وهى تحاول ان تنفذ ببصرها الى  
رأسى لتستطلع ما وراء قولى ثم أجابت بعد هنيهة :

- اذا كان شخصا جديرا بحبك ويستحق ان يكون اهلا لك . فلا شك  
فى أن لك الحق فى حبه وفى زواجه .

- انه جدير بحبى ويأكثر من ذلك ، لو كنت أملك شيئا أكثر من  
الحب .. وهو أهل .. لا لأن يكون زوجى ، بل ولأن يكون سيذا لى ..  
ولكن المسألة فى أنا .. هل أنا جديرة به ؟ . وهل أنا أهل لأن أكون  
زوجته ؟

ورفعت حاجبىها فى دهش وتساءلت :

ولم لا ؟

ونظرت اليها نظرة طويلة فاحصة .. وأجبتها وفي صوتى بكاء  
حبيس :

- وأمى ؟

وصدمها قولى ، وسرت فى جسدها منه رجفة ، ولكنها سألتنى فى  
شئ من الاستنكار :

- ما لأمك ؟

- أأقول له عنها ؟

- تقولين ماذا ؟

- أقول الحقيقة .

أية حقيقة ؟ لقد ماتت أمك منذ زمن طويل .. هل هناك حقيقة غير  
هذه ؟

واندفعت فى نوبة بكاء ، وأخذ جسدى يهتز اهتزازا عنيفا بين  
ذراعيها .. وهى تربت على ظهري وتحاول تهدئنى .

حتى هى تأبى على الا أن استمر فى الخدعة ، لقد أقنعنا انفسنا جميعا  
بأنها قد ماتت حقا .

وأحسست بشئ من الراحة ، واستقر رأبى على الا أصارحه  
بشئ .

وبعد بضعة أيام تناسيت حزنى .. وعدت أنغمر فى متعة حبه ..  
لا أبصر أمامى سواه ، ولا أذكر غيره ، وكان ذلك كفيلا بأن يمحو من  
حياتى كل سيئة ويبيد كل شقاء .

وعدت الأيام سريعة .. كلمح البصر .. وهكذا الأيام دائما أسرع من البرق فى السراء ، وأبطأ من السلخاة فى الضراء .. فمرت سنتان كأنهما يومان أو لحظتان .. وتخرج هو أخيرا فى كليته فأضحى طبيبا .. وتقدم لخطبتى فى اليوم الذى تخرج فيه فزف الى بشرى نجاحه وبشرى خطبتنا .

وأخيرا تحقق أملى فى الحياة .. وأضحى أحلامى حقائق ملموسة محسوسة .

فضمنى وإياه بيت واحد كأنه وكر عصفورين فى ربيع الحياة . لا نرى من حولنا الا خضرة ونضرة .. وتغريدا وتغريما .

جرفنى سيل السعادة .. وأبعد عنى كل ما كان يشوب حياتى من أوهام سود وتخيلات مزعجة .. وأبعد عنى شبح أُمى وتكرها ونسيتها تماما .. اللهم الا فى ليال متباعدة كنت أصحو من نومى مذعورة خائفة على أثر حلم أرانى فيه قد لقيتها ومعى زوجى وأنها كانت فى حالة متهتكة مبتذلة ، وأنها أقبلت على تحتضنى وتنبئ زوجى أنها أُمى .. وبأن زوجى تركنى وأياها وفر هاربا .

ومرة أخرى أراها قد أقبلت على فى دارى ، وخلفها ثلة من الفاجرات العاهرات وأنهن قد أحتلن البيت وأبين أن يغادرنه .

وأنزعج عقب الحلم يوما أو بعض يوم ثم انساه وانساها .

ومرت السنون بعد ذلك .. وأنا سعيدة هائلة .. لا تشوب حياتى شائبة .. ولا يعكر صفوها كدر .. ومات أبى فبكيت ، ولحقت به - الحاجة - بعد فترة قصيرة فحزنت عليها .. ولكن الأيام كفكت بكائى وأضاعت حزنى ، وأسدت منتر النسيان الواحدة بعد الآخر ، فحجبهم ضمن ما حجب من الماضى البائد .

وفجأة .. ودون سابق انذار رأيتها .. من ؟ أُمى ! اجل أُمى !

ولو أننى يا سيدى رأيت الحاجة بعثت من قبرها .. أو رأيت أبى  
قد سار فى الطريق ملتحفا بأكفانه .. لما أصابنى من الذعر .. ما أصابنى  
عندما رأيت أمى .. التى كنت أزعم للناس ولزوجى أنها قد ماتت .

ورأيتها .. أين ؟ فى الطريق العام الذى لا يبعد كثيرا عن داربا ..  
والذى يطرقه زوجى كل يوم فى ذهابه وإيابه .

وشر من ذلك .. لقد كان بالرغم مما خط رأسها من شيب ، وما قد  
علا وجهها من تفضن ، هى هى .. أو على الأصح .. هى أنا .. ! أجل  
يا سيدى لشد ما كان الشبه بيننا عجيبا صارخا .. فلو أننى وضعت فى  
رأسى بعض الشعيرات البيضاء ورسمت فى وجهى بعض الغضون  
والثنيات لما استطاع أحد أن يميز بيننا .

وهذا يا سيدى هو ماروعنى وأفزعنى .. أى انسان يراها ولا يجزم  
أنها أمى ؟ اللهم الا العمى الذين لا يبصرون ، والذين لم يكن زوجى  
أحدهم ! .

ولم أشك فى أنها كانت فى رحلة بعيدة وأنها قد عادت أخيرا ..  
وخيل الى أنها ستحاول البحث عنى ! .

ولست أدري ان كانت لمحتلى أم لم تلمحنى .. ولا اذا كانت عرفتني  
أم لم تعرفنى .. ولكن الذى أدريه هو أننى انطلقت فى طريقى كأننى جرد  
فزع .. وأسرعت الخطى مهولة مرتاعة كأن هناك من يطارئنى ، حتى  
وصلت الى البيت لاهثة الأنفاس .

وصمتت فى نفسى على أن أكون حاسمة فى أمرى والا أطيل عذابى  
فأفضى الى زوجى بالحقيقة .. وأقول له أن أمى لم تمت وأنها قد فرت  
مع عشيقها من أبى ، وأنى قد رأيتها الليلة . ولكن بعد ذلك ما يكون  
وليحدث ما يحدث .

وصادفتى زوجى على باب البيت ونظر الى فى فزع وسألنى :

- ما بك ؟

- لا شيء .. لقد أحسست فى الطريق ببعض التعب ..

لا .. لا .. انى لا أجسر .. ان لسانى يتعثر وصوتى يحتبس .. خير لى أن أفر الى حجرتى .. وأرقد فى فراشى أتزمل بأغطية ثقيلة وأدعى اننى مريضة ..

ولم أدعى ؟ .. لست مريضة فعلا ؟ .. وهل هناك مريض يمكن أن يصيبنى بشر أكثر مما أنا فيه ؟ .

وأويت الى الفراش ، محطمة الأعصاب .. مجهدة مرهقة .. تصطك أسناني كأنى عارية ليلة قر .

لا تدهش يا سيدى .. ولا تقل ان المسألة لا تستحق كل هذا الخوف .. وأن زوجى ما دام يحبنى .. وما دام لم ير منى الا كل حب وإخلاص .. فسيغفر لى كذبنى .. ولا يأخذنى بجريرة .

قد يكون ذلك صحيحا .. ولكنى لم أكن فى حالة تسمح بالتفكير .. فقد كانت المفاجأة شديدة الوقع على .. وكانت الصورة المحفورة فى ذهنى لأمى صورة شيطان أو عفريت سيدمر سعادتى ويهدم حياتى .

ومضت بضعة أيام وأنا راقدة فى فراشى .. شاردة الذهن ، غارية البال .. وعادنى طبيب فلم ير بهى شيئا سوى تعب فى الأعصاب .. وحضرت أم زوجى لتمكث فى البيت بضعة أيام .. ريثما أبل مما بهى ولتعنى بزوجى وبالبيت .

ولقد حيرها أمرى .. وسألتنى فيما بينى وبينها .. هل هناك ما يضايقتى من زوجى ؟ .. وطلبت منى أن أبوح لها بكل ما يشغل رأسى .. ولكنى لم أنكلم ولدت بالصمت .. هل أجسر على أن أقول لها ما يشغل رأسى ؟

و ذات يوم خرجت السيدة لتذهب الى بيتها وجلست فى فراشى  
تعصف بى الأفكار .. وجلس زوجى على مقعد قريب منى .. وكنت أفزع  
من كل طرق على الباب ومن وقع كل قدم على الدرج .. فقد كان يخل  
لى أن أحلامى المفزعة ستحقق .. وأننى سأبصر أُمى قادمة على بين آونة  
وأخرى .. فيفتضح أمرى .. ويعرفون أننى ابنة فاجرة عاهرة ، وأننى -  
من يدري - ابنة حرام ؟

كيف أستطيع العيش بعد ذلك مع زوجى ؟ وكيف أقوى على الوقوف  
أمام أمه السيدة الطاهرة الذليل .. النقية السريرة ! اللهم هبنى من لذك  
رحمة .

وفجأة أحسست بطرق على الباب .. فارتجفت .. ولكنها كانت أمه  
لا أُمى .. وشعرت بشيء من الراحة .. لم تدم طويلا .. فقد أقبلت على  
وقد بدا عليها كأنها تحمل أمرا خطيرا ، ودون أية مقدمات سألتنى فى  
هدوء :

- هل قابلت أمك ؟

وأترك لك يا سيدى أن تتصور وقع تلك الكلمات الثلاث فى نفسى ..  
لقد أحسست بالتواء فى معدتى .. وشعرت كأن هناك يدا قاسية تعصر  
قلبى .

ولم أجب بشيء ، فقد فقدت قدرتى على النطق واحسست بغشاء  
على بصرى .

اقتربت السيدة وأخذتنى بين ذراعيها وضمتنى الى صدرها وهمت  
فى أننى :

- أينها الحمقاء الصغيرة .. أهذا كل ما روعك ؟ .. ليتنا أنبأناك أننا  
نعلم بكل شيء ، ولكن الخطأ خطؤه .. - وأشارت الى ابنها - فلقد قلت

له أن بصارك بأنه يعلم ، وبأنه يحبك بالرغم من ذلك ، ولكنه قال انه لا يود ايلامك أو جرحك .. ولو صارحك لوفر عليك مشقة الكتمان ولأنقذك من ذلك الجمر الذى يحرق صدرك .. وما ذنبك أنت فى جريمة أمك ! ثم الى متى سنظلين تجزعين من أمك ؟ انها لو كانت قاتلة لما فرغت منها مثل هذا الفرع !

ووددت لو أقول لها أنها لو قتلتنى لكان ذلك خيرا لى .. ولكن الكلام احتبس فى صدرى .

وطرق الباب مرة أخرى ، ولم أفزع هذه المرة ، وبالرغم من اننى رفعت بصرى ، فوجدت الطارق هم، أمي .. بدمها ويلحمها .

وأقبلت على تحتضننى وقد انهمر ندمها شئ بكاء صامت .

وأحسست بأننى قد غفرت لها .

ترى هل يغفر لها الله ؟

وصمتت محدثتى .. فقلت لها .

- ان الله غفور رحيم ..

★ ★ ★





# زهرة الزبل

دنيا المجانين لشد ما أخطأت به الظن .. لقد  
كان مجنوننا من نوع هادئ .. أو مجنوننا  
من عشاق الزهو الذابلية ..

أقسم ان الهوى ضارب من الجنون .. أو هو الجنون الذى يخشى  
الناس أن يسموه بحقيقته فيصبحوا كلهم مجانين .. فكلهم عشاق .. وعلى  
قدر الهوى يختلف الجنون .

قرأت ذات مرة عن أحد الفلاسفة أنه سئل عن العشق فقال : جنون  
الهى لا محمود ولا مذموم . وقال آخر : طرّف من الجنون ان لم يكن  
عصابة السحر .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى صادف فيها قول  
فيلسوف هوى فى نفسى .. أو على الأصح ، كانت هى المرة الأولى التى  
استطعت فيها أن أفهم قول فيلسوف .. فقد كنت لا أرى فى الفلاسفة الا  
أقدر الناس على قول ما لا يفهمه الناس ، ولا حاجة اليهم بفهمه أما هذا  
القول فقد كان قريبا الى فهمى .. اذ كانت تلك هى عقيدتى .. وهذا هو  
مذهبي .. وكنت - كما قال ابن الرومى - لا أرى فى العشق الهائم ، الا  
صحيحا له أفعال مجنون ، .

وكننت أنا نفسى مثلا لذلك الصحيح الذى له أفعال مجنون ، اذ كننت من محترفى الهوى .. ان صح انه يمكن لانسان أن يحترف الهوى .. فما رأيت قط وجهها فاتنا الا وعشقه .. وما عرضت لى عينان ساحرتان أو شفتان فانتنان الا وتركنتانى صريع هوى وقتيل حب .. ولم يك من شىء يطربنى كالحملقة فى منبع للجمال أو العدو وراء مصدر للفتنة .. ولم يك من شىء يحزننى قدر أن أبوء من تلك الحملقة بالاخفاق وأعود من ذلك العدو بخفى حنين .. وهو ما كان يحدث لى فى أغلب الأحيان .

وقد يكون الطرب بالجمال شيئا لا غبار عليه ، أما الحزن بالاخفاق عن الظفر به ، فذلك ما كننت أحس بأنه نوع من الجنون .. ولست أدرى والله ماذا كننت فاعلا لو أنى قد بلغت من هاته العشرات اللاتى أعشقهن ماربأ أو نلت مراما .. وكيف كننت أستطيع أن أوزع بينهن وقتى أو قواى .. حتى ولو كننت أبليس نفسه ؟ ولكنه خبل الهوى وجنون الغرام !

ولم يكن يعزىنى فى تلك الحال التى أرانى عليها .. سوى يقينى ان معظم الناس يشاركوننى فيه .. فما كننت أبرىء منهم أحدا مهما اختلفت طباعهم وأعمارهم .. اللهم الا واحدا كننت أراه بين الناس نسيج وحده .

كان صاحبنى هذا شديد رجاجة العقل ، كثير الهدوء والاتزان .. حتى لقد توهمت به - قبل أن أعرفه بتمام معرفته - جمود حس وخمود عاطفة من فرط ما كان يبدو لى من رزائنه وهذونه .. ولكن لم تكد تزداد بيننا أواصر المعرفة وتربطنا روابط الصداقة .. حتى بدأت أتبين فى نفسه رقة وجمالا ، وبدأت أكتشف فيه روحا شاعرية حساسة .. ورأيتنى أندوق منه الكثير من جمال الأدب والشعر .. وتبينت فيه ميلا الى الفنون على اختلاف أنواع ذلك .. ومع كل هذا كننت أجد عنده ميلا عن النساء وزهدا فيهن .. فما رأيتهن يحركن فيه ساكنة راکدة ، أو يثرن به جامدة باردة ، وما كان ذلك الوجه الذى يجعلنى أحملق فيه ثم أتابعه بنظرأتى حتى تكاد

عيناى تفارقان محجريهما عدوا وراهه .. ما كان ذلك الوجه ليثيره أكثر  
مما يثيره مقعد فى حجرة أو سيارة فى طريق .

وهكذا اعتقدت أخيرا اننى عثرت على عاقل فى دنيا المجانين ..  
حتى كنت أجلس وصاحبى ذات ليلة فى شرفة داره ، وكانت تهب علينا  
نسمات خفيفة كأنها زفرات هادئة من قلب ليلة من ليالى الصيف .. وساد  
صمت عميق شرد فيه كل منا بذهنه مع أوهامه وأحلامه .. حتى رأيتنى  
أقطع حبل الصمت وأسأله مداعيا :

فيم التفكير والتأمل وأنت لست من العشاق أو من أشباههم ؟

-- أو قد حرم التفكير الا على العشاق ؟

-- لم يحرم ، ولكنهم هم أحق الناس به ، فهم يستعينون بحلابة  
الأوهام على مرارة الحقائق .. وهم ينالون من متعة الأحلام ما حرموه من  
لذة الواقع .

وضحك صاحبى ضحكة لم أميز مداها من الضحك ، فقد لمحت بها  
مرارة وسمعته يقول بين المزاح والجد :

-- اذا فاعتبرنى من العشاق .

فأجيبته بضحكة ماجنة . ولكنه عاد فأردف فى صوت ملؤه الحزن :

- على الأقل من عشاق الزهور الذابلة .

ودهشت له .. فقد مست منى لهجته الحزينة موضعا حساسا ..  
وانتظرت أن يطلعنى على خبيثة نفسه .. ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. بل  
غادر الشرفة فى صمت واختفى داخل الحجرة ثم عاد بعد لحظات ومعه  
كيس جلدى صغير مما يضع فيه المرء نقوده وأوراقه .. ثم جلس  
بجوارى .. ورأيتنه يفتح الكيس ثم يخرج من جانب منه زهرة ذابلة أمسكها

بحرص بين أصابعه خشية أن تنفطر أوراقها الجافة الباهتة ، ونظر إليها بلهفة وحنين ثم أعادها الى مكانها بعناية ورفق ، ومد أصبعه الى الجانب الآخر من الكيس وأخذ يعبث فيه هنيهة .. واستطعت أن أميز ذلك الشيء الذى يعبث به .. فاذا هو مسحوق أوراق لزهرة أخرى أشد من هذه ذبولا وأقدم عهدا ، فقد طال بها الزمن فى الكيس فحولتها الأيام رمادا كأديم الأرض .

وزاد دهشى من صاحبى ، واشتدت بى اللهفة الى أن أعرف سر حرصه على تلك الزهور الاذابة البائدة .. ولم يطل انتظارى فقد تكلم أخيرا .. تكلم وكأنه يحدث نفسه .. أو كأنى غير كائن .. فهو يستعيد لنفسه ذكرى قد تكون بها مرارة وقد تكون بها حلوة .. لكن الذى لا شك فيه هو أن فيها عزاء وفيها سلوة .

قال صاحبى :

– عرفت الحب مذ عرفت الحياة .. فقد كان أول ما وعيته فى هذه الدنيا هو انى أحببت .. فما خلت لحظة من لحظات حياتى منذ طفولتى من معشوقة أهيم بها عشقا .. وما زلت أذكر كيف كنت أقذف غطيان القلل من المنور وأنا فى السادسة من عمرى .. لا لشيء الا نزولى لاحضارها من لدن الجيران الذين يقطنون فى الطبقة السفلى فأستطيع بذلك ان أسترق من ابنتهم الجميلة بضع نظرات أو بضع كلمات .. اذ كنت شديد الولع بها .. حتى أنى كثيرا ما كنت أتخيل نفسى مكان البطل ، دان ، وأتخيلها مكان الحسناء ، دورا ، اللذين كنت أتابع مغامرتهما فى ( مجلة الأولاد ) فأرانى وقد حملتها فى طائفة الى جزيرة نائية بعيدة عن أعين الرقباء .

ورحل الجيران ورحلت معاهم فتأتى المحبوبة .. فسرعان ما احتلت غيرها مكانها .. وهكذا ظلت نتتابع على الحبيبة تلو الحبيبة .. فما خلا قلبى من واحدة قط .

وكان حبي في الحب نوعا عجيبا .. اذ كنت شديد الانطواء على  
نفسى .. كثير الخجل والحياء .. فكنت أكتفى بالحب السلبى .. او بالحب  
من جانب واحد .. فما من واحدة من هؤلاء العشرات اللاتي ولهت بهن  
حبا قد بادلتنى الحب .. أو حتى أدركت أننى أحبها .. فقد كنت أدخل الى  
نفسى فأدبر الخطط للقاء ، وأحضر ما سوف أرده لها من الأحاديث ،  
وأترهم ما سوف تقوله لى وما سوف أقوله ردا على قولها .. وهكذا حتى  
أحكم فى رأسى كل تفاصيل اللقاء .

ولكننى لا أكاد أبصرها حتى أحس بالدم يتصاعد الى وجهى ..  
وبأنفاسى تتلاحق وقلبى يبق دقا عنيفا حتى كأئننى أعدو فى سباق ، وأحس  
بالارتباك قد شملنى من أخمص قدمى الى قمة رأسى .. وأحس كأئننى لست  
أنا أو كأئننى اسير بلا قدمين أو بلا رأس .. ولا أكاد أقرب منها حتى أكون  
قد وصلت الى أقصى درجات الارتباك .. واذا بكل ما كان فى رأسى قد  
تطاير وتلاشى .. واذا بى لا أفكر فى شيء سوى الفرار .. وقد لا أكون  
مبالغا اذا قلت أن كل أدوار العشق التى مرت بى كانت من هذا القبيل ..  
لا تغيير ولا تبديل .. حتى ألغت ذلك الحب الذى لا يشعر به غيرى .

ومرت الأيام ، وشارفت الثامنة عشرة ، وأنا غريق فى هوى  
نفسى .. وذات ليلة خلوت الى نفسى أستذكر .. فأخذ بصرى ضوء فى  
النافذة المقابلة .. واذا بى أرى فتاة قد جلست تعمل بابرئين من ابر  
التريكو ، وقد سحبت ببصرها من النافذة .

وأدركت أن البيت المجاور قد سكن ، وأطرينى ان تكون الفتاة جارة  
لنا .. وقلت لنفسى - كما تعودت أن أقول دائما - ان هذه هى حبيبة  
العمر .. ولا بد أن أكون معها جريئا .. لافوز منها بحب أو بصداقة .. وأن  
أقطع عن ظك الخجل والانطواء .

وبدأت الهجوم .. ولم يكن لدى من أسلحة الغزل .. سوى

الحملقة .. وظللت أحلق في الفتاة ما يقرب من نصف ساعة .. وهي لا تكاد تشعر بوجودي .. وهنا بدأت أعمال الجراءة - أو على الأقل ما ظننته كذلك - فصرخت بالخادمة أن تحضر لي كوبا من الماء .. حتى ألقت نظر صاحبتنا .. ومع ذلك لم يحرك صياحي ساكنا .. فقممت الى النافذة وأغلقتها بشدة ثم فتحتها ثانية .. محدثا بذلك ضجة توقظ أهل الكهف .. وها فقط أحست بوجودي .. ورفعت الى بصرها بدهش كما لو كانت تنظر الى مخبول .. ثم قامت الى المصباح فأطفأته في هدوء وساد الغرفة ظلام ومكون .

ونمت على ما فعلت .. فقد كان من الخير ان الزم السكون فأمتنع منها ولو بالنظر اليها .. وأخيرا ذهبت الى فراشي .. وأنا أضيق الخطط في رأسي كما تعودت أن أفعل .

وتعودت بعد ذلك أن أراها في مكانها كل ليلة .. وأحسست أنها تنساب الى نفسي انسياب الجدول .. فقد سحرنى هدوء وجهها ورقته ، وفنتتني تلك السكينة والبراءة التي تعلق ملامحها .. ورأيتها قد أحست بوجودي .. وأنها لم تعد تغضبها نظراتي .. بل خيل الى أن هناك نوعا من الود قد نشأ بيننا من طول النظرات .

ولم أكن أشك وقتذاك في أنها تكبرني بما يقرب من سبع سنوات فقد كانت تبلغ الخامسة والعشرين ، ولم أكن أشك في أنني لن أخذ منها أكثر من سابقتها .. فأغلب ظني أنها لا تنظر الى أكثر من نظرتها الى تلميذ عابث خير له أن يشغل نفسه بالدروس أو بلعب الكرة .

ولكني - بالرغم من ذلك اليأس - وجدنتني اندفع في حبها ، ووجدتها - وقد سبب لي هذا أرق ليلة كاملة من فرط الفرح -- تهتم لي ذات مرة وتشير برأسها محيية .

ولا أظن امراة يستطيع أن يدرك مبلغ سعادتي بتلك البسمة .. أنا

الذى أحببت مئات المرات دون أن تعرف واحدة ممن أحببتهن انى أحبها .  
ولا أدري بعد ذلك كيف بدأ بيننا التقارب ، ولكننى أذكر أنه حدث  
دون سابق تحضير أو ترتيب ، ودون أية خطة موضوعة كذلك الخطط  
التي كنت أضعها للتقرب الى من أحببت ، وكانت تنتهى دائما بفراى من  
الميدان .

لقد كانت رقيقة لطيفة .. فأطارت من نفسى ما بها من خجل  
وارتباك .. ورأيتنى أبيض بالحديث معها .. حتى لكان اللقاء لم يكن لأول  
مرة ، بل لكانها توعم نفسى وهنو روحى .

وفضيت بعد ذلك فترة من العمر ، فغمرنى بحنانها الفياض وجبها  
الطاهر الذى لا تشوبه شائبة .. وما زلت أذكر تلك الليالى التى كنت أتسل  
فيها الى حديقة دارها ، والكون قد شمله سكون عجيب .. فأجدها فى  
انتظارى فى خميلة بركن من الحديقة ، حيث نجلس متلاصقين ، ويمر بنا  
الوقت سراعا وقد اتكأت برأسى على صدرها ، وأحسست بيديها تعبتان  
بشعرى وأخذنا نتهامس فى صوت خفيض .

و ذات يوم وأنا عائد من المدرسة لمحت على باب دارها بعض  
الأعلام الخضراء .. فأحسست بانقباض فى نفسى .. وعندما لقيتها فى تلك  
الليلة أخبرتنى بأنها ستزف بعد بضعة أيام .. وكانت تبدو على وجهها لمحة  
من رأس .. وكان فى صوتها صدى لبكاء .

وتوافقنا للوداع فرأيتها تمد يدها لتتطفل احدى الزهور التى شملها  
الظلام وتدفع بها الى هامسة :  
- انكرنى بهذه الزهرة .

وصمت صاحبى ومد أصابعه فى الكيس يعبث بمسحوق الزهرة  
البائدة ثم قال :

- هذه هي الزهرة الأولى .. أما الزهرة الثانية ..

ورأيت يخرج الزهرة الجافة برفق ثم يتأملها هنية .. ويقول :

- اما الزهرة الثانية .. فهي فتاة لقيتها في الصيف الماضي على شاطئ البحر .. بعد خمسة عشر عاما من فراق الزهره الأولى .. خمسة عشر عاما .. لا أدعى انى قضيتها في زهد تام عن النساء وفي منأى عن الهوى والعشق ، ولكنى مع ذلك أستطيع أن أوكد أن نكرى صاحبتي لم تفارق رأسى لحظة واحدة .. وأننى عدت الى سابق عهدى من الانطواء على نفسى .. ومن الحياء والخجل .. فما استطاعت واحدة أن تحتل من نفسى مكانتها .. حتى لقيت فتاة الشاطئ - أو على الأصح صبية الشاطئ - ببراءتها وسذاجتها .. كأنها نمية جميلة فرأيتنى اندفع فى حبها ، ورأيتها تندفع فى حبنى ، دون تفكير منا ولا روية ، وأخذنا نلتقى على الشاطئ فى الصباح المبكر والبحر قد خلا الا منى ومنها .. وكنت أدهش لذلك الحنين الذى أحس به نحوها .. وكنت أراها أشبه بقطة صغيرة .. عندما أمسك بوجهها الصغير بين كفى والخط فى عينيها بريق سرور وهناء .

واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تعيد الى نفسى تلك السعادة التى افتقدتها فى تلك الأعوام الطويلة .. منذ أن فارقت صاحبتي الأولى . وذات صباح افتقدت الفتاة فلم أجدها .. وهالكت غيبتها عنى بعد ذلك ، فانتابنى هم وأصابنى جزع وقلق .

وكانت النهاية فى هذه المرة أسرع وأقصى مما يتصور عقل . فقد علمت أخيرا أن الفتاة الحبيبة قد أصابتها حمى أودت بها ولم تمهلها كثيرا ولا قليلا .

وحملتني قدامى بين سكون المقابر ووحشتها حتى استقر بى المقام أمام قبرها فرأيت امرأة قد عصفت بها الحزن فطفت تنشج فى لوعة



ورأسى ، فأدركت أنها لا بد وأن تكون أمها التكلسى  
ورفعت الى المرأة وجهها .

وصمت صاحبي هنيهة .. ثم سألتى هامسا :

- ترى من نظن الأم الحزينة ؟ .

وهزئت رأسى فى تساؤل .. اذ لم أستطع أن أدرى ما يعنى ..  
وأردف هو فى صوت ملء بالمرارة :

- لقد كانت صاحبتى الأولى .. لقد رفعت الى بصرها ولم يبد عليها  
دهش لمرأى .. فقد عرفت من فئاتها من أكون . ولقد أسعدها أن يربط  
ببنى وبين ابنتها ذلك الرباط الذى لى يستطع أن ينتظمنا من زمن خلا ..  
ولكن القدر سخر منا مرة أخرى .

ورأيتهما تمد يدهما الى بشيء قالت أن ابنتها طلبت منها أن تعطينى  
اياها لأذكرها به .. ونظرت الى ما أعطتنى فاذا به زهرة ثانية .

وأمسك صاحبي بالزهرة بين أصابعه ، ورأيت فى عينيه سحابة دمع  
ثمهم بأن تهطل على خديه .

أهذا هو الذى ظننته عاقلا فى دنيا المجانين ؟ .

لشد ما أخطأت به الظن .. لقد كان مجنونا من نوع هادى .. أو  
مجنونا من عشاق الزهور الذابلة ؟ .

★ ★ ★



# جيفري بايبي

هذه الوريقات التي رأيتني انكب على نسخها  
من جديد ستكون حدثاً في عالم القصة  
والأدب ان صاحبها عبقرى ثوى في باطن  
الأرض .. ولقد أقسمت بأن أفنى نفسي  
لأنه ..

كنت أقف أمام الواجهة الزجاجية لأحدى المكتبات الشهيرة ، فاخذت  
أفحص ما صف فيها عن كتب لعلى أجد به جديدا يستحق الشراء ، وأخذت  
انقل بصرى من كتاب الى آخر دون أن أجد هنالك ما يستدعى الانتباه .  
فكل ما فى الواجهة لم يكن ليزيد على كتب قد ابتعتها من قبل .. أو على  
كتب لم أبتعها لتفاهة فى الموضوع أو لغلاء فى الثمن .

وهممت بالمسير .. ولكنى وجدت الواجهة الزجاجية تفتح من  
الداخل .. وأبصرت بدا تمد فتضع كتابا جديدا فى نهاية الصفوف .. فتمهلت  
قليلا لأقرأ عنوان الكتاب واسم مؤلفه .

ووقفت هنيهة ، وقد علق بصرى بالكتاب .. فقد كان كلا الاسمين -

اسم الكتاب والمؤلف - معروفا لدى .. وخيل الى أنى قد سمعت بهما قبل الآن ، وان كنت لا أنكر انى رأيت الكتاب من قبل ، ولم يطل بى التكثير .. حتى بدرت منى صيحة دهش لم أستطع كتمها . واندفعت داخل المكتبة كأن بى مسا من جنون .. وبعد لحظات كنت أنطلق الى الدار والكتاب بيدى وقد شرد ذهنى فى حشد من زكريات غابرة .. كان الزمن قد جعل منها رفاتا بائدا باليا ، فاذا الكتاب يبعث فيها الحياة كأنها ما انطلوت فى بطن الزمن وما ثوت .

وخلوت الى نفسى أتصفح الكتاب ، فقد كان بى لهفة اليه .. اذ لم أكن أتصور قط أنه سيخرج الى الحياة .. وما ظننت أن تلك الوريقات الممزقة البالية قد قدر لها أن تبعث من مرفها بعد طول خمود ورقود .

وحاولت أن أقرأ ، ولكن ذهنى كان فى غيبة بعيدة .. وكنت ابصر الحروف أمامى أشباحا متصلة متشابكة تتراقص أمام عيني فلا أستطيع أن أفهم لها معنى .. فطويت الكتاب وأحنيت رأسى الى الوراء .. ثم أطلقت لذهنى العنان ورحلت فى شبه غيبوبة .

يا للفناء العجيبة ! . انى لأنكرها جيدا على الرغم من تلك السنين التى فرقت بينى وبينها ، وكأنى بها جالسة أمامى وقد تقوس ظهرها وانكبت برأسها على الوريقات المطموسة الباهتة تعيد كتابتها .

كان ذلك فى حى المنيرة .. وكانت أول مرة أبصر فيها واحدا من جيراننا الجدد الذين سكنوا منذ يومين الشقة المقابلة .. عندما عدت الى الدار ذات مساء فلمحت من خلال الباب شبحها وقد انحنيت على المنضدة وبدأ عليها الانهماك فى الكتابة حتى لكانها تلميذ يسكب على أوراق الامتحان عصارة ذهنه .. أو عاشق يريق فى رسالة غرام ماء قلبه .

ورأيتها بعد ذلك بضع مرات .. وعلمت أنها طالبة فى كلية الآداب .. ولم تكن مفرطة الجمال ، ولكنها كانت مقبولة الشكل .. وكان

بوجهها ميل الى الصفرة وبجسدها ميل الى النحول .. يبدو عليها حدة  
الذهن وشدة النكاء .. ولم تكن الفتاة لتثير فى نفسى الاهتمام .. لولا ذلك  
الانهماك العجيب فى الكتابة والنسخ .. فما رأيتها تفعل شيئا سوى  
الكتابة .. حتى بت اتحرق شوقا لارى فيم تكتب وماذا تنسخ .. وسنحت  
الفرصة أخيرا وبدأت اواصر الصداقة تربطنا بجيراننا الجدد .

وبدا لى من نفس الفتاة ما هو خير مما بدا من وجهها وجسدها ..  
وبدأت تنال منى الكثير من الاعجاب .. وأقبلت عليها ذات مرة وهى  
منهمكة فى الكتابة وجلست على مقعد بجوارها .. فرأيت أمامها كومة من  
أوراق رثة باهتة من مختلف الأنواع والأحجام وقد انمس بينها بضع من  
علب السجائر قد كُتِبَ على ظهرها ، وبعض من ورق الجرائد قد كُتِبَ  
على هوامشه .. ورأيته أخذت تنسخ من هذا ومن ذلك كأنما تحاول أن  
تجمع منها موضوعا معيناً .

وسألته عما تكتبه .. وطلبت اليها أن تكف عن الكتابة لتريح نفسها  
بالحديث الى بعض الوقت .. ولابد أن يكون التعب قد أخذ منها كل مأخذ ..  
اذ ما كادت تسمع قولى حتى ألقت بالقلم جانبا واستقام ظهرها بعد طول  
انحناء ثم نظرت الى هنيئة وأجابت :

- اتريد حقا ان تسمع ؟ .. لقد أجهدتنى الكتابة وأحس برغبة فى  
الراحة والحديث .

وتأبطت يدها أميل بها الى الشرفة وجلسنا هنيئة فى صمت ما لبثت  
أن قطعته وقد استجمعت شوارد أفكارها .. ثم بدأت تتحدث :

- هذه الوريقات التى رأيته أنكب على نسخها من جديد ، ستكون  
حدثا فى عالم القصة والأدب .. ان صاحبها عبقرى ثوى فى باطن الأرض  
قبل أن يتمكن من اخراجها الى النور ، وكما أود أن يهبني الله قوة من لدنه  
حتى أبعثها الى الحياة . وكما تتمكننى اللوعة والأسى ، عندما أتصور أنه

سيفنى وتغنى ذكراه .. دون أن يحس به أحد .. انى أريد ان انصفه فى  
مماته .. ما دام هو لم ينصف نفسه فى حيانه .. انه شخص يستحق  
الخلود .. ولقد أقسمت أن أفنى نفسى لأخلده .

دعنى أعود بك الى الورا قليلا ، فأخبرك كيف رأيته وكيف  
عرفته ، لقد جمعتنى واياهم زمالتنا فى كلية الآداب .. ولفت نظرى بكبير  
هدونه وميله الى الوحدة .. فما رأيته قط يخاطب احدا أو يسير مع أحد ..  
وأحسست فى نفسى بميل اليه .. وقد يكون ذلك لتشابه بين نفسيهما وتشابه  
فى طباعنا . فقد كنت أنا الأخرى شديدة الصمت والنفور من الناس ..  
وتعارفنا ذات يوم ، ومرعان ما توثقت بيننا عرى الصداقة .

وأدهشنى الفتى .. فما اذكر أنى لقيت فى حياتى امرءا غيره يجمع  
فى نفسه ذلك القدر من الشعور الفياض والاحساس المرفه .. كان فنانا  
فى كل شئ ، ولوعا بكل نوع من الفن من رسم وموسيقى وأدب وشعر ،  
وكان كريم النفس ، جميل الخلق .. فما رأيته يكره احدا أو يذم احدا ، بل  
كان يحب كل الناس .. حتى ليخيل لى أنه لو وزع ما فى قلبه الجميل من  
حب وعطف على الناس أجمعين .. لما بقيت فى هذه الدنيا عداوة أو  
خصام .

وكم كان يحلو لى أن أجلس بجواره فى حدائق الأورمان عقيب انتهاء  
الدراسة .. فاستمع اليه يترنم ببعض من أبيات الشعر قديمه وحديثه .. أو  
يقص على قصة قرأها فأعجبته .. أو ينشد لى بعضا من الأغاني التى  
تمتهوى نفسه .. وكان شديد الولىع بشوقى وبعيد الوهاب عندما يلتقيان فى  
اغنية .. وانى لأكاد أسمع صوته العذب وهو يترنم بقصيدة ، ردت  
الروح .. وكانت أحب الأغنيات الى نفسه .. وأكاد أبصر وجهه الرقيق  
وهو ينشد فى ابتسامة حلوة هادئة :

موقعى عندك لا أعلمه      آه لو تعلم عندى موقعك

فتملكنى اللوعة ويحنونى الشجن .. وأتمنى لو يسمعنى الآن كما  
أسمعه ، وأن يصل صوتى الى مضجعه .. فأهتف به كما اهتف بى من  
قبل :

نامت الأعين الا مقلة تسكب الدمع وترعى مضجعتك

ولكن أين صوتى من مسمعه ؟ وأين عيني من مضجعه ؟ لقد أضحي  
الآن عظاما نخرة يحتويها قبر بأرض قفرة .

كان كثيرا ما يحدثنى عن أبيه .. فقد كان شديد الإعجاب به .. وكان  
يتحدث عنه كما يتحدث عن صديق حميم .. وكان يحلو له دائما أن يقرأ  
لى الكثير من مؤلفاته وقصصه وأشعاره .. وكان يخبرنى أنه ما عشق  
كتابة كعشقه كتابة أبيه ، وما أستطاع أديب أو كاتب أن يمس من نفسه  
موضعا حساسا كما استطاع أبوه .. ولم يكن يدرى أعند الناس كان كذلك .  
لم كان تلك الإعجاب منه لتشابه بين نفسيهما لأنه أبوه ولأنه كان يحس  
عندما يقرأ له بأنه يقرأ لنفسه ؟

وذات يوم أقبل على وبوجهه بشاشة وجبور ، وانتحى بى ناحية  
هائلة ، ثم أخرج بضع ورقات من حقييته وخاطبني قائلا :

- أريد أسمع رأيك فيما سأقرأه عليك . فأياك والمجاملة .

وعندما انتهى من القراءة لم يسمعنى الا أن اهتف صائحة :

- رائع ! . مدهش ! .. أين البقية ؟

- لم أكتبها بعد ..

- أفسم لك أنها ستحدث ضجة فى عالم الأدب انا أتممتها على هذا  
المنوال .. ان قدرتك على الوصف والتصوير لقدرة عجيبة .. وأن خيالك  
لأية فى الروعة .

ولم أكن فى قولى هذا مبالغة أو مجاملة .. بل كنت أتكلم عن عقيدة راسخة لأنى كنت ألمس فيه عبقرية كامنة .. عبقرية خلقها الله معه .

وفى اليوم التالى .. افتقدته فلم أجده .. ومضت بضعة ايام وهو فى غيبته حتى أبصرته أخيرا فى صليحة يوم وهو يسير فى فناء الكلية متجها نحو الباب ، فأسرعت الخطى اليه وناديت ، فتوقف ، ثم أدار الى وجهه .. فراعنى ذلك الهزال الذى بدا عليه .. والحزن الذى كسا وجهه .. وتلك الملابس السود التى احتوت جسده .

ومد يده الى فى صمت .. ولم أجد فى نفسى الجرأة على سؤاله .. فقد خشيت أن أنا تكلمت أن انفجر بكلمة .. فقد كان مرآه الحزين يوجع نفسى ، وما تعودت أن أراه حزينا .. وأكتفيت بأن أهز رأسى مسائلة .. وأجاب :

- انه أبى !

وعرته هذه سرت فى أطرافه كن يغالب البكاء ، ثم أرخى يده وشد على يدي بسرعة وغادرنى دون أن ينطق بكلمة .

وكانت آخر مرة أبصرته فى الكلية فقد انقطع عن الدراسة بعد ذلك والتحق باحدى الوظائف الكتابية ، اذ كان عليه أن يحصل على المال لأن أباه لم يترك لأسرته شيئا .

ولقيته بعد ذلك .. أو على الأصح تعمدت لقاءه .. فقد كان بى شوق الى ان ابصر وجهه وأسمع حديثه .. فرأيتة مفرط الصمت ، كثير الاطراق والوجوم .. فسألته عما تم فى قصته .. فأجاب فى اقتضاب :

- لقد تركت الكتابة .

- لا تكن مجنونا !



- ان اخوتى فى حاجة الى نقود ورعاية .. انى أعمل صباحا وبعد الظهر .. وليس لدى ثانية أقضيها فى الكتابة .

وخيل الى كان فى صدره طائرا حبيسا يحاول الانطلاق ولكنه كان يضيق عليه الخناق .

وحاولت عبثا أن أعيد الى نفسه الأمل .. ولكنه هز رأسه فى صمت وأجاب كمن يحدث نفسه :

.. لا فائدة .. هذه الحياة لايد أن يضحي فيها البعض ، كى يسعد البعض الآخر .. والا اصابهم الشقاء أجمعين ، ولقد قدر لى أن أكون من النوع الأول .

وافترقنا وبفلسى غصنة ولوعة .. لقد وددت لو أستطعت أن أحتويه بين ذراعى وأخفى رأسه فى صدرى لادفع عنه احزانه وأشجانه .. ولكن الحياة كان يمنعى .

ولم يعدنى اليأس من أن أدفعه الى الكتابة ، فحاولت أن أعيد الكرة .. ولكن من طريق آخر .. لقد كنت أعلم أنه لا يعصى لأمه امرا ولا يرد لها طلبا ، فذهبت ذات صباح الى داره وهو غائب فى عمله ، وطرقت الباب فلقيتنى سيدة مسحة الوجه قد انتشحت بالسواد .. وأدخلتنى فى غرفة الاستقبال وجلست السيدة أمامى مطرقة تنتظر ان أبدا بالحديث ، وأنباتها فى اقتضاب بما أتيت من أجله ورجوتها أن تعاوننى فى حمله على أن يستمر فى الكتابة ، فحرام أن تقتل هذه العبقريّة فى مهدها وصمتت السيدة هنيهة ثم اقتربت منى ، وقالت :

- يابنية ، انى أشكر لك هذا الشعور نحوه وهذا الاهتمام به ، ولكنك مازلت صغيرة بعد .. واننى أكثر منك تجربة فى الحياة ، واننى لا أتمنى له شيئا الا أن يبتعد بنفسه عن الكتابة والأدب .. ماذا تظنينه ليصبح مهما بلغ من النبوغ .. أيصبح كآبيه ؟ .. لقد عاش عمره فقيرا ومات دون أن

يترك لنا ما نستطيع العيش به .. ولا أعلم ماذا كان مصيرنا لولا ذلك المعاش الذى خلفه لنا من وظيفته الحكومية التى كان يزديريها ويحتقرها .. ماذا أفاد من الأدب والكتابة ! حتى النكرى قد بخلوا بها عليه .

وصدمنى حديث السيدة ، فلم أك أتوقع منها مثل ذلك الرد . وحاولت أن أزِيل من نفسها ذلك التشاؤم والتحامل ولكنى كنت كالنافخة فى رمال .

ومضت مدة بعد ذلك .. ولقيت الفتى مرة أخرى .. وكان مر الأيام قد خفف قليلا من حزنه ولوعته ، فوجدته أكثر بشاشة واستطعت أن أقنعه بأن يحاول الكتابة فى لحظات فراغه .

وحلت عطلة الصيف وسافرت الى بلدنا بعد أن أقسم لى أننى لن أعود الا وأجده قد أتم القصة .. وفعلًا .. صدق الفتى وعده .. فلم تكد العطلة تنتهى وأعود الى القاهرة .. حتى وجدت القصة قد انتهت .

وصممت الفتاة هنيهة .. ولمحت فى عينيها دمعة تترقرق ثم استأنفت :

- لقد وجدت القصة قد انتهت .. ولكنه هو أيضا كان قد انتهى .. لقد أفرط الفتى فى اجتهاد نفسه .. حتى أصيب بالتهاب فى الرئة .. وكان السهر قد أنهكه وأضعف من مقاومته للداء .. ولم يحاول هو كذلك أن يستريح ولم يرحم نفسه ، فلم يرحمه الداء .

ولا أظن هناك من الألفاظ ما أستطيع ان أعبر به عما أصيبت بفقدته .. لقد أحسست ببأس من الحياة ، ونكرت قوله : « أن هذه الحياة لا بد أن يضحي فيها البعض لكى يسعد البعض الآخر » .. ولكنى أيقنت الآن أن الحياة كلها أحقر من أن يكون فيها ما يستحق التضحية .

ولم أستطع فى مبدأ الأمر ان اذهب لتعزية أمه .. ولكنى تماكنت نفسى أخيرا وذهبت للقائها .

سبحانك اللهم .. تلهم الصبر عبداًك المؤمنين .. لقد قابلتني السيدة  
فى صمت ، وحاولت أن أعزّيها ببضع كلمات ، فقالت بصوت يملؤه  
الايّمان : الحمد لله !

ثم اخفقت هنيهة وعادت تحمل الى حقبة الفتى ودفعتها الى وهى  
نهمس :

-- لقد قال لى : أنه أتم القصة .. خذها يا بنيتى فأنت أولى بها .  
وصمتت الفتاة ، فمددت يدي وشددت على يدها ونظرت الى هذه  
الكومة من الورق البالى وحملت فى شك :

-- أتظنين أنك ستستطيعين بعثها الى الحياة ؟

-- أدعو الله أن يعيننى على ذلك .

ومر الزمن وأنا أبصر الفتاة تكتب وتكتب .. حتى خيل الى أنها  
ستفنى عمرها فى الكتابة .. ثم فرقنا الأيام حتى أبصرت الكتاب فى ذلك  
المساء ، فأعاد الى رأسى قصتها .

وامسكت بالكتاب الأنيق ألقه بين يدي ، وأقبلت على قراءته بلهفة  
وشوق .. فلم أتركه الا وقد أنيت على آخره فاذا به أبدع ما قرأت ،  
وأحسست بنشوة تملكتنى بعد قراءته ، وشعرت بأن فيه نوعاً من السحر ،  
والله أعلم بمبعثه ، أهو الفتى العبقري ؟ أم الفتاة التى بعثته الى الحياة ؟

★ ★ ★



# شاة وقصاب

الشاة لا تتوقع من القصاب نبحا ولا غدرا ..  
والقصاب لا يرى نفعه الا فى النبح  
والغدر .. وتموت الشاة وليس فى قلبها حقد  
عليه ولا ضغينة ، ويبقى القصاب .. يفتك  
بغيرها من الشياة .. اللقيات القلوب ..  
الطاهرات النفوس .

هذه القصة مهداة الى الأستاذ « ميخائيل نعيمة » .. على غير معرفة  
بيننا ولا سابق لقاء .. وان كنت من جانبى قد لقيته أجمل لقاء على صفحات  
كتابه « كرم على درب » .. وصافحته بخاطرى بين سطورهِ وكلماتهِ ..  
أو بين عناقيده وحباتهِ .

اليه أهدى هذه القصة .. فقد أوحى الى بها قول له : « رأت الشاة  
قصابها يشحذ سكينه فقالت له : أحترس يا سيدى من أن تجرح  
أصابعك » .. فقد مس منى ذلك القول موضعا حساسا .. وأثار فى قلبى  
شعورا بالحزن والشجن ، وقلت لنفسى كم بيننا فى الحياة من شاة  
وقصاب .. خلا قلبه من كل عطف وبر .. الشاة لا تتوقع من القصاب نبحا

ولا غدرا ، والقصاب لا يرى نفعه الا فى الذبح والغدر ، وتموت الشاة  
وليس فى قلبها حقد عليه ولا ضغينة ، ويبقى القصاب يفتك بخيرها من  
الشيء .. النقيات القلوب ، الطاهرات النفوس .

ووجدتني أترث أمام ذلك القول ، وأمعن فيه الفكر .. ثم أقول  
لنفسى .. أكتب ! من يدري ؟ فقد يكون فى قصتك عزاء لكل شاة ..  
وعظمة لكل قصاب !

أنا فى بيت ، الشاة ، .. بيت قديم فى حى الحلمية .. لا يفصله عن  
البيت الذى أقطنه سوى حارة ضيقة .. ولم يك قد خطر ببالي أن أزور  
البيت من قبل .. بل وما فكرت قط طول تلك المدة أن أسأل عن يقطنه ..  
لأنى شخص سلبه الله خاصية حب الاستطلاع .. حتى كان ذات يوم فطرق  
بابى طارق .. وإذا هو خادم عجوز تطلب الى فى استيحاء أن أقرضها  
بعض النقود لتبتاع به دواء لسيدها المريضة طريحة الفراش .. التى نقطن  
البيت المجاور .

ولم أملك ، فأسرعت باعطائها ما طلبت .. فقد كانت الطريقة التى  
طلبت بها النقود تجعل أى امرئ -- مهما بلغ به البخل -- لا يكتفى بأن  
يجيبها الى ما طلبت .. بل يأسف لأن الله لم يلهمه أن يعطيها النقود قبل  
أن تطلبها .. فيوفر عليها مشقة الطلب وعناء الاستجداء .

ولم يكن بد بعد ذلك من أن أقوم بزيارة للجارة المريضة ، فقد دفعنى  
عامل المروءة الا أنتظر حتى يطلبوا منى المساعدة مرة أخرى .. بل أذهب  
أنا لأعرضها ، ولأقوم بواجب الجيرة .

ودخلت البيت .. فوجدته موحش المظهر بالى الأثاث .. ولقيتني  
العجوز مرحبة وأجاستنى فى حجرة يقولون أنها لاستقبال .. وسألته عن  
حال سيدتها فأنبأتني بأنها ما زالت مريضة .. ولم أمكث سوى بضع  
لحظات ، ثم نهضت للانصراف .. وسألته فى صوت خافت خجل أن  
كانت فى حاجة الى شئ من النقود .. فأبت اباء يشوبه الحياء والحيرة ،

فلم أجد خيرا من أس فى يدها قبضة من النقود .. وتركته وانصرفت .  
وتكررت زيارتى دون أن أرى المريضة نفسها .. وأنست الى  
العجوز واطمأننت .. وبدأت تفضفض بالحديث وكأنما وجدت فى الحديث  
متنفسا لها فأنبأنتى فيما قالت ذات مرة .. وقد بدا عليها كثير من الأسف  
الممزوج بالدهش :

-- أكثر ما يؤلمنى يا سيدى أن لديها من النقود ما يكفيننا مثلة  
الاقتراض ، ولكنها ترفض أن تعطينى شيئا لأبتاع لها الدواء ، فاضطرت  
أن ألجأ اليك ، ادعى أمامها أن الصيدلى قد قبل أن يعطينا الدواء .. على  
أن نسدد ثمنه فيما بعد .. ولولا ذلك لما قبلت تناوله .

وأصابنى دهش شديد .. ولكنى حاولت جهدى إخفاءه ، وأبدت  
للعجوز أن من الخطأ الاقتراض بالمثلة . فما من انسان الا يحتاج الى  
معونة الآخر .. فى أى صورة وعلى أى وجه .

وساد الصمت هنيهة .. ووجدت حافزا يدفعنى الى السؤال عما يحدث  
بسينتها الى أن تبخل على نفسها بشراء الدواء .. غير أنى ترددت ، فقد  
خشيت أن نطن بسؤالى أنى نادم على اقراضها .. ولكن تردى لم يدم  
طويلا .. فقد أحسست - بالرغم عما قلته من عدم ميلى الى الاستطلاع -  
بلهفة الى معرفة السبب .. وبرغبة شديدة فى السؤال .. وأخيرا سألت .

ولم تحب العجوز للوهلة الأولى .. بل بدا عليها كالتى تجمع شتات  
أفكارها ، أو كأنما الاجابة على سؤالى تحتاجها الى فرط روية وتدبر ..  
وأخيرا أجابت :

- بودى لو قصصت عليك القصة كلها .. فهل لديك صبر على  
سماعها ؟

وأشرت لها برأسى ، فبدأت تقص :

- نشأت فى بيتها منذ نعومة أظفارى ، وهو بيت عريق كريم  
المحتد .. وخدمتها منذ مولدها حتى يومنا هذا .. فما فارقها لحظة واحدة  
وما زلت أنكرها رضىة أمزها بين يدى .. وقد كنت وقتئذ فى حوالى  
العاشرة .. وكنت أراها يا سيدى أجمل خلق الله .. ففى كل دور من دور  
حياتها كانت نموذجاً للجمال .. كانت أبدع طفلة .. وأجمل صببة .. وأشد  
الفتيات فتنة وسحرا .

اجل .. انى لأبصرها أمام عيني أشبه بزهرة بانعة أو ثمرة  
ناضجة .. كل ما فيها مثالى لا هنة فيها ولا خطأ .. خلقها ربما فسواها .  
وانكز كيف تهافت عليها الشبان وقتئذ .. وهى ما زالت فى الخامسة  
عشرة ، وكيف كان أبوها يضيق بهم .

ومرت الأيام .. والفتاة تزداد فى كل يوم سحرا وفتنة .. حتى كان  
ذات يوم ففاتها أبوها بالزواج من رجل كان يظنه أصلىح الناس لها ..  
ولكن الفتاة لم تجبه الا بالصمت ، وبدا عليها وجوم شديد .. ثم عادت الى  
حجرتها ووصل الى أذنى صوت كالبكاء .

وكنت أنا أعلم الناس بما خفى من أمرها .. كنت أدرك تماما سبب  
ما أصابها من حزن ، وكنت أحس مثلها بأن ذلك القول من أبيها كان صدمة  
شديدة لها .. وأنه قد هدم أحلامها الذهبية .. لأن الفتاة كانت عاشقة !  
ولست أود الخوض فى تفاصيل ذلك الحب وكيف بدأ ، فلمست أظن  
به شيئا من الغرابة ، اذ أنه كان صورة لا تختلف كثيرا عما نرى ونسمع  
من قصص الغرام التى لا تكاد تتباين الا فى التفاصيل التافهة .

ولم يكن من العسير على الأب بعد ذلك أن يكشف خبيئة نفس  
الفتاة .. بل لقد علم أيضا بالفتى الذى تعلقت به فتاته ، وجعلته رجلها  
المنتظر .. وبالرغم من أنه لم يجد فيه ما يرضى رغبته هو .. أو يحقق



الآمال التي يرجوها لابنته .. فقد أظهر ترحيبا به وأقبح نفسه بقبوله ما دامت ابنته ترى فيه معاندتها وهناءها .

وتم الزواج .. وانتقلت مع الفتاة الى بيتها الجديد .. وقد أحاطنا جو النعيم ممتع لذيق .. وبدأت الحياة جميلة مزدهرة .. ولست أظننى فى حاجة الى وصف ذلك السحر الذى يفيض من وكر عصفرين جميلين جمعهما الحب وألف بينهما رباط الهوى .. فملأ المكان شلوا وترنينا .. وفاضت عليهما سعادة لو أتيج مثلها للحياة الدنيا لبرات من شقاها .

مرت الأيام وكلنا راض مغتبط ، وأنا أعجب فى نفسى لذلك الضوء الذى يخلعه الحب على الحياة الانسان .. حتى أحسست فجأة بأن ذلك الضوء قد بدأ يخبر ، وأن البقية الباقية منه قد أخذت طريقها فى مهاوى القناء .. لتترك الدار فى وحشة مائدة .

وحتى هذه المرحلة - مرحلة الظلمة التى تسريت من خلال ذلك السناء المشرق والضوء البراق - لست أرى فيها أيضا كثير غريبة .. فما أظن هناك مشعلا أضواء الا والخمود مصيره ، وما أظن ذلك الاشرار فى ربيع الحب انذى أضواء المكان حينما وظل بمنجاة من الغروب .

أجل .. ما كان عجيبا أن نخمد ثورة الحب وتهدا ، بين عاشقين مضى على زواجهما فترة ليست بالقصيرة ، ولكن العجيب أنها هدأت من جانب واحد وخمدت فى نفس واحدة ، فأذا بى أرى الشعلة التى انطفأت فى نفس أحدهما وكأنما انتقلت الى صاحبه فضاغت ما بالنفس الأخرى ، واذا بى أرى الرجل يتبدل أمره ويتطير من قلبه الحب ، فحل محله الجمود والممل والضيق والتبرم ، واذا بى أراها تزداد له حبا ، وبه ولعا وولها .

ولم أحس فى بداية الأمر بذلك التطور الذى طرأ على حياتهما .. ولم ألمس ذلك الحزن الذى مسها ، فقد كانت صبوراً كتوما .. حتى بدأت تطول غيبته عن الدار .. وبدأت أحس ببكائها الصامتة فى سكون الليل .

وفى ذلك الوقت مات أبوها ، فورثت عنه الكثير من المال وخيل الى أن الزوج قد بدأ يرق لها بعض الشيء ، لست أدري ، أكان ذلك محاولة منه لتخفيف لوعتها على أبيها ؟ أم كان له فى ذلك مآرب أخرى ؟  
الله أعلم ! .

على أية حال ، لم تكد تمضى على وفاة الأب فترة قصيرة حتى اشترى الزوج بأكثر أموالها دارا كبيرة أشبه بالقصور ، أضفى هو صاحبها ، ولم تجد هى فى ذلك حرجا ، فقد كانت تعتبره كنفسها ، وكانت لا تجد فارقا بين شخصيهما ، فماله لها ، وماله له .

وفى الدار الكبيرة بدأ الرجل حياة عجيبة ، لا أظنك بمصدقها لو سردت عليك تفاصيلها .. فما أظن هناك امرأة ذاقت من العذاب مثل ما ذاقته المسكينة .. وأقصد العذاب النفسانى القاتل الذى يسرى فى النفس كما يسرى السم فى الجسد ، لا فرق بين الاثنين سوى أن السم يميت لساعته .. أما العذاب النفسانى فليس الا موتا بطيئا .

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه ما استغرق فيه من اللهو خارج الدار .. ولم تكفه عشرات العشقات اللاتي كان يقضى الليالى بأكملها بين أحضانهن تاركا الزوجة الأمينة الوفية . جالسة تنتظره على مقعد فى جوف الليل حتى ينهكها التعب والسهر فتلقى برأسها على المنضدة وتروح فى غفوة حتى أوقظها وأقودها الى فراشها .. وهى لا تشكو ولا تنبرم .. ولا تنكره - بالرغم من هذا - بسوء ، ولا تمبوq اليه اذا ما لقيته فى الصباح لوما ولا تأنييا ، بل تلقاه بقدر ما تستطيع من البشر والبشاشة .

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه كل هذا .. حتى بدأ يخصص فى الدار جناحا لمتعته ! لا تدهش يا سيدى .. فما قلت سوى الصديق .. أجل .. لقد بدأ يحضر عشيقاته الى الدار ويفرد لهن حجرات خاصة .

تسألنى .. وماذا فعلت المسكينة ؟ .

لا شيء .. لا شيء البتة .. لقد استمرت تروى من ماء أجاج ..  
وتطعم المر والحنظل ، وهى صابرة راضية . أو هكذا كانت تبدو .. وأن  
كنت لا أشك فى أن قلبها يحترق ، بل أغلب ظنى أن قلبها قد أضحي فحمة  
سوداء .. لقد كانت تقول انها تحبه ، وأنها لا بد أن تستر عليه ، وتخفى  
فضائحه ، وكانت تقول انها نوبة طيش .. سيزيلها مر الزمن .. وأن  
واجبها هو أن تصبر وتحتمل .. حتى نزول النوبة ، ويعود كما كان ..  
انها امرأة عجيبة . امرأة ليست من البشر فى شيء .. فما أظن أية امرأة  
سواها كان يمكنها أن تحتمل مثل ما احتملت .

وأخيرا .. انتهى الأمر نهاية عجيبة .. وزالت النوبة من الرجل ..  
نوبة الطيش التى كانت تقول عنها انها لا بد زائلة .. ولكن زوالها كان  
بطريقة لا تخطر لها ببال .

لقد كف الرجل عن عشيقاته .. ولكنه استبدل بهن امرأة واحدة ..  
زوجة جديدة !

انى لأحس فى حلقى بنخسة .. بأن مجرد الذكرى تقطع نياط قلبى ،  
وتفري كبدى .. فما بالك بما فعله الواقع .. فى نفسها وفى نفسى !

انها لم تثر ولم تغضب فما كان مثلها ليثور قط ، كل ما فعلته أنها  
أغلقت على نفسها الحجرة حتى حل الظلام .. ثم رأيتها تقبل على  
متسللة وقد جمعت متاعها فى حقيبة كأنها خادمة طريفة .. وأنبأتني بأنها  
ستغادر الدار لأنها لا تحتمل البقاء .. وانهمرت الدموع من عيني ..  
وتمنيت لو استطعت أن أذهب الى الرجل فأمزق جلده اربا .. ولكنى لم  
أملك سوى أن أتبعها .. وخرجنا نتسلل فى جنح الظلام .. كأننا شبهان  
من أثباح الليل .

وصمتت العجوز ، وطال بها الصمت وهى مطرقة الى الأرض ..  
واحترمت صمتها هنيئة .. ثم قلت أستحذها على اتمام الحديث :

- وماذا حدث بعد ذلك ؟ .

فهزت رأسها ببطء ثم أجابت بصوت خافت :

- لا شيء .. ليس أكثر مما ترى .. لقد لجأنا الى هذه الدار القديمة  
ثانية .. وهى كل ما بقى لها مما ورثته عن أبيها .. واستقر بنا المقام فى  
هذه الدار الموحشة المظلمة والوحدة الكئيبة

وبقى الرجل مع زوجته الجديدة .. ربة القصر الواسع الأرجاء ..  
الشماع البناء !

وحاولت العجوز أن تعود مرة أخرى الى صمتها واطرافها .. بيد  
أننى تذكرت السؤال الذى من أجله قصت على القصة .. ورأيت أنها لم  
تجبنى عليه بعد ، بالرغم من هذه القصة الطويلة التى قصتها على ، فلم  
أجد بدا من أن أعيد السؤال مرة أخرى :

- ولكنك لم تخبرينى بعد عما يحدو بسينتك الى أن تبخل على نفسها  
بشراء الدواء ؟

- حمقاء .. بلهاء .. أو قل مجنونة ان شئت .. أتصدق يا سيدى  
أنها بعد كل ما حدث ما زالت تحبه .. وما زال فى قلبها حنين له وعطف  
عليه . لقد حل بالرجل ما كنت أتوقع حدوثه .. لقد تأثرت الزوجة الجديدة  
لنا منه .. سلبته ماله وأفقدته كل ما يمكن أن تفقده اياه .. لقد أضاعت كل  
ما حاولت سيديتى أن تصونه .. لقد أصبح القصر قصرا هيا وأصبح  
الرجل لا يملك الا ما تجود به عليه .

وأخيرا وبعد طول غيبة .. أقبل علينا ذات يوم .. أتدرى لم أقبل ؟  
ليستجدينا بعض النقود ! لا ليمد رمقه ، وإنما لينال من متعه بعض ما  
حرمته زوجته الجديدة .

وللتخيل يا سيدى أنها أعطته كل ما معها .. وهى التى تعيش عيشة

الكفاف ، فى هذه الحجرات المظلمة والأثاث الممزق البالى .. هى التى لا تعتمد فى حياتها الا على أجر الشقة العليا وهو بضعة جنيهها لا تكاد تكفيها .. أجل لقد غفرت له وأعطته كل ما تملك .

ثم تعود بعد ذلك ان يأتى بين آونة وأخرى ليأخذ منها ما تستطيع اعطائه اياه .. حتى أصابها المرض .. ورقدت طريحة الفراش .. وبانت فى أشد الحاجة الى الدواء ومع ذلك فهى ترفض شراءه .. اتدري لم تبخل على نفسها بشراء الدواء ؟ كى تحفظ له النقود حتى لا يصيبه ضيق وغضب اذا لم يجد معها نقودا ! مجنونة هى ولا شك !

وصممت العجوز .. فتذكرت الشاة وتذكرت القصاب وتذكرت خوفها عليه من أن يجرح أصبعه وهو يشحذ سكينه لذبحها ، وقلت لنفسى ما أشد الشبه ، وحاولت أن أمنع دمة همت بأن تطفئ من عيني .. ثم هممت بأن أقول للعجوز شيئا على سبيل العزاء .. ولكنى سمعت على الباب طرقا .. وقامت العجوز لتفتح ، ودلف من الباب رجل ، أحسست بوحى خفى أنه لابد أن يكون القصاب نفسه .. ولقد كان هو بالفعل .. وكان أكثر ما لفت نظري منه احمرار فى عينيهِ وأثار تعب أو مرض بادية على وجهه .

وحياى الرجل بيده ثم دخل الى حجرة المريضة .

واستأذنت العجوز وعدت الى بيتى مكررا عليها :- اننى على استعداد لكل ما تطلب .. فأبديت أبلغ آيات الشكر والحمد .. وأنبأتني بأنه ليس أمامها ملجأ سوى .

ولم تمض نصف ساعة حتى طرقت الباب وبصرت بالعجوز وقد بدا عليها كثير من الفزع والذعر .. فهبطت اليها وسألتها متلهفا :

- أطرأ على سيدتك شيء ؟

- ليس على سيدتى ، بل عليه هو !

- من ؟ .

- سيدى ا زوجها ا .

وأسرعت معها الى الدار فوجدت الرجل جالسا على أريكة أمام فراش المريضة .. التى تركت فراشها .. لتلقاه بين ذراعيها وقد بدا عليها جزع شديد .. وكان الرجل فى اغماء تام .. فأمرت الخادمة بأن تفك له ثيابه ، وأسرعت باستدعاء الطبيب .

وفحصه الطبيب ثم أنبأنى أنه قد أصيب بنزيف فى المخ ، وأنه يجب أن يرقد فى مكانه وأن توضع على رأسه طاقية الثلج .

ولكن الموت كان فى عجلة من أمره .. فلم ينتظر حتى نحضر طاقية الثلج ، ووفر علينا مشقة التمريض ، وفاضت روح الرجل بعد ساعة .. أو بعض ساعة .

ومات الرجل بين ذراعى امرأته الوقية الطيبة ، وخرج الى جدته من بيتها المتواضع القديم .

ولم تمض بضعة أيام حتى أقبلت على العجوز لتودعنى قائلة :  
- انها ستعود هى وسيدتها الى القصر .

وسألتها فى دهمش :

- والمرأة الأخرى ؟

فأجابت بلهجة لا تخلو من الشماتة :

- لقد شُب فى حجرتها حريق أودى بها والحقها بالرجل .

يا للعجب ! لقد هوى القصاب ، واستنقذت الشاة ليت لكل فصاب فيه  
عبرة .

# خبايا الصدور

آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا  
صدورهم .. لو استطعنا أن نخترق  
حجبها .. لولينا منهم فرارا .. ولعلنا منهم  
نعيا .

قلت لصاحبي :

- يخيلى أن مهمة كاتب القصة فى عصرنا هذا قد أضحت مهمة  
شاقة .. فهو لا يجد من حوله مادة تسمه يغذى بها خياله .. فحن فى  
عصر برود وجمود .. ليس فيه من الحوادث ما يلهم القصة ويوحى  
بالكتابة .. وأغلب ظنى أن مهمة اسلافه من كتاب القصة فى العصور  
السابقة كانت أسهل كثيرا .. حيث كانت الحياة مسرحا للحوادث المثيرة  
والمأسى المروعة .. التى تهيب لهم مرتعا خصيبا يرتعون فيه بأذهانهم  
وأقلامهم .. ويمجلون لنا عنها قصصا رائعة .. لأن خير ما كتب للكتاب  
هو ما استوحوه من باطن الحقيقة وما صوروه من صميم الواقع .

وقبل أن يجيب صاحبي .. رأيته قد انتصب واقفا ومد يده مصافحا

امرأة فى منتصف العمر قد أقبلت عليه ، وقدمت اليه رجلا فى رفقته قالت انه زوجها ، وألقى كل منهما الى الآخر ببعض الكلمات النافهة التى يقولها الانسان عندما لا يجد ما يقوله ، ثم ودعته بابتسامة رقيقة ، وانصرفت وزوجها فى سبيلهما ، واتخذ صاحبي مقعده بجوارى مرة أخرى .

وانتظرت أن يقول شيئا عن المرأة .. ولو اسمها .. ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فلم أجد بدا من سؤاله :

- ترى من تكون السيدة ؟

وبدا على صاحبي شرود الذهن .. وأجابنى بعد فترة سكون دون أن يكلف نفسه مشقة النظر الى :

- انها دفاع عما اتهمت به عصرك من ركود وجمود .

ولم أستطع أن أفهم مايقصد للوهلة الأولى فسألته :

- لم أفهم بعد ! أفصح قليلا .

- لست معنولا عن غبائك .. لقد كنت ترمى عصرك بخلوه مما يلهم القصة ويوحى بالكتابة وفى صدر هذه المرأة الهادئة المظهر .. قصة تكذب سوء ظنك بعصرك .. وتلقى عليك تهمة البرود والركود أن لم تخرجها لقرائك كما هى بحذافيرها وتفصيلها .

وبدا صاحبي ي سرد القصة .. قال :

- رأيتها أول مرة ، أرملة حديثة العهد بالترميل .. وكانت فى الثانية والعشرين ، ولم يكن جمالها من ذلك النوع الأخاذ الذى يبهى البصر .. ومع ذلك فقد كانت بها عذوبة ورقة ترتاح اليهما النفس ، وكان أجمل ما فيها شعرها المسترسل ، وعيناها الزرقاوان ، وأسنانها الصغيرة الناصعة البياض ، وبشرتها البيضاء النقية .. كانت المرأة فى مجموعها مخلوقا



لطيفا يمر المرء أن يجالسه ويتمتع بسماع حديثه والنظر اليه .  
وكانت تعيش مع أمها على نخل يهيء لهما حياة هنيئة لينة ولم  
تمض مدة على وفاة زوجها حتى بدأ العشاق والمحبون يلتفون حولها ..  
ولكنها كانت تصدهم في رفق ، وتخبرهم أنها زاهدة في الزواج مرة  
أخرى .

ولكن واحدا منهم كان أشد اصرارا .. فقد كان بالأرملة الجميلة صبا  
مولعا ، وكنت أعرفه معرفة طفيفة .. من ذلك المنتدى الذي تعودت  
الجلوس فيه . وكنت أعرف عنه ولعه الشديد بلعب البوكر . كان شابا  
صغيرا على شيء كثير من الوسامة والأناقة .. تبدو عليه مظاهر الثراء ..  
وأن كنا نعلم جميعا - فيما بيننا - انها لا تعدو المظاهر .. فما كان أهله  
يملكون كثيرا ولا قليلا .. اذ كان كل ما تبقى لهم من ثروة أسرته الكبيرة  
المعروفة لا يعدو تلك الافئدة القليلة وتلك الدار الكبيرة الكائنة في إحدى  
مدريات الوجه البحري التي اعتكف فيها أبوه .

ولم أكن قد رأيت أباه ، ولكني سمعت عنه ، فقد كان أحد كبار  
الرجال ذوي الأسماء الرنانة .. وكان يشغل منصبا كبيرا في السلك  
السياسي .. وكان أبى يعرفه معرفة جيدة ، وأكرر أنه قال لي عنه ذات  
مرة :

- أنه أمرؤ عجيب .. فما رأيت رجلا تجسمت فيه مظاهر النبيل  
وكرم المحتد ، كما تجسمت في هذا الرجل .. انه من ذلك النوع الذي تحس  
بأنه منحك منحة بمجرد أن يحبك ويقول لك : كيف حالك ؟ . لقد أضاع  
كل ثروته في اللعب والنساء .. ومع ذلك تراه كما هو .. بالمظهر نفسه  
وبنفس العزة والآباء .

وسألت عن عمره فأجاب :

- أظنه في التاسعة والأربعين ... ومع ذلك أستطيع أن أجزم أنه ما

زال أجمل رجل رأيته فى حياتى .. لقد كان شديد الجاذبية للنساء .. اجتمع له كل ما يفتنهن .. لطيف المعشر ، حلو الحديث .. وحتى الآن ما زال محتفظا بذلك القوام الفارع الممشوق .. فلم يصبه انحناء ولا ترهل .. لقد أبيض شعره ولكنه ما زال كثيفا لامعا كما هو .. وظهرت بعض التجاعيد تحت عينيه ولكنهما مازالتا تبرقان كعينى طفل .. وما زالت الضحكات الحلوة تشيع على كل وجهه .

ومرت الأيام وأواصر الصداقة تزداد بين الفتى والسيدة الصغيرة .. وذات يوم دعاها وأماها لزيارة دارهم الكبيرة حيث يقطن أبوه .. وأغلب الظن أن الفتى كان يريد أن يعرضها على أبيه .. الذى لم يكن يميل الى مثل هذا الزواج .. فقد كان يريد لابنه أكثر من أرملة متوسطة الحال .. كان يريد فتاة ثرية تستطيع أن تعين ابنه بمالها على أن يحيا تلك الحياة التى تعودها .

وعقب الغداء جلس الأب والأم وحيدتين فى حديقة الدار الواسعة المهملة ، وقال الرجل للسيدة :

- الواقع يا سيدتى ان ابنتك آية فى الجمال .. ولم يعد يدهشنى الآن ان يقع الفتى فى حبها .. فانها تستحق الحب .. ولأصارعنك القول اننى كنت أؤثر ان يتزوج ابنى امرأة أوفر مالا .. ولكنى لم أكد أراها حتى أدركت أنها تستحق أن يضحى المرء من أجلها بكل شيء لديه .. واصبح لا يسعدنى شيء قدر أن تقبل زواجه .

وفى هذه اللحظة كان الفتى يعرض زواجه على المرأة الصغيرة فى ناحية أخرى من الحديقة . وبعد هنيهة أقبل على أبيه يزف اليه نبأ خطبته .

وتم الزواج .. وذهبت لأهنتهما فى الطبقة الاتيقة التى استأجرتها فى الزمالك .. وكان يلوح جليا ان الفتى مازال مولعا بصاحبته .. فقد بدا فى عينيه بريق الحب .. ولكنى لم أستطع أن أتبين الى أى مدى كانت تبادلته

الحب .. فقد كانت من تلك النوع الذى لا تظهر مشاعره واضحة على وجهه ، وان كنت لم أر هناك ما يمنع من أن تبادل الحب نفسه .. فقد كان فى الفتى كل ما يجذب النساء اليه .. جمال ، وشباب ، ومرح ، ورقة حديث .

ومرت الأيام فأخذت سحب الحب تنفث عن رأس الفتى ، وبدأ ينغمس فى اللعب .. ولم تمش فترة قصيرة حتى كان قد استنفد ما كان مع السيدة من مال .. وأخذ يستدين من هنا وهناك .

ووجدت الزوجة أن خير ما تفعل للحفاظ على كيانها البيتى هو أن تلجأ به الى دار أبيه ، فتسقط عن عاتقها تلك التكاليف الباهظة التى يدفعها ثمنا للظهور بالمظهر اللائق ، وتبعد به عن ذلك الوسط الملوث والحياة المليئة بالخمر والميسر ، ولم يكن أسر عليها من ذلك فقد أضلتها تلك الحياة الصاخبة ، وكان بنفسها ميل الى الهدوء والعزلة .

ولم يمانع الفتى بادئ ذي بدء ، ورحب الأب بالزوجين الصغيرين فقد ملأ البيت بهجة وحيورا .. وبدأت السيدة الصغيرة تتخذ مكانها كربة للدار ، فأعادت تنظيمها وتجديدها ، وتعهدت الحديقة بالعناية والتنسيق ، فإذا بالدار تعود الى سابق رونقها فقد كانت السيدة سليمة الذوق خبيرة بالازهار والحدائق .

وسر الفتى أن يرى ذلك الانسجام بين زوجته وأبيه ، فقد كان يحب كليهما ، وكان انهماكهما سويا فى تجديد الدار وتنسيق الحديقة ، يتيح له بين آونة وأخرى أن يفر الى القاهرة ليسكن نفسه بالانغماس فى اللعب مع صحبه ، وعلى مر الأيام أخذت فترات الفرار تكثر وتطول .

ومرة واحدة - ودون أن يدري لذلك سببا ولا علة - بدأ الشيطان يهمس فى نفسه ، ويوسوس فى صدره ، وتملكته رغبة غامضة وشك مبهم ، لم يستطيع أن يحدد بالضبط ما هو ، ولكنه كان يخيّل اليه أن زوجته

لم تعد تأبه له كما كانت من قبل ، وأن أباه قد أخذ يضيق به ذرعا ، فقد بدأ يحس بأنه لم يعد له موضع فى أحاديثهما ، وأن وجوده قد أضحى غير مرغوب فيه وبالرغم مما كان يعلمه الفتى عن أبيه وماضيه مع النساء ، فإن شكوكة كانت من الفتاة فى حد لا ينبغى أن يسمح لها بالتسرب الى نفسه ، على أنه كان يستطيع فى بعض الأحيان أن يلحظ نظرات عابرة بين الاثنين ، لو رآها بين غيرهم لقال ( عشاق ) ، ولكن بين أبيه وزوجته فحاشا لله ، ان ربيته لا يصدقها عقل بشرى !

ورأى الفتى أن خير ما ينقذه من أوهام نفسه .. هو أن يعود بزوجه الى القاهرة فيباعد بينها وبين أبيه .

وذات يوم أنبأهما أنه قد عزم على أن يعود للسكنى فى القاهرة مرة أخرى ، وأن عليها أن تعد نفسها للسفر .

ودهشا كلاهما ، وأجابه أبوه أنه ليس لديه من المال ما يعطيه له لينشئ بيتا آخر ، وأجابت الزوجة : ان القليل الذى كان لديها قد استنفده فى اللعب .

وصرخ الفتى غاضبا ، وأجابها أنه قد أخطأ بزواجه من امرأة ! ووجمت الزوجة وصبغها الأصفرار ، وصاح به أبوه ينهره :

- يجب أن تعلم كيف تخاطب سيدة !

- لمست فى حاجة الى دروسك بعد .

وخرج الفتى مغضبا من الحجرة .. وسافر الى القاهرة ولم يعد الا فى اليوم التالى .. فقابلته زوجته بصداقتها وشاقتها التى عودته اياها كأنما لم يحدث شيء .. أما الأب فما حال عن بعض بردته وفتوره .. وأن لم يمر على لسان أحد منهم نكر لما حدث .

ولكن الأمور سارت بعد ذلك من سيئ الى أسوأ فقد ازداد التوتر

بين الابن وأبيه ، ولم يعد يحاول مبارحة الدار بعد ذلك ، فزادت أعصابه توترا .. وذات يوم ساء السيدة هذا الضيق الذى أصابه فسألته ببساطة وبراءة : لم لا يحاول أن يرفه عن نفسه بالسفر الى القاهرة ليرى أصدقاءه بين آونة وأخرى كما كان يفعل من قبل ؟

واعتقد الفتى انها تريد التخلص منه ، فزادت ريبته وعصف به الشك .. حتى انتهى به الأمر الى مراقبتها والتجسس عليهما .. فتارة يدخل عليهما الحجرة فجأة .. وتارة يتبعهما الى الحديقة .. ولكنه لم يجد بينهما أكثر مما يجد أى زوج بين زوجته وأبيه .

وزادت حالة الفتى سوء ، وبدأت أعصابه تتحطم ، انه لا يستطيع أن يعثر على دليل يؤكد ريبته ، ولا يجد أى أثر لتلك الخديعة التى يتوهمها ، ومع ذلك فهو موفن انهما يخدعانه ، واثق بأن بينهما صلة أكثر البريلة التى يستتران وراءها .

وأحس الفتى بأنه أضحى من فرط الريبة على وشك الجنون .. بل انه جن فعلا .. فلقد رحل الى القاهرة ذات يوم .. ثم عاد وقد استعار مسدسا من أحد أصدقائه .. لقد نوى ان يقتلها معا .. فور أن يعثر بأقل دليل يشير الى تلك الريبة التى تنهش قلبه .

ولا أدري كيف انتهى الأمر بتلك المفاجعة .. فكل ما علمته من خلال المحاكمة أن الفتى دخل على أبيه ذات مرة بقصد تصفية المسألة وانهاائها على أى وجه .. ومصارحته بشكوكه كى يضع لها حدا .

وقامت بينهما مشادة عنيفة انتهت بأن أطلق الفتى النار على أبيه وهو فى نوبة غضبه فأراداه قتيلا .. وعندما أدرك ما فعل انهار على جسد أبيه يبكي بجنون كأنه طفل صغير ، وأقبلت الزوجة والخدم .. فوجدوه يهم باطلاق الرصاص على نفسه فأمسكوا به ونزعوا المسدس من يده .

وكانت جريمة الفتى هى القتل مع سبق الاصرار ، ولم يكن هناك

أى سبيل للدفاع عنه وانقاذه الا سبيل واحد وهو ذاك السبيل الذى حاول محاميه طرده عندما أتى مقابلة السيدة الصغيرة .

لقد كنت هناك وقتئذ ، وكانت أعصابها محطمة تماما ، وأسوا من ذلك أنها كانت حاملا وعلى وشك أن تضع .. وكنت أحاول التخفيف عنها .. عندما دخل المحامى ، وبعد بضع كلمات مما لم يكن بد من قولها ، اتجه الى غرضه مباشرة :

- يا سيدتى .. انك أنت الوحيدة التى تستطيعين انقاذ زوجك .

- أنا ؟ وكيف ؟

- أعذرني يا سيدتى ، فأنا أعلم أنه مطلب شائك وطريق وعر .. وأن التضحية التى سأسألك بذلها هى أقصى ما تستطيع امرأة أن تقدمه ، ولكنها السبيل الوحيد يا سيدتى .

وصمت الرجل هنيهة .. ولكنها أجابته بصوت هادئ النبرات :

- استمر .

- السبيل الوحيد لانقاذه .. هو أن تعترفى بأنه كانت هناك بينك وبين المرحوم أبية علاقات غرامية .

وكنت أصبح بالرجل : يا للمجنون ؟ أى حماقة تلك التى انتابت الرجل ؟

والثفت الى السيدة لأهدىء من روعها ، ولكنى وجذتها صامتا ساكنة .. وقد أطرقت هنيهة ، ثم رفعت عينيها الى الرجل ولم تزد على ان قالت :

- سأفعل يا سيدى .

وانتهت المحاكمة بتبرئة الزوج وإرساله الى المستشفى الأمراض العقلية بعد أن برت السيدة بوعدها وعادت الى العيش مع أمها .

ثم علمت بعد ذلك أنها قد وضعت طفلا .. وبعد شهرين علمت أن  
الطفل قد مات .. وذهبت لزيارتها فوجدتها شديدة الحزن . فقلت أخفف  
من لوعتها :

- لا تحزنى فقد رحمه الله .. لقد أخذه قبل أن يعرف أن أباه قاتل  
مجنون !

وانتفضت المرأة ورفعت عينين حجبتها من الدموع وقالت  
في صوت مبجوح :

- لم يكن أبوه بقاتل ولا بمجنون .. لقد كان أبوه خير الرجال ..  
أنى لم أقل فى المحكمة غير الصدق !

وقف شعر رأسى .. ولم أنبس ببنت شفة .. وغادرت المرأة فلم ألقها  
الا اليوم مع زوجها الثالث .. قانعة راضية .. كأن لم تصدم حياتها حادثة  
ولا كارثة .

وصمت صاحبى هنيهة ثم أرفف كأنه يحدث نفسه :

- آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا صدورهم .. لو استطعنا ان  
نخترق حجبها .. لولينا منهم فرارا .. ولملنا منهم رعبا .

★ ★ ★





# صاحبة الحقيبة

ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على العكس  
لقد سره الا تكون المرأة خيرا من ذلك ..  
وأسرع الى حقيبته فحملها في يده ، وجذب  
المرأة بيده الأخرى الى حجرته .. فقد كانت  
صاحبة الحقيبة .

ما أشبه حياتنا في هذه الدنيا بطريق متسع ، رحب الأرجاء ، ساطع  
الأضواء .. تبدو فيه بين آونة وأخرى منعطفات وأزقة مظلمة ضيقة ..  
كثيرة الانحناء والالتواء .. والإنسان في هذه الحياة مخلوق عجيب .. اذ  
ليس في استطاعته أن يداوم السير في هذا الطريق المتسع المضيء ،  
السوى المستقيم .. وهو يرى دائما ما يستهويه في تلك الأزقة المظلمة ..  
ويحلو له أن ينمطف بين آونة وأخرى فيخوض ظلماتها ، والفرق في هذه  
الحياة بين إنسان وآخر ، هو قدرته على العودة سريعا من أزقة الحياة الى  
طريقها المتسع المستقيم ، وفي قدرته على الا يضل سبيله فيقضي عمره  
يتخبط في المنحنيات والمنعطفات ، فلا تعود عيناه تبصران النور .

وما نظن أن انمانا استطاع في هذه الحياة أن يسلك بنفسه ذلك

الطريق السوى المعبد .. دون ما يحاول مرة .. أو مرات .. ان ينعطف بها من الأزقة .. سواء اكان فى محاولته تلك متسترا أو مكشوفاً .. وسواء أكان ذلك منه بجسده أو بذهنه .. فكل امرئ - مهما بدا من براءة ظاهره وسلامة مسلكه - له أزقة التى تفرعت من طريق حياته .. والتى غمر فيها نفسه لحظة أو لحظات ، ووجد فى ذلك الانغمار متعة ونشوة .. ولذة مسروقة مختلسة لم يجدها فى ذلك الطريق الحافل الصاخب .. أجل .. كل امرئ قد ذاق منعة الأزقة ، ان لم يكن بلسانه فبجنانته .. وان لم يكن باللمس فبالحسن .. اللهم الا الأنبياء المرسلين .

ولم يكن صاحبنا ليتطاول بنفسه الى زمرة الأنبياء والمرسلين بل كل يعلم تمام العلم أنه انسان كغيره من البشر ، ولكنه كان مع ذلك يعتقد أنه اقلمه انعطافاً فى أزقة الحياة .. بل لم يكن ليحسب انعطافه انعطافاً بمعنى الكلمة ، اذ كان كل ما يفعله لا يزيد على ان يمد بصره ليتطلع الى ما فى تلك الأزقة .. ولينعم فيها ببصره وبخياله .. ثم يعاود السير فى طريقه مرة أخرى .

كان يعتقد أن هذا هو أهون الشر وأيسر الخطايا .

وجلس الفتى يستعرض فى ذهنه ما مر به من أزقة فى طريق حياته .. وشرد فيها بصره من نافذة القطار ، وأخذت المناظر تتتابع أمام عينيه فى سرعة خاطفة .

لم يحس الفتى بأنه شرير .. ولم ير أنه اقترب فى تلك الأزقة ما يشينه أو يورثه الندم أو الخجل .. فقد بدأ حياته بحب فتتهى بزواج فلم يحد فيه عن الطريق المستقيم .. ومنذ زواجه لم يزد ما صادفه فى طريقه من أزقة على عدد محدود يعد على الأصابع كان يمر بها مر الكرام .. ولم يزل ينكرها تماماً ، فقد كان أولها تلك الفتاة الشقراء التى تعود أن يلقاها كل يوم فى طريقه الى عمله .. وابتمت له ذات مرة .. ثم تحدثا سوياً ..

ولم يزد كل ما قام بينهما على ذلك الحديث ، وكان ثانيها تلك الفتاة ذات الوجه الخمرى المتورد .. التى كان مرآها يحدث فى نفسه هزة ونشوة ، واجترأ مرة على مخاطبتها فجاذبته حديثا ليلا رقيقا .. ثم عادت وأنكرته ، وثالثها .. ورابعها وخامسها ، وكلها لا تزيد على علاقات سطحية عابرة .. أو اعجاب من طرف لا يحس به الطرف الآخر .

وكان الفتى يتخيل أن تلك الأيام التى قد أضحى عمله يضطره فيها الى السفر الى الاسكندرية بين آونة وأخرى ستكثر من تلك الأزقة فى طريقه ، ولكنه - حتى الآن - لم ير الا طريقا يستقيم على مدى البصر .. حتى أحس بالملل يتطرق الى نفسه .. وبات يتمنى لو يسنح له منعطف يزج بنفسه فيه .. خلال تلك الأيام التى يشعر فيها ببعض الحرية بعيدا عن امرأته .

وعندما وصل القطار .. كان الليل قد أرخى سدوله .. فقام الفتى وأدلى بحقييته من النافذة الى أحد الحمالين الذى حملها مع بضع حقائب أخرى وسار بين الجموع المتحركة الى الخارج .

وأشار الفتى الى احدى عربات الأجرة .. وبعد لحظات كان الحمال يدفع بالحقيبة فى داخلها .. وتحركت العربة تحمل الفتى الى الفندق الذى تعود النزول فيه .

وأحس بالكثير من الراحة حينما ضمته الحجرة الهادئة الأنيقة ، ولم يكن فى نيته أن يسير تلك الليلة ، فقد أنهكه ذلك الجهد الذى بذله طوال يومه وعزم على أن يأوى الى فراشه مبكرا ليستعيد نشاطه .

وقام الى حقييته ليخرج منها ما يحتاجه الى النوم ، ولكنه لم يكد يفتحها حتى بدرت منه صيحة دهمش ، فقد ذهل حين وقع بصره على ثوب حريرى أخضر لا يمكن أن يكون له .. وأدرك للوهلة الأولى أن الحقيبة قد بدلت ، وبالرغم من أن ما فى حقييته لم يكن بذى قيمة فيشعره فقدما

بخسارة جسيمة - اذ كانت أوراقه الهامة موضوعة فى حقيبة صغيرة حملها فى يده - فقد تملكه الضيق .. اذ لم يكن ليستغنى قط عن البيجاما والشبشب وأدوات الحلاقة وغيرها من التوافه اللازمة لكل رجل .. كذلك لم يكن يسره أن تقع تلك الأشياء الخاصة تحت بصر شخص غريب .. أغلب الظن أنه يحملق فيها الآن كما يحملق هو فى هذه الحقيبة .. وساءه أكثر من هذا وذلك أن يكون ذلك الشخص .. امرأة فقد بدا جليا أن الحقيبة لا يمكن أن تكون الا لامرأة !

ونفذت الى أنفه رائحة عطر يفوح من الثوب الحريري الأخضر .. فتركته ثملا نشوان .. لقد كان عطرا عجبيا ، ما عرف الفتى مثله من قبل ! وأغلق الحقيبة ليفحصها من الخارج .. فاذا بها تماما كحقيبتيه .. الحجم نفسه .. واللون نفسه .. لقد كان الحمال معنورا .. فما من أحد يستطيع أن يميز احدهما من الأخرى .. على أية حال لم يكن الخطأ بالشئ الذى يستحيل تداركه ، فما عليه الا أن يرسل الحقيبة الى ناظر المحطة .. ولا شك فى أن السيدة ستعيد حقيبتيه فيستعيدهما من هناك .. ومد يده الى الجرس ليستدعى الخادم ولكنه أعادها الى جانبه مرة واحدة . فقد طاف برأسه خاطر مفاجيء .

ان هناك طريقا آخر لاسترجاع الحقيبة .. طريق بلوح فى نهايته بريق متعة ، طريق يودى به الى أحد تلك الأزقة التى يتمناها .. الا يحتمل ان يكون بالحقيبة ما يدل على اسمها وعنوانها .. فيذهب هو اليها لاعادتها بنفسه ؟ .. ومن يدري .. ؟ !

وشعر بآثار خفيفة من ذلك العطر الذى نفذ الى أنفه منذ لحظات ، فمد يده الى الحقيبة وأعاد فتحها .. فاذا بالعطر يحتويه فى جوه الملىء بالسحر والفتنة .. وجنب الثوب الحريري الأخضر ليكشف عما وراءه .. فاذا بصره يقع على كل ما يروحى بالأناقة والجمال .

حقاً لقد صدق من سماهن و الجنس اللطيف ، .. فكل ما فيهن ..  
وما حولهن .. وما يتعلق بهن .. لطيف رقيق .. لقد بدأ الفتى بحس بفرط  
الخجل من حقيقته ومحتوياتها .. عندما تراءى له أنها قد تكون مشرعة  
فى اللحظة نفسها لعينى المرأة الساحرة .. وعندما تخيل أن أول ما سيصدم  
بصرها .. هو ذلك الشبشب البالى العتيق .. ونمى أنه لو يحضره .. ولو  
سار عارى القدمين .. ثم بصر بها تقلب بازراء فرشة الحلاقة التى لم  
تبق بها الا بضع شعيرات فكأنها رأس أصلع .. وصابونة الحلاقة التى قد  
أضحت أثراً بعد عين .

وتذكر الفتى بقية ملابسه .. لقد كانت كلها من نوع عادى ،  
والبيجامة قد بهت لونها وبدأ بها أثر البلى .. والفانلات كذلك لا تخلو  
أحداهما من نقرة أو نقرتين ، لعنة الله عليه ، أنه دائماً يؤجل تجديد  
حاجياته ، فلا يبدل بها الا بعد أن تسمى فى الرمق الأخير .. لا شك فى  
أن المرأة ستظنه كهلاً أخنى عليه الدهر .

وعاد العطر ينفذ الى أنفه .. ويوحى اليه بأن هذا هو شذى أنفاسها  
وأريج جسدها الناضر البض ، وبدأ يراها بعين الوهم .. أنيقة رشيقة ..  
ممثلة فى تناسق واستواء .. وبصر بوجهها من خلال تلك العطر فاذا به  
ساحر فائن .. وبذلك الشعر الذهبى المتهدل .. والأعين الملونة الفاتحة ..  
والفم الذى يفيض بالعذوبة والاعزاء .. لقد أجاد الفتى تصورهما فوضع فيها  
كل ما يتمنى .. ولكن هبه قد وجدها عجوزاً عجفاء .. قبيحة شوهاء ..  
من أولئك المجائز الأجنبية اللاتى يتعلقن بأهداب الصبا والشباب ! لا ..  
لا .. هذا شيء مستحيل .. ان قلبه لا يخطئ الحقيقة !

وبدأ الفتى يفتش فى محتويات الحقيقة .. ولكنه أحس ببعض  
التردد .. لقد شعر بأنه يرتكب أمراً نكراً ، وترك الحقيقة ثم اتجه الى باب  
الغرفة فأحكم اغلاقه تماماً كما يخلقه لو كانت معه المرأة نفسها . لقد عزم

على أن يفحص كل ما فى الحقيقية قطعة قطعة .. ولم يكن يرغب فى أن يزعبه أحد .

وبدا له أن اللون الأخضر هو اللون المحبب الى نفسها .. فكل ما وقع عليه بصره كان أخضر اللون .. المشط .. والمرأة ، وعلية البودرة .. وأحمر الشفاه والخدود ، وأشياء أخرى لم يستطع أن يعرف فائدتها .. كل هذه كانت خضراء .

ووجد الفتى حرف « ز » على حقيبة صغيرة ، ولم يجد سواء .. فلم يستطع أن يميز اسمها بالضبط .. قد يكون زيزى أوزوز .. أو زينب .. أو زكية .. أو زبيدة .. على أية حال انه يرجع أن تكون « زيزى » فهو اسم حبيب الى نفسه .

ووجد كتاباً قلبه بين يديه لعله يجد أثر لاسم أو كتابة تهديه الى صاحبة الحقيقة .. فلم يجد شيئاً .

ثم أبصر ثوباً للنوم .. أخضر فسحقاً قد طبق بعناية بالغة ، ووضع فى ركن الحقيقة .. وبدأت الدنتلا فى صدره دقيقة رقيقة .. وأمسك الفتى بالثوب بين يديه وقد علت دقات قلبه .. ومد أصابعه يتخيل طياته ويتحسس صدره .

ونهب الى عمله فى الصباح التالى .. وقضى يومه غائب ذهن .. فقد ترك ذهنه يجول فى الحقيقة ويعيث بمحتوياتها ، ويتخيل لقاء صاحبته الفاتنة الساحرة .. وقبل المساء عاد الى الحجرة وهو يحس كما لو كانت هناك امرأة تنتظره .. امرأة ترتدى ذلك القميص الأخضر ، ويفوح منها عطر ينفذ الى القلب قبل أن ينفذ الى الأنف .

ودخل الفتى الى الحجرة وأضاء النور .. فرأى ما ملأه دهشاً ، لقد أعدت صاحبة الفندق الغرفة للنوم .. ليس له فقط .. بل لامرأة أخرى .. لقد وجد الحقيقة فارغة على أحد المقاعد .. وأبصر أدوات الزينة قد صفت

على التسيريحة والشبشب الأخضر الأنيق أمام الفرائش ، وأبصر القميص الأخضر قد علق على المشجب .. لقد أعد كل شيء حتى بات الفتى يحس بأن المرأة موجودة في الغرفة فعلا .

وشعر بأنه ارتكب خطأ .. فما كان له أن يبقى الحقيقية في الحجرة .. ولكنه لم يستطع أن يقاوم ذلك الشيطان الذي يكمن في نفسه ، والذي يتحرك ليحطم القيد كلما لاح له شبح امرأة فاتنة .. أو نصف فاتنة .. انه رجل متزوج ، يمثل نموذجا لزواج سعيد ، فامرأته لا تقل في الجمال والفتنة عن أولئك النساء اللاتي يتحرقن شوقا اليهن ، بل انه كان في وقت ما - قبل أن يتزوجا - لا يرى في الحياة من هو أجمل منها ، وهي لطيفة المعشر ، ذكية عاقلة ، أمينة مخلصه ، تحبه كأشد ما تستطيع امرأة أن تحب ، وهو كذلك يبادلها الحب نفسه والاخلاص ذاته ، ومع ذلك ، ومع كل هذا كان الفتى لا يستطيع ان يقتل في نفسه ذلك الحنين الى الجمال والهيل الى الفتنة .. وما كان في قدرته أن يسكت ذلك الشيطان الذي يوسوس في صدره .. كلما بدا له وجه فائن أو صدر مكتنز أو سوق ملفوفة ممثلة ، لقد كان يعتبر حبه لزوجه شيئا ، وتلك المغريات شيئا آخر .. لا علاقة لها بالاخلاص أو الخيانة .

وكان يشعر بأن هذه المرأة التي لم ير منها سوى الحقيقة ومحتوياتها .. قد أغرته كما لم تغره امرأة من قبل فقد أحس بأن نفسه لهفة اليها وحنينا الى احتوائها بين ذراعيه .

وخطر له في تلك الليلة أن يفتعل بقطعة من الصابون المعطر وجدها في الحقيقة .. وكانت القطعة قد استعملت من قبل ، فأحس وهو يمس بها جسده .. بأن تيارا يسرى في كيانه .. لقد نمت القطعة من قبل جسدها اللدن الغض .

وتمدد في فراشه وقد فاح منه ذلك العطر العجيب .. لقد أحس بأن المرأة قد باتت منه على قيد خطوات .. وأنها قد أصبحت جسدا واحدا .

وتمطى الفتى وتثائب ، ومد يده ليمسك بالكتاب الذى وجده فى الحقيقة ، ولكنه ما كاد يضع يده على غلافه حتى شعر بالباب يفتح فجأة دون سابق انذار ، واذا بزوجه تقف بهذا الباب وقد علت وجهها ضحكة مشرقة .. كأنما قد سرها أن تفاجئ زوجها .

ولم تطل الضحكة ، فقد حل محلها دهش وذهول وسرعان ما تحول الى غضب شديد .. أن زوجها لم يكن وحده ، لقد كان مع امرأة أخرى ، وتلك آثارها تدل عليها .

وصعق الفتى فقد وجد أن من العسير عليه أن يحاول اقناعها بالحقيقة ، وأن المسألة كلها خطأ فى الحقيقة ، فقد كانت كل المظاهر ترجى بأنه ينتظر امرأة ، وأن المرأة مستبيت معه ليلته .

وقبل أن يفتح الفتى فاه ليفسر الأمر ، أبصر الخادم يطل برأسه من الباب ليخبره فى أدب امرأة تريده !

يا للكارثة ! ، جاءك الموت يا تارك الصلاة .

أى امرأة تلك التى تريده فى ذلك الوقت وهو الذى لم تسأل عنه امرأة قط ؟ . أى ظروف خرقاء تلك التى دفعت امرأة - أيا كانت - الى السؤال عنه فى ذلك الوقت الذى لا يتمنى فيه شيئا ، سوى ألا تسأل عنه امرأة .

ولم تطق الزوجة صبرا فانهارت على أحد المقاعد وعصف بها الحزن فاستغرقت فى بكاء عنيف .

ووقف الفتى حائرا هنيهة ، ثم خرج من الحجرة ليرى المرأة التى تريده ، فاذا بها عجوز متصابية قد ارتدت ثوبا أخضر ، واستطاع الفتى أن يلمح على حقيية يدها حرف « ز » ، ثم أبصر فى ركن الصالة حقييته المفقودة !

إذا فهذه صاحبة الحقيقة ! .. ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على



العكس ، لقد سره الا تكون المرأة خيرا من ذلك ، وأسرع الى حقيقته  
فحملها فى يده وباليه الأخرى جنب المرأة الى حجرته وصاح بزوجته :

- هذه هى المرأة التى تريدنى .

ثم صاح بالمرأة :

- أخبريها ماذا تريدين ! .

وتعاون الثلاثة على اعادة حاجيات المرأة الى الحقيبة ، وشرذ ذهن  
الفنى فأبصر طريق حياته يبدو مستقيما كما كان ، وحمد الله أن انعطافه  
كان فى احدى تلك الأزقة القصيرة التى سرعان ما يعود المرء منها الى  
طريقه السوى مرة أخرى .

★ ★ ★



# بجانبى البريد

كان الفتى العاشق أكثرهم لهفة الى البريد ..  
حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه  
خيفة .. ويسميه فيما بينه وبين نفسه  
«مجنون بوسنة» .

كان الطريق طويلا ، والسفر يملأ النفس وحشة وملا ، فما تقع  
العين الا على صفرة الرمال الممتدة المترامية .. حتى ليرتد البصر من  
فرط الحملقة فى لا شىء كليل متعبا ، ويصيب النفس ضيق وتبرم عندما  
تمر بها مئات الأميال من الصحراء القفرة الجرداء ، دون تغير ولا تبدل ،  
ففترق فى لهفة لأن تبصر أثرا من آثار الحياة . ومهما كان نافها فانه يقطع  
به ذلك الحبل الطويل من الجمود والمآمة .

كانت العريتان تنهبان الأرض نهبا .. وقد جلس فيهما صاحبنا مع  
بضعة جنود فى طريقهم من الواحات البحرية الى القاهرة وقد خيم على  
الجميع صمت ومادهم سكون . وجلسوا فى أماكنهم لا يتدر منهم اشارة  
ولا حركة اللهم الا تلك الهزات والقفزات التى كانت لا تقفأ تراوهم بين  
آونة وأخرى كلما صادفت العربة ثلعة من ثلعات الأرض .

وبدا صاحبتنا فى شرود تام عن كل ما حوله . لقد كان جالسا فى  
العربة ، البيك أب ، الى جوار السائق بجسده فقط ، أما ذهنه فقد كان  
فى غيبة بعيدة ، اذ كان يحلق به فى أجواء تختلف كل الاختلاف عن تلك  
الجو الذى يشتمله جسده .. أجواء لذينة ممتعة : لا قفراء ولا جرداء ، لا  
وهاد ولا نجاد بل خضرة ونضرة ، وسحر ونشوة .

لقد تنامى بذهنه الى القاهرة ، فقطع تلك البيداء الشاسعة الى لمح  
البصر ، تاركا جسده يعلو الغبار وتحطمه المطبات ، . وفير بتفكيره  
حيث المدينة الساخبة يستعرض تلك الأمنيات التى هى على وشك أن  
يحققها بعد بضعة ساعات .

لقد مضى عليه عام منذ أن غادر القاهرة آخر مرة . واستقر مع  
وحشته فى الصحراء التى تشرف على الواحات البحرية ، وما هو ذا يعود  
اليها اليوم بعد فرط حنين ، وطول لهفة وشوق ما أعجب أمره ! كيف  
استطاع أن ينتظر تلك الشهور الطويلة دون أن ينفد صبره وهو اليوم يتعجل  
الدقائق والثواني !

هذه الشهور التى مرت عليه دون أن يبصر فيها وجها جميلا ، أو  
يسمع صوتا عذبا ، أو يتمتع بلقاء هنيء .. كيف استطاع احتمالها ؟ لا شك  
فى أن الفضل بذلك يرجع الى تلك الكوكبة من الرفاق الذين تغيض نفوسهم  
مرحا وتشبع قلوبهم بشرا ، والذين جعلوا من تلك البقعة الموحشة موطننا  
للضحك والسرور ، وخلقوا من الملل والكابة أنما وجورا .

كانت حياتهم سلسلة فكاهات وأضاحيك ، حتى انه ليكاد يجزم بأنه  
ما ضحك فى حياته قط قدر ما ضحك وقتئذ .. كان مرح الشباب يهيم  
لهم مادة من الضحك لا تفتى فكانوا يضحكون من كل شيء بل من لا  
شيء .

وكان أكثر ما يضحكهم ، هو صاحبهم العاشق ، ولم يكن تميزه بذلك

الصفة ليعنى أنه لم يكن بينهم عاشق سواء . بل على العكس .. لقد كانوا كلهم عشاق ، فالعشاق والصبا توأمان وهما صنعوا الشباب ، ولكنهم اختصوه بتلك الصفة لفرط ما به من وله وصباية . ولأنه كان عاشقا مستجدا ، اذ كان حديث عهد بالخطبة . وكان رحيله الى ذلك المكان الثانى قد حرمه من أمتع أيامه وأهناً لباليه وزاده صباية على صبايته وأضرم فى نفسه نار الشوق ولهيب الوله .. ولم يكن الفتى العاشق ليقل عن صحابه ميلا الى المرح واللهو ، بل ربما كان أكثرهم دعابة وأطفهم فكاهة .. فلم يكن فى هواه بالياكى الملتاع الذى تركت الفرقة عنده أشجانا وأحزانا ، بل جعلت منه منبعاً للتسلية ومصدراً للطرب والمرح .

كان الفتى لا يأتى شينا سوى الغناء ، وسرد الشعر ، والجلوس على حجر أمام مكتب البريد ! . أما الغناء فقد كان ولو عا بالمواويل يحفظ منها كمية هائلة .. وكانت له قدرة عجيبة على القائها .. وكان أحبها الى قلبه موال ما فنى يردده فى كل أونة ، وهو : يابو الطقية الشبيكة مين شاغل بالك ؟ . أما الشعر ، فقد وعى منه ذاكرته كل ما قيل فى الهوى والعشق ، والغزل والتشبيب مما للمجانين والعقلاء والأحياء والأموات ، أما جلوسه أمام مكتب البريد فمسألة فيها كثير من الطرافة .

كان مكتب البريد فى البحرية - وأغلب الظن أنه ما زال - عبارة عن حجرة بجوار دار المأمور ، ولم يكن هناك شئ يثير الحق فى نفوس الصحاب المرحين ، ويملؤهم ضيقاً وغبناً قدر تأخر البريد الذى لم يحدث مرة واحدة أن وصل فى موعده فقد كانت وسيلة نقل البريد بين القاهرة والبحرية - وهى مسافة تقرب من الأربعمئة كيلو متر ليس بينها متر واحد ممهد بالأسفلت - هى عربة « فورد » بلغت من الكبر عتياً ، شعارها فى الثانى المسمة ، فهى تكره العدو ، حتى لتخالها فى بعض الأحيان تمشى القهقرى ، وكثيراً ما ينهكها المير ، فتقف فى الطريق لتستريح ، وقد تطول بها الراحة الى حد أن ينسى سائقها أمر ذاهب الى القاهرة أم عائد

الى البحرية . وكثيرا ما كان أصحابنا يهجمون على عربة البريد وينفوسهم لهفة الى ما حملته اليهم فاذا بها بعد طول غيبة ، قد أعادت اليهم بريدهم الذى رحلت به .

وكان الفتى العاشق أكثرهم لهفة الى البريد ، حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه خيفة ، ويسميه فيما بينه وبين نفسه . « مجنون بوسنة » . فقد انتهى الأمر بالفتى من فرط ما أصابه من تأخير البريد ، أن انتفى حجرا ووضع أمام حجرة البريد . فلا تكاد الشمس تشرق حتى يتخذ محله عليه مضربا عن كل أعماله ، ولا يفارقه حتى تلفه ظلمة الليل .

ومرت الأيام والرفاق فى مجونهم ومرحهم ، حتى حولت لهم العودة الى القاهرة فى اجازات قصيرة ، الواحد تلو الآخر . ولم يكن هناك شك فى أنهم يرون أن حقهم فى أن يكون البادئ بالاجازة هو صاحبهم العاشق ، ولكن الفتى أصيب فجأة بالمalaria . فاذا هو لسوء الحظ طريح الفراش قد حطمته الحمى ونهكت قواه ، فوقع الاختيار على صاحبنا ذاك الذى قد جلس فى العربة وقد سبق ذهنه جسده الى القاهرة الصاخبة .

جلس الفتى يرقب فى رأسه .. كيف هو سيقضى الأيام الخمسة التى صرحوا له بها .. خمسة أيام فقط ؟ . لقد كان عليه ان يفكر جيدا فى كيفية الانتفاع بها والا سرقه الوقت وأفلتت منه تلك المتع التى كان يحلم بها .

لقد كان أول ما يجب عليه عمله ، هو أن يخفف من تلك المهام الثقيلة التى كان يجب عليه أن يؤديها وأولها هو زيارته لبيبوت رفاقه وإيصال رسائلهم اليها ، وكان عليه أن يبدأ ببيت صاحبه العاشق ، وتلك هى أثقل المهام .. فقد كان يكره أن يكون رسول شر ، وأن يحمل الى الناس من الأنباء ما لا يسر ، ولكنّه كان مضطرا لأن يقابل خطيبة صاحبه ويحمل اليها نبأ مرضه بالمalaria مخففا قدر الامكان ويطمئنها عليه ويبلغها أشواقه ، وعليه بعد ذلك أن يقوم بتلك الزيارات الرسمية التى لا بد منها .

على أية حال يجب الا يعطى لكل هذه الأمور السخيفة أكثر من يوم واحد  
ثم يتفرغ بعد ذلك الى ما هو أهم وأمتع . أجل . عليه أن ينظم وقته بحيث  
يتمنى له أن يقابلهم جميعا ، وأن يعوض نفسه ما فاتته فى خلال تلك الغيبة  
الطويلة .

★ ★ ★

الفتى الآن قد وصل الى داره فعلا بذنه وجسده معا .. وقد انتهى  
من احتضان وتقبيل كل من فى الدار ، وخلع حلته العسكرية وأزال عناء  
السفر .. ثم ارتدى البذلة ، الكحلى ، و ، الياقة المنشوية ، وهى أرصن ما  
يمتلك ، ووقف أمام المرأة لحظة .. ثم أنطلق من الدار وسط عاصفة من  
احتجاجات دون أن يأبه لرجائهم بأن يمكث بينهم قليلا فيطفىء شوقهم  
اليه .

لا . لا . أن المدة خمسة أيام فقط . انه فى عجلة من أمره ! وبعد  
فترة قصيرة كان الفتى يسير فى شارع الملك يحملق فى ارقام الدور حتى  
وقف أخيرا أمام الرقم المطلوب .

يا للعجب ! . أهذا هو حقا بيت الخطيبة المطلوبة ! . انه لم ينجيل  
قط أنه يمثل هذه الفخامة .. لا شك فى أنها ( لقطة ) . ترى كيف استطاع  
صاحبه العثور عليها ؟

ودفع الفتى الباب الحديدى وعبر الحديقة الواسعة الغناء ثم صعد  
بضع درجات وضغط الجرس ، ولم يطل انتظاره فقد فتح الباب وأطل منه  
وجه لم يشك فى أنه وجه خطيبة صاحبه .

أجل أنها هى بعينها ، كما أبصرها فى الصورة التى أراه اياها ! بل  
لقد كانت فى الحقيقة تبدو أصغر منها فى الصورة ، وتأملت الفتاة هنيهة  
متمائلة بعينيها عما يطلب ، ولكنه لم يكذبفتح فاه بالحديث حتى صاحبت

باسمه فى دهمش كأنما قد استطاعت تمييزه فجأة وطلبت منه الدخول مرعبة  
دون كلفة .

ودهمش الفتى عندما علم أنها عرفته من بعض الصور التى أخذت  
لهم مع صاحبه فى الصحراء ، وأدهشه أكثر من ذلك أنها تعرف عنه وعن  
رفاقه الشئ الكثير .

وجلس الاثنان فى حجرة تطل على الحديقة وكانت الشمس قد  
توارت فى الحجاب ولم يبق من ذكرهما الا فلول من الشفق الأحمر قد  
أخذت تنحدر أمام جيوش الظلمة .

وبدا الفتى يفكر كيف يسوق اليها نبأ مرض صاحبه دون أن  
يزعجها ، وأخذ ينتقى فى ذهنه وسائل اللف والدوران التى يمكن أن يسلكها  
الى غرضه دون أن تصدم الفتاة .

وتعجب فى نفسه من تلك اللهجة التى كانت تخاطبه بها الفتاة ..  
حقيقة أنه ضيف ، وأن الأدب والرقّة وأجبان فى مثل هذه الحالات ، ولكن  
رقتها نحوه كانت - الى حد ما - أكثر مما يستحق أو يتوقع .

ووجد الفتى نفسه - دون أن يدري - يسترق النظر الى ساقيها ،  
فاذا هما آية فى التناسق والجمال ، ثم ارتفع ببصره شيئا فشيئا وأخذ يفحص  
بقية الجسد . فزاعه ذلك الانسجام والاستواء ، وانتقل الى الوجه فأحس  
بسحر يشعر من عينيها وفتنة تفيض من شفثيها !! لقد كان صاحبه معذورا  
فى جلوسه على الحجر أمام مكتب البريد ، ولو كان هو مكانه ، لما استطاع  
أن يحتفظ حتى الآن بقواه العقلية !

وبدا الفتى يقص ما جاء من أجله ، ولم يأخذ ذلك منه سوى لحظات  
قصيرة .. وأدهشه أنه لم يبد على الفتاة ما كان يتوقعه من انزعاج وحزن ،  
ولم يزد ما قالته تعليقا على قوله عن بضع كلمات تمننت لصاحبه فيها  
الشفاء .



ولم يجد بعد ذلك ما يقوله .. فقام من مكانه مستأنفا في الانصراف ،  
ولكن الفتاة نظرت اليه في دهش ، وقالت :

- أيمثل هذه السرعة ؟

ثم أطرقت وأردفت بصوت خافت :

- أنا أعلم أن اجازتك لابد وأن تكون قصيرة ، وأن الساعات عندك  
ثمينة ، أتمن من أن تقضيها في زيارة بيوت الأصدقاء ولكن كان يسعدني  
أن تمكث عندنا بعض الوقت ، حتى نتناول الشاي على الأقل .

ولم يسمع الفتى الا أن يجلس ، ولم يسهه أيضا - بالرغم منه - أن  
ينكر أن استبقاء الفتاة له قد أسعده ، وأنه قد بات يسره أن يقضي معها  
مدة أطول ، وأخذ يرقبها مليا ، وهي تتحدث عن الجو وعن الحديقة  
والزهور ، وعن كل شيء الا صاحبة .. ووجد نفسه يجاذبها الحديث ،  
وكان بينهما صحبة قديمة . فقد كان يحس في نفسه بأنهما قد التقيا قبل ذلك  
مئات المرات وكان يشعر أن الجو الذي شملهما مليء بنشوة ممتعة شبيهة  
بتلك النشوة التي تسود جو العشاق .

وصعدت الفتاة فجأة ، وحدثت فيه حينا ، ثم هزت رأسها متسائلة :

- يخيّل الى أنني قد النفيت بك قبل الآن . لست أنكر متى ؟ وأين ؟  
ولكنني أكاد أجزم في نفسي أنك لست غريبا عني .

وضحك الفتى وتأملها هنيئة ثم أجاب :

- هذا ما أحس به نفسه وقد يكون اللقاء قد حدث فعلا ، ولكننا لم  
تلتق بأجسادنا ، بل التقينا بأرواحنا .

ورفعت اليه عينيها فالتفت بعينييه ، ومرت بينهما نظرة تحمل في  
جوفها أشياء كثيرة ، نظرة من تلك النظرات التي تمر بين الرجل والمرأة

فتحمل الى كل منهما ذلك الشيء الذى لا يستطيعان الا فصاح عنه ، ذلك الشيء الذى يكمن فى القلوب ولا يمكن تبادله الا عن طريق العيون .

وفجأة أحس الفتى بوخز فى جانبه ، لقد خيل اليه أن صاحبه يرقبه ، صاحبه الذى يرقد فى جوف الصحراء على بعد مئات الأميال ، والذى كلفه أن يحمل رسالته الى خطيبته .

لقد أحس الفتى بأنه قد ارتكب فعلاً نكراً وأمرأ ادا ، فقد كان عليه أن يبلغ الرسالة ثم ينصرف الى مسيله ، ومع ذلك فقد ارتضى لنفسه أن يجلس قبالة الفتاة فيجاذبها الحديث ، ويبادلها نظرات الحب المختلطة ، ويخبرها أنهما قد التقيا بروحيهما - أزهق الله روحه وافرقت جسده - حتى يكف عن خيانة الأصدقاء !

ترى ماذا يقول عنه صاحبه ، وسائر رفاقه ، لو أبصروه على هذه الحال ؟ هب أن الفتاة قد راعت معه أصول الضيافة ، وأفرطت بعض الشيء فى مجاملته لأنه صديق خطيبها أفكان يحق له أن يستغل رقتها ، فيتمادى فى الجلوس معها ليمتع بصره بوجهها الجميل وجسدها الناضج ؟ أفكان يحق له أن يجلس ليسوق اليها ألفاظ الحب ونظرات الغرام ؟

لا . لا . لا . ليس هذا من شيم الرجال ، يجب عليه أن يتمالك نفسه ويؤوب الى رشده .

وفجأة نفض رأسه كما بنفض المرء رأسه عندما يصعد من جوف الماء ، ثم نهض واقفا وقال فى حزم واصرار :

- لابد أن أنصرف الآن ، لقد تذكرت أن لدى أعمالا هامة . وبدرت من الفتاة صيحة دهمش وقالت فى أسف :

- أترانى قد أزعجتك باصرارى على ابقائك ؟ انى جد أسفة !

وماء الفتى نظرة الحزن التى بدت فى عينيها ولكنه صمم على أن

يكون حازما .. وكسا وجهه قناعا من الجلد والصرامة ، ومد يده اليها مودعا دون أن يحاول النظر الى عينيها ، ولكنها أصرت على أن تودعه حتى الباب الخارجى .

وسار بجوارها ، ورأى نفسه بتخلف قليلا فيتمنى له أن يرقب جسمها البديع وشعرها المسترسل على كتفيها . انه لم يجد فى ذلك أى حرج . فما دام قد صد نفسه وكبح جماحها ، اليس له الحق فى أن يتزود منها بنظرة أخيرة ، ولو للذكرى ؟

وروقت الفتاة تودعه عند الباب الخارجى وما زالت تبدو فى وجهها علامات الأسف لرحيله السريع ، ولكنه شد على يدها وغادرها كأنه هارب من خطر داهم .

ولم يطلق الفتى أن يمنع نفسه عن التفكير فى الفتاة . ولحس بها قد ملكت لبه وشغلت ذهنه ، وتعذر عليه أن يطرد صورتها التى استبنت برأسه ، ولم يسهه أن يتهم نفسه بالسخف والجنون .. وأى جنون هنالك أكثر من أن يترك نفسه تنغمس فى التفكير فى فتاة ليست له ولا يمكن أن تكون له ؟ ان هذا التفكير فى خطيئة صاحبه يعتبر ضربا من ضروب الخيانة ، ولكن ما حيلته والأمر ليس بيده ! لقد ابتعد بنفسه عن الفتاة ، وقد كان فى استطاعته أن يتمتع بقاء أطول .. ولكنه كان آمينا على عهد صاحبه ، فولى الأنبار . أجل لقد نجح فى الفرار منها ، ولكنه الآن لا يستطيع الفرار من طيفها الذى ملك عليه نفسه .

ما أحمقه ! فيم هذا التعلق منه بالفتاة التى لم يرها الا مرة واحدة والتى كان يعلم سلفا أنها محرمة عليه وأن مجرد التطلع اليها ليس فيه شيء من الوفاء ؟ ولكنه مع كل ذلك استمر يفكر فيها .. حتى لقد بات من كثرة تفكيره فيها زاهدا فى هاته الفتيات اللاتى كان يحرق شوقا اليهن واللاتى كان يستحث الوقت وهو فى طريقه الى القاهرة لكى يتمتع بلقائهن .

وفى اليوم التالى وجد الفتى نفسه وقد أخذ يتلمس الأسباب والأعذار

لكى يزور الفتاة مرة أخرى .. وبدأ النضال بينه وبين نفسه .. يذهب أم لا يذهب ! لقد كان عقله يمنعه من الذهاب وضميره يحذره من أن يحيد عن جادة الصواب .. وكان قلبه يتحرق شوقا ، ويدفع به الى بيت الفتاة دفعا ، ولكن وجد نفسه أخيرا وقد وقف أمام باب الدار يضغط على الجرس !

وكان يحس بانضطراب شديد .. حتى لقد حمد الله حينما خرج اليه الخادم فأنبأه أن أهل الدار قد خرجوا .. وعاد أنراه وهو لا يكاد يصدق .. كيف ساقه جنونه الى أن يحاول العودة الى الفتاة .. وماذا تراه كان قائلا لها لو وجدها ؟

وأخيرا انتهت الأيام الخمسة ، دون أن يحس الفتى بتلك المتعة التي كان يتوقعها .

فقد أقص مضجعه طيف الفتاة .. وسلبه تفكيره اليأس فيها كل راحة ومتعة .

وفى اليوم السادس عاد الى الواحات البحرية ، وفى ذهنه شروذ وغروب بال ، وثلثاء رفاقه مهللين ، وسألوه فى لهفة أن يقص عليهم ما حمل من أنباء وأقاويص ، ولكنه لم يقص عليهم شيئا ، فقد كان به ميل الى الصمت وزهد فى الكلام .

كان صاحبه قد أبل من مرضه .. وأقبل عليه يسأله عن خطيبته وكيف وجدها ، وماذا قالت له ، وكيف استقبلته .. فأجابه فى اقتضاب أنها بخير وأن مرضه قد أحزنها ولكنه طمأنها قدر المستطاع .

ومرت الأيام فاذا بالفتى لا يسعده شيء كالجلوس الى صاحبه ليسمع حديثه عن خطيبته ، فقد كان يحس بمتعته فى سماع تلك الأحاديث .. حتى انتهى الأمر به الى أن يعرف عنها كل شيء .. وحتى بات يشعر بأنه

يعرفها معرفة وثيقة ، بل أنه ليعرفها كما يعرف أقرب الناس إليه ، أو كما يعرف نفسه .

وفي ذات أصيل جلس الفتى يرقب قرص الشمس الأحمر بخفتى ببطء خلف كتابان الرمال .. ولم يكن هناك أحب إليه من ذلك المنظر ، ولكنه في تلك الساعة لم يحس بذلك الوقع الجميل الذي تعود أن يحس به ، فقد حجبته عنه ستار كثيف من الحزن الذي شمل قلبه وغمر فؤاده .. ولم يشعر الا وهو يسأل نفسه : ترى أية روية سيؤدي إليها ذلك الطريق العجيب الذي يسير فيه ؟ وماذا يمكن أن تكون نهاية ذلك الحب اليائس الشبيه بحب الخيالات وعشق الأشباح . لقد بات أشد من صاحبه لهفة الى رسائل البريد .. لا لأنه ينتظر خطابا لنفسه بل لأنه ينتظر خطابا من خطيبة صاحبه لصاحبه .

لقد كانت في نفسه لهفة الى ذلك الخطاب ، فقد توقع أن الفتاة ستذكره فيه على الأقل لتخبر صاحبها أنها قابلته . ولم يكن بالطبع قد بلغ به الجنون حدا يتوقع أن تسوق الفتاة الى صاحبها كلمات الاعجاب به هو .. ولكنه توقع أنها ربما عرضت له فيه بكلمة مدح أو بكلمتين .. على أية حال ، وحتى لو لم تذكره البتة ، لقد كانت به لهفة الى أن يقرأ منها ويستمتع إليها حتى ولو كان كتابها وحديثها موجهها الى غيره .

وتلفت الفتى حوله فاذا بصاحبه يقبل عليه فجأة وقد تهلل وجهه بشرا ، وكانت مشيته من فرط فرحته تكون رقصا . وقد أمسك في يده رسالة كأنها تصريح بالدخول الى الجنة .

لقد كانت رسالة من خطيبته ، ما في ذلك ريب ولا شك وفقر الفتى من مكانه وعدا الى صاحبه .

ونظر اليه صاحبه وقد تجسم الهناء في قمصانه ، وبدرت منه صيحة .. ثم مد يده بالرسالة الى الفتى .

وأقيل الفتى على الرسالة يقرأها بشغف وشوق ، ونمادت أساريره  
فى الانبساط ، وبدأ عليه من دلائل السعادة أكثر كثيرا مما كان يبدو على  
صاحبه . ولم يكد ينتهى من قراءتها حتى اندفع الى صاحبه يحتضنه ويقبله  
كأن به مسا من جنون . وكان الفتى معنورا . فقد وجد فى الرسالة أكثر  
مما كان يتوقع !

لم توجه اليه الفتاة طبعاً كلمات حب ، حتى ولا اعجاب ، بل لم تذكر  
عنه شيئاً البتة . ومع ذلك فقد وجد الفتى فى الرسالة أكثر مما كان يحلم  
به ! أجل لقد كان فيه شيء عجيب !

ان الفتاة لم تذكر عنه شيئاً ، لا شيء الا لأنها لم تره .. أجل ..  
لقد قالت الفتاة أنها كانت خارج الدار ، وأن التى قابلته هى أختها  
الصغرى ! .

وكان هذا أكثر مما ينتظره الفتى .. فقد أحس بأن سحب اليأس قد  
تبديدت من حوله .. وأنه كان على شفا حفرة من الموت فأنقذ منها .

وبات الفتى ليلاً ساهراً .. فقد كانت سعادته أكثر مما يحتمل . وفى  
الصباح هدد الفتى من حوله ، أنه ان لم يسمحوا له بالذهاب الى القاهرة  
فورا لكى يخطب الفتاة .. فإنه سيذهب سيرا على الأقدام .

وعلم من حوله أن جنون الحب قد أصابه ، وأنه قد يفعلها . فسمحوا  
له بالذهاب .

وعاد الفتى بعد أن خطب الفتاة ، وفى ذات صباح ، بعد أسبوع من  
عودته .. كان موظف البريد يفتح مكتبه فإذا به يبصر الفتى وقد حمل  
حجراً آخر وضعه أمام المكتب بجوار حجر صاحبه . فعلم أن « مجانين  
البوستة » ، أو مجانين الهوى قد زادوا واحداً .

★ ★ ★

# المرسل

آه من هذه الظلمة التي شملتني ! .. وآه من  
هذه الوحدة المضيئة .. لم لا تترفق بنا  
الحياة فنكرر حوادثها مرتين ؟ .. فقد  
تعلمت الآن كيف أقول « نعم » دون أن  
أعطي دروساً في الحياة .

الى قارئى فى كركوك .. القارئ الذى طلب الى أن أكتب اليه قصة  
بعنوان « أمل » .. اهدى هذه القصة ، لأننى لا أستطيع أن أورد لواحد من  
أهل العراق طلباً ، فانهم جميعاً أعزاء على نفسى ، أحباء الى قلبى .

كان أول ما فضضته من الرسائل التي حملها الى البريد فى الصباح  
رسالة مليئة مكتظة وجدت بها خطاباً طويلاً قد شغل ما يقرب من خمس  
صفحات « فواسكاب » ، وأسرعت بقراءة التوقيع ، فوجدت المرسل  
صديقة لى لم تتعود قط أن ترسلنى ، اذ ليس بيننا سوى صداقة عابرة لا  
تستدعى أن يكتب أحدها الى الآخر .

ونظرت الى صاحبى الذى جلس على مقعد أمام مكتبى وقذفت اليه

بمجة ليتسلى بقراءتها حتى انتهى من قراءة الرسالة ، أو ، العرضحالة .

ثم بدأت القراءة ..

عزيزى :

لا أدري ما الذى دفعنى الى الكتابة اليك .. أنت بالذات دون سواك !  
بل لا أدري ما الذى دفعنى الى الكتابة أصلا .. ؟ وأنا التى لا أكره شيئا  
مثل كتابة الرسائل ، ولا أستطيع أن أخط سطرين متتاليين الا بعد مشقة  
وعناء .

ولكنى أحس الآن كأن نفسى قد شملتها ظلمة جالكة ، فأحاول -  
بالكتابة اليك - أن أتلصص فى تلك الظلمة من يؤنس وحتى ، ويخفف عنى  
وطأة هذه الوحشة المضيئة ، أجل .. أنى أحس فى الفؤاد جمرة متأججة ..  
لو طويت صدرى عليها وحسبتها فى أضلعي ، لتركتنى رمادا أو هشيما .  
هذا ما جعلنى أمسك بالقلم وأحاول الكتابة .. أما لماذا اخترتك أنت ،  
فلأننى فى حاجة الى من يستطيع فهمى ، والى من يستطيع فهم تلك  
العوامل النفسية التى تصطبغ فى نفسى والى من يكون لديه الصبر الذى  
يمكنه من قراءة رسالتى حتى النهاية فلا يصيبه الملل بعد قراءة أسطر منها  
فيلقى بها فى ضيق وتبرم ، ولا يكون نصيبى منه الا بضع كلمات ساخرة  
فائرة .

أنا أعلم أنك لم تملك شيئا لى ، فلا عزاء لى عندك سوى الكلمات ،  
ومتى كانت الكلمات تجدينا ؟ اننى كنت حمقاء ، فتركت الفرصة تفلت من  
يدى أو على الأصح ركلتها بقدمى ولا أظننها ستعود بعد ، فأسوأ ما فى  
الحياة أن الحوادث فيها لا تتكرر مرتين دائما ، فيتعظ الانسان فى المرة  
الثانية بما ارتكب فى المرة الأولى ، فان الفرصة لا تكاد تمر بنا وتفلت  
من أيدينا حتى يصيبنا الفرع ونصبح بها أن تعود ، لأنها تعلمنا كيف



نقتنصها ، وكيف لا نجعلها نقلت مرة أخرى .. ولكن هيهات .. انها لا تعود .

أنت لا شك تعرف الدكتور ( ... ) بل انى لأنكر انك كنت أول من عرفنى به ، عندما التقينا فى الصيف الماضى فى سيدى بشر ، وأنبأتنى ضاحكا بأنه طبيب أسنان و « نصاب » ، وطلبت الى الا أفكر أبدا فى الالتجاء اليه اذا ما أصبت « بوجع الضرس » ، لأنه سيفيقنى من « وجع الضرس » ويضيقنى « بوجع القلب » !

واستأدى ما الذى جعلنى أذكر قوالك الآن .. وتحذيرك اياى على ما كان به من هزل ومجنون ، وبالرغم من أنه لم يعلق بذهنى وقتذاك الا كما تعلق نكتة عابرة نافهة . أجل . أنه - على الرغم من هذا كله - يخيل الى أن الأيام قد حققت نبوءتك ، فأصبت منها بلوعة فى الفؤاد وحسرة فى القلب .

لقد بدأ الأمر بيننا بأن أصبت أنا فعلا « بوجع الضرس » ، ولم أكن أفكر قط فى الذهاب اليه ، لا لشيء الا لأننى قد نسيت ، ولكن المصادفة وحدها هى التى ساقنتنى اليه ، فقد قرأت اسمه ذات مرة على لافتة فى إحدى الدور ، ولم أر ما يمنع من الدخول . فقد كان هو وغيره لى سواء .

وعندما رأتى عرفنى للوهلة الأولى وأقبل على باسمى مرحبا ، كأن بيننا قديم ود وسابق تعارف ، وتكررت بعد ذلك زيارتى له ، وبدأت أحس نحوه بالثقة والاطمئنان ، فقد اعجبنتى فيه براءة مظهره ولطف معشره .

وذاث يوم أنبأتنى أن معه تذكرتين للأوبرا وأنه تسعده مرافقتى اياه ، وصمت هنيهة قبل أن أجيبه ، لقد كان الذهاب يسرنى ، ولكنى لم أعود قط أنى أخرج فى صحبة رجل غريب منذ وفاة زوجى ، أى مايقرب من ثلاث أعوام ، ووجدت هاتفا فى نفسى يكاد يقول نعم ، ولكنى وجدت فى القبول نوعا من الخيانة ، خيانة عهد قديم ، وحب ما زالت جنوره مغروسة

فى قلبى بالرغم من أن أوراقه قد جفت وتساقطت .  
وأجبت بهدوء أنه لا يمكننى مرافقته الى أى مكان ، هو أو سواء  
من الرجال ، وبدا فى وجهه شئ من الخذلان وخيبة الامل ، ولكنه  
سرعان ما عاد الى سابق فكاهته والى أحاديثه المرححة الضاحكة .

وفى تلك الليلة أصابتى أرق شديد ، فقد تيقظت فى نفسى نكريات  
هاجعة راقدة ، وعصف بى الحنين والشوق الى حبيب راحل نأى به الموت  
وأبعدته الأيام ، ووجدت القلب يناديه ويستعيد لياليه .

لقد تنكرت زوجى العزيز الذى كان يفيض بالأمل والحياة ، ونكرت  
أمانيه الحلوة التى نرتهاريج الزمن وتركها الموت هباء فى هباء .

تنكرت كيف احتوانى بين ذراعيه القويين ليلة الزواج ، وكيف  
سمعت همساته كأنها تغريد وترنيم ، « أنت زوجتى .. وسأحبك حتى آخر  
العمر » . آخر العمر ؟ . لقد كان يبدو حينذاك بعيدا نائيا ، لا تكاد تبصره  
العين أو تحس به النفس ، ولكنه مع ذلك كان قريبا منا ، أقرب مما  
نتصور ، فما مرت ثلاث سنين ، حتى أبصرناه على قيد خطوات ، أو قيد  
لحظات ، وأخيرا انتهى الأمر ، وأحسست بأن موته - وأنا فى السادسة  
والعشرين - كان بمثابة موت لى ، وكان لنا معا « آخر العمر » ..

ومرت الأيام وأنا لا أجد فى الحياة ما يستحق البقاء .. اللهم الا تلك  
النكريات الحلوة الهاجعة فى النفس ، والتى لولاها لكنت والموتى سواء ،  
واستطاعت الأيام بعد ذلك أن تبرىء جراح القلب وتخفف من لوعته  
وأساه ، ولكنها لم تستطع أن تقلع جذور الحب المتفرعة فيه ، ولم تستطع  
أن تمحو الحنين الهادئ الصامت الذى كان يجيش به .

ووجدتنى أستمريء الوحدة ، وأستطيب العزلة ، وحدة القلب  
وعزله ، وإن كان من التجنى أن أصف ما كنت فيه بالوحدة والعزلة ،  
اذ ما غادرنى طيفه لحظة واحدة ، وما كنت وحيدة بعد موته أبدا .

ولكن ما الذى أثار كوامن شجنى فى تلك الليلة ؟ وما الذى جعلنى أرق لا يغمض لى جفن ؟ أفعل بى ذلك مجرد دعوة وجهت الى فأشعرتنى أننى وحيدة ؟ أم بدأت نفسى الساكنة تتمرد وتثور ؟ .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك ، ثم ذهبت لزيارة الطبيب فأقبل على فى لهفة وشوق ، وألح فى هذه المرة أن أقبل دعوته الى السينما ، وأنبأنى أنه لا يستطيع أن يفهم سببا لرفضى ، الا اذا كنت أرفض صداقته ، وأرفض الثقة به .

ولست أدري حينذاك هل أصابنى ضعف أمامه فقبلت دعوته ، أم اننى قبلت دعوته لانى اقنعت نفسى بأن المسألة أتفه من أن أتهم نفسى بالضعف لقبولها ؟ وأن اخلاصى لزوجى الراحل لا يمكن أن يتأثر بأمثال تلك العلاقات البسيطة التافهة .. على أية حال ، وسواء أكان هذا السبب أو ذاك فقد قبلت الدعوة .

وصحبته الى الدار بعد انتهاء السينما ، وجلست بجواره فى العربة جنبا الى جنب ، وخيل الى أنى أحس بالكثير من السعادة ، وبالكثير من الرضا .. السعادة والرضا المشوبين بشيء من الخجل ، وبشيء من النهم ، وتأليب الضمير .

وفى هذه الليلة لم أذق النوم الا لماما ، ولم يضايقنى ذلك فقد كنت أحس بيقظة ممتعة ، وعندما كانت عيناى تغفلان كنت أرى أحلاما لذيذة ألتقى فيها بزوجى ، كما كنا نلتقى فى سابق عهدها ، ولكنى كنت أرى فى بعض الأحيان أن وجه زوجى قد أخذ يتبدل شيئا فشيئا حتى يصير شديد الشبه بوجه صاحبى الجديد .

واستيقظت فى الصباح وقد عقدت النية على ألا أذهب لزيارته مرة أخرى .

لقد كان من الحق أن أترك نفسى تندفع فى طريق مغلق . اننى

أصررت على ألا أتزوج مرة أخرى ، فمن العبث أن أحاول انشاء علاقة معه لا معنى لها ، ولا يعلم الا الله مداها ، ومن العبث أيضا أن أحاول خداع نفسي لأتركها عن بعد تتلمس المعازير التي أعلم الناس ببطلانها .

وخيل الى أنني استطعت أن أضع حدا للمسألة ، ولكن لم تكذ تمضي بضعة أيام حتى التقينا مرة أخرى ، ولكنه في هذه المرة كان هو الذي أقبل على في البيت ، وقد كست وجهه سيماء الخطورة ، وحمل حقيته في يده ، مدعيا أنه خشي أن يكون قد ألم بي ما منعتني من الحضور ، وهو يعلم أن أي تهاون في مسألة الضرر قد يؤدي بي الى التهلكة ، وكنت أعلم جيدا أن كلامه لا يعدو أن يكون كذبا في كذب لأن ضرسى لم يعد به أي شيء .

وقبل أن ينصرف أبنائي بأن هناك رواية « هائلة » في الأوبرا ، وأن مشاهدتها مفيدة جدا « لوجع الضرس » .

ونذهبت معه الى الأوبرا في ذلك المساء ، وبعد انتهاء الرواية جلست الى جواره في عربته ليوصلني الى البيت .

وفى الطريق توقف على شاطئ النيل هنيهة وأخذنا نتحدث ، وليس هناك شك في أنه محدث بارع ، فقد استطاع أن ينسيني بسرعة رغبتى في العودة ، وشيئا فشيئا زاد اقترابه منى ، ثم أمسك بيدي ، وبدأ حديثه يتحول الى همسات .

وهنا خيل لى أنى ان أستطيع أن أصف بالضبط تلك المرحلة الدقيقة التي مررت بها وقتذاك ، مرحلة الصراع النفساني العنيف ، والتأرجح بين الماضي والحاضر ، وبين الذكريات والحقائق .. أجل .. خيل الى أنى ان أستطيع أن أجعلك تفهمنى لأنى أنا نفسى لم أكن أفهم نفسى .

أترانى حقا أحب ذلك الذى أجلس الى جواره وأدع يدي فى يده ؟ ترى أن الشجاعة فقط التي تنقضى لتكون متعنى بحبه كاملة غير

منقوصة ؟ أترى لو استطعت أن أسدل الستار بينى وبين الماضى ، هل يذهب من نفسى تلك الشعور بالقلق ؟

أم .. أم ترى العكس هو الصحيح ؟ وأنى لو أسدلت على الماضى ستارا لما أحسست قط بمتعة أو غبطة ، لأن ذلك الشخص الذى أسمع همساته الآن ليس الا مرآة تنعكس فيها صورة زوجى العزيز الذى أحببته بكل ما تملك المرأة أن تحب ، وأن تلك النشوة التى أحس بها الآن هى ملكى أنا .. هى كائنة فى نفسى ، وكامنة فى قلبى ، وأن كل ما فعله ذلك الشخص الجديد هو أنه حركها ، فجاش بها القلب ، واصطخب الفؤاد .

وأحسست به يرفع يدى فيضعها على فمه ، ثم يسألنى أن اكون زوجته .

وأحسست برجفة تسرى فى بنى .. أنا ! . أنا أتزوج مرة أخرى ؟ ! أمذا هو الوفاء لزوجى الحبيب الراحل ؟ أيمكن أن استبدل بحبه حبا آخر ؟

ونظرت اليه ونزعت يدى من يده ، كأننى أراجع من على حافة هاوية ، ثم هزرت رأسى ببطء ، وأجبت هامسة :

« اننى قد أحببت مرة واحدة ، ووهبت قلبى ، فلا أستطيع أن أهبه مرة أخرى . أجل . لن أتزوج حتى آخر العمر . انى أحس بعزاء فى وحدتى » .

وأجابنى فى رقة وعطف : « ان من الجنون أن أفنى زهرة عمرى فى هذه الوحدة المضنية ، وأن القلب قد يحب مرة ، ولكنه يستطيع أن يحب مرة أخرى ، وأنه قد يذبل فترة ثم يعود الى الازدهار ، فحرام أن أقتل قلبى بىدى ، وأترك العمر يذهب سدى » .

وقلت له نبرات حالمة وكأنى أحدث نفسى :

- ان القلب لا يموت ما دام الاخلاص يغذوه ، وماذا يضيرنى أن  
يذهب العمر سدى ، ما دمت موقنة انه فى يوم ما عندما ينتهى العمر ،  
سألتقى بزوجى مرة أخرى ، وأضع يدى فى يده .. انى أحب الوحده لأنها  
لن تنسينى اياه .

ولم أسمع ينيس بكلمة بعد ذلك ، فقد غمرته موجة من الحزن  
والخيبة ، فأدار العربة وأعادنى الى البيت فى سكون واطراق .

ولا أدري ما الذى أصابنى مجرد أن افترقنا ، ولا أستطيع أن أفهم  
قط سر ذلك التبدل الذى داخل نفسى .. لقد جلست فى حجرتى وقد فاض  
بنفسى الحزن ، وتملكتنى لوعة شديدة ، فقد أحسست من حولى بفراغ  
ووحشة ، وخيل لى أنى فقدت شيئاً عزيزاً ، وتذكرت قول الرجل : ان  
القلب قد يذبل فترة ثم يعود الى الازدهار . .. أجل . ان قلبى قد بدا يزدهر  
مرة أخرى ، لقد كنت أحب الرجل ، لا شك فى ذلك .

، ولم أحس وقتئذ بغضاضة عندما اعترفت لنفسى بأنى أحب مرة  
أخرى ، ولم أجد فى ذلك أى نوع من أنواع الخيانة ، فما كان حبى لزوجى  
الراحل ليحول دون حبى الجديد . وما كانت الذكريات الجميلة المقدسة فى  
نفسى لتحرمنى متعة من متع الحياة التى يتمتع بها كل كائن حى . أجل ،  
ان للموتى حبا ، وللأحياء حبا آخر .

وهكذا انقلب ذلك الشعور بالقلق الذى كنت أحسه بجواره ، الى  
شعور بالحزن عندما فارقت ، وعندما بت أخشى أن أكون قد فقدته الى  
الأبد .

ولكن لا .. انى قطعاً لم أفقده ، فلا شك فى أنه سيعود ، ولا شك  
فى أنه سيطلب الزواج منى مرة أخرى ، وحينئذ سيجد منى مخلوقة  
أخرى ، وسأزِيل من نفسه مرارة الخيبة التى سببتها له فى المرة الاولى .  
ولكن الأيام مضت ، وهو لا يعود ، حتى بت أحس بقلق شديد ،

وحتى أفنعت نفسى فى النهاية بأنه من الخير لى أن أذهب أنا لأزىل من نفسه ذاك الئأس الذى سببته له ولأهبيء له فرصة أخرى .

وذهبت اليه فعلا ، بحجة أن « ضرسى » قد عاد يؤلمنى .

والنقىنا مرة ثانية ، ولبتنا ما التقينا ، فقد وجدته شخصا آخر ، لقد أقبل على فى برود ، وجمود ، كأن لم يكن بيننا شىء ، وظننته يحاول معاقبتى ، فقلت لنفسى : لا بأس ، فانى أستحق العقاب . ولكنه استمر ممعنا فى فتوره العجيب حتى لم أجد بدا من أن أحاول أنا من جانبى أن أقول شئنا أجدد به أمله فى أننى تغيرت ، وبدأت فعلا أتحدث عن مقابلتنا الاخيرة ، ولكننى رأيته يرفع الى رأسه ويقول فى صوت خافت :

- انى أشكر لك ذلك الدرس الذى علمتنيہ ، لقد أريتني مثلا فى الاخلاص ، وكنت فى حاجة الى ذلك ، فقد اعنت الى رأسى نكرى صاحبتى الأولى التى ظننت أن القلب يمكن أن يستعير بك عنها ، وأنه يمكننى أن أغذوه بك بدلا من أن أتركه يذوى ويموت ، ولكنك قلت أن القلب الذى يغذوه الاخلاص لا يمكن أن يموت ، وأن عزاءك فى الحياة هو أنه سيأتى يوم تلتقين فيه بصاحبك مرة أخرى ، فقلت لنفسى : لم لا يكون عزائى أنا الآخر هو أننى سألتقى بصاحبتي مرة ثانية ؟ أجل .. لقد أضحت الوحدة خيرا لى كما هى خير لك .

وأحسست ببرودة تسرى فى دمنى ، وبقلبي يهوى بين ضلوعى .. اذا فقد كان يحاول أن يتعزى بى عن صاحبتہ ! لقد كانت خيبة الأمل شديدة على نفسى !

ونمالكت ، وحاولت أن أدع ابتسامة ترتسم على شفتى ، ثم ودعته وافترقنا . لقد كان الخطأ خطئى ، أنا التى دفعت الى رأسه نكرى صاحبتہ ، لقد أعطيته درسا ما كان أقساه على نفسى .

آه من هذه الظلمة التي شملتني بعد ذلك ، وآه من هذه الوحدة المضيئة .. لم لا تترفق بنا الحياة فتكرر حوادثها مرتين ؟ لم لا تتيح لنا الفرصة مرة أخرى ؟ فقد تعلمت الآن كيف لا أدعها تغفل .. لقد عرفت الآن كيف أقول « نعم » دون أن أعطي دروسا في الحياة .

أترى الفرصة تعود ؟ لا أظن .. ولكن مع ذلك أعلل النفس بالأمل ، والا لما استطعت البقاء في قيد الحياة لحظة « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل » .

★ ★ ★

وأطبقت الرسالة ونظرت الى صاحبي بدهش شديد ، فقد كان هو نفسه الدكتور ( ... ) بطل هذه الرسالة .. وصحبت به متسائلا :

- ولكنني لم أسمع قط أن لك صاحبة قد توفيت .

ونظر هو الى بدهش أشد ، بعد أن ألقى المجلة من يده ، وهز رأسه مستوضحا ، ثم سألني :

- صاحبة توفيت ؟ لي .. أنا ؟

ودفعت اليه بالخطاب ، فأقبل على قراءته بلهفة شديدة ، ولم يكذ ينتهى منه حتى رأته قد عصفت به نوبة شديدة من الضحك .. ثم قال لي وهو يقفز من مكانه :

- لقد « انطلت » عليها .. لم يكن هناك بد من هذه الكذبة ، حتى أراد لها ذلك الدرس الذي حاولت أن تعطيني اياه ، وحتى أخرجها من تلك الوحدة التي كانت تحاول أن تطوى فيها نفسها ، لقد كانت كذبتني خير علاج لها ، ودواني بالتي كانت هي الداء . . لقد كنت أعرف أنها تحبني ولكن لم تكن لديها الشجاعة الكافية لأن تعترف بالحقائق ، وأن تسدل على الماضي ستارا ، فلم أجد خيرا من أدعى ان لي أنا الآخر صاحبة راحلة ،



وتكريات عزيزة ، فعصفت بنفسها الغيرة من صاحبة ومن التكريات ،  
وعرفت أن القلب يمكن أن يحب مرة ، وثانية ، وثالثة ، بل انه لا يكف  
عن الحب حتى يكف عن نبضه .

ورأيت صاحبي يدعو خارج الحجرة مسرعا ، فسألته الى أين ؟  
فأجاب :

- أعيد لها الأحوال ، وأعطيتها الفرصة مرة أخرى ، وأحقق لى  
ولها ، أملا ، يجيش في نفسنا .

★ ★ ★



# ترضية

كنت أعرف أنك هنا وكنت أقدرك  
وأحترمك . ولو تركولي لجئت اليك امرأة  
شريفة وأصبحت زوجتك أما وقد أصبروا  
على آرائهم وسخروا مني . فتعال . تعال .  
وهكذا قسم له القدر الاعتذار والترضية .

انطلقت منه ضحكة خافتة مليئة بالمرارة والسخرية ..

من كان يظن هذا ؟

من كان يخطئ له على بال أن القدر سيمعن في هزله وسخريته الى  
هذا الحد ؟ .

وعاد يقلب صفحات الصحيفة حتى استقر بصره مرة ثانية على  
الصفحة التي شغلته بصورها وأنبائها وقد تربع اسمها بالخط العريض على  
صدر الصفحة .

لقد كانت أمه في يوم ما ، أملا فريبا سهل المنال ميسور التحقيق ..  
أما الآن .. ا

وعانت الضحكة الساخرة المريرة تنساب من شفثيه .

أما الآن !

الآن ... الآن !

لشد ما خذله الزمن فى هذا الآن .. وخيب فيه آماله ، وبدد أحلامه .

كيف كان يبدو الآن ، عندما كان ينظر اليه من بعيد ، من سنوات خلت ، وقد وقف فى مطلع الصبا ومشرق العمر يتطلع اليه بذهنه الحالمة ونفسه اللهفى ، ويتصور ما وراء الغيب مليئا بالورود والأغاريد .

كان شديد الثقة بنفسه وبالأزمن .. ثقة قد بلغت حد الغرور واليقين .

وكان يجزم لنفسه أنه سيضحى رجلا ذا شأن ، ولم يكن يقنع فى آماله بالمطلب المعقول ، بل لم يكن يتصور نفسه مجرد طبيب مشهور ، أو مجرد محام ناجح .. بل كان واثقا أنه سيصبح شخصية بارزة .. زعيما أو قائدا أو فيلسوفا يشار اليه بالبنان .

كانت الآمال تداعب نفسه كما تداعب نفس كل انسان ، وكان يستقبلها فى استسلام ودعة وحبور ومتعة .

كان يتخذ من أمانيه وسيلة لفترات رغد ، ولحظات هناء .

حتى لقيها . فاذا بالمنى تلح على نفسه ، وتصر على أن تصبح - من أجلها - حقيقة واقعة .

رأها أول مرة عند عودته من المدرسة وقد وقفت مع لذاتها بالمرایل السود أمام باب المدرسة الايطالية القريبة من دارهم تهم بركوب السيارة المدرسية .. وتوقف برغمه فى مكانه ووجد بصره يتبعها حتى تستقر فى مقعدها ، واستدار رأسه مشيعا السيارة حتى اختفت فى أول منعطف .

كانت وقتذاك نسيج وحدها .. لقد جذبها وجهها بين عشرات الوجوه المتشابهة ، فلم يبصر سواه أو ينكر غيره .

وجلس للاستنكار ، فوجد وجهها يرسم على كل صفحة وأممك  
بالقلم يحاول أن يرسمها من الذاكرة .. وهل كانت الذاكرة تعي حينذاك  
سواها ؟

رسم أنفها الدقيق ذا الطرف الأشم المرفوع ، ورسم شفيتها  
القرمزيتين المطبقتين في ضيق وامتلاء ، ورسم شعرها الذهبي ذا الجداول  
المترامية على أكتافها .. رسم كل هذا على الورق عشرات المرات ،  
ورغم مهارته في الرسم فما استطاع مرة واحدة أن ينجح في نقل تلك  
الصورة المطبوعة في ذهنه إذ عجز أن ينقل بريق العينين وهالة الضوء  
المحيطة به .

كان وقتذاك طالبا بمدرسة شبرا الثانوية ، وكان يقطن في بيت يطل  
على حديقة طوسون . وكان يتخذ طريقه دائما الى المدرسة عبر الحقول  
المليئة بالقصب والخضروات في ذلك العمر الضيق المسمى « دهليز  
طوسون » ، ولكنه منذ أن رآها بدا يغير طريقه ويضيف اليه لفة واسعة  
حول المدرسة الإيطالية ويضبط مواعيده بحيث لا يخطيء قط رؤيتها وهي  
تصعد الى السيارة أو تهبط منها . أما في أيام الجمع فقد كان يجول حول  
المدرسة عله يلمحها من بين فتحات السور تلهو مع أترابها في حديقة  
المدرسة .

وهكذا بدأ يضيفها الى قائمة أمانيه ويضعها ضمن المنى التي يعيش  
بها « زمنا رغدا » . والتي كان يجتر منها متعه اذا ما خلا الى نفسه في  
جلسته المحببة في سكون الليل والأهل نيام ، وقد اتكأ برأسه الى حافة  
المقعد ومد ساقيه على سور الشرفة وأخذ يقلب البصر بين السماء  
والحقول ، وينصب الى حفيف الريح تعبت بأطراف أعود القصب وتسرى  
بينها كموج هادئ ، ومن أن لآخر يتعالى صوت نقيق الضفادع ، أو  
هبوط قط تتسلق السور المغطى بأوراق اللوف .

ورويدا رويدا أخذت تتمدد في ذهنه وتتضخم في قلبه حتى انحلت كل تفكيره ، وتضاءلت بجوارها كل أمانيه .

لقد علمه الزمن بعد ذاك الكثير عن النساء ، ولقى منهن شتى أنواع المتع ، ولكنه لا يذكر أن مخلوقة واحدة استطاعت أن تهيبه ذلك النوع المسكر المنشى ، الذى كان يحيطه بجو عاطر مزدهر .

كان لا يقارنها الا بزهر الخوخ البمبى المعقود بأطراف الأغصان الجرداء ، وكانت تبدو له جزءا من الطبيعة لا صلة لها بالبشر ، اذا حملت اليه أريج زهر البرتقال ، فهو عبيرها ، واذا ما وصل الى مسامحه هديل الحمام ، فهو همس شفيتها .

وظل حبها كامنا في نفسه مطويا بين جوانحه ، وهو قانع بمجرد مراقبتها من بعيد ، موقن بأنها لا تحس له وجودا ، حتى أبصرها ذات يوم عقب خروجه من احدى دور السينما ، وقد جلست فى عربة تقف فى شارع فؤاد أمام شيكوريك ، فوقف يحملق فيها مشدوها ، وكانت هى مشغولة عنه بمراقبة الطريق والمارة ، ولكن أختها الصغيرة كانت تجلس بجوارها فدفعتها بمرفقها تنبها الى ذلك المشدوه الذى يحملق فيها ، وأدارت اليه رأسها فارتسمت على شفيتها ابتسامة خفيفة ، وعلا وجهها احمرار شديد .. وسرعان ما حولت عنه بصرها مرة ثانية .

لقد عرفته ! ان بسمتها واحمرار الخجل .. يجزمان بأنه يعنى شيئا لديها .. وأنها قد أخذت بمرآه كما أخذ بمرآها .

وهكذا أخرجه ذلك اللقاء العابر من انطوائه .. وجعل حبه يتخذ دورا ايجابيا .. ومنحه ما كان يفقده من الشجاعة والثقة .

وبدأ بعد ذلك دور التجاوب بالنظرات والتفاهم بالعيون وطال به ذلك الدور وهو مغرق فى نشوته ، يود لو أعلن لكل من لقيه أنها قد أصبحت

و ذات يوم حدثت المعجزة التي لم يكن يتصور وقوعها ، و رسم له  
القدر طريق الوصول اليها .

وكان ذلك فى احدى الزيارات العائلية .. فقد ذهب وأسرت له لقضاء  
اخذ أيام العطلة فى منزل خالته بمصر الجديدة وعقب الغداء أخذت ابنة  
خالته تعرض عليه « ألبوما » مليئا بصورها هى ورفيقاتها فى المدرسة ..  
وفى وسط الوجوه المحتشدة أبصر بوجهها يضىء على الورق .  
وأمن النظر فى الصورة برهة .. ثم تمالك نفسه وسألها عن صاحبة  
الصورة .

فأجابت وهى تقلب الألبوم :

- انها منى حسين ابنة زكى بك حسين مدير مصلحة ( ... ) لقد  
كنا معا فى « ألبون باستير » .

- فتاة لطيفة .

- أتعرفها ؟

تعرفه وأنها بسمت له ، وأضحى ككل عاشق يتوهم أن نظرتها اليه تعنبر  
حدثا فى تاريخ البشر .

ولم يكن يستطيع أن يتصور ماذا يمكن أن يحدث بينهما بعد ذلك ،  
ولا كان يخطر على باله أنه يمكن أن يحدثها فى يوم من الأيام .. وهو  
الانسان الخجول الكتوم ، القليل الخبرة بأحوال الحب .

كيف يصل اليها وهو لا يراها الا خارجة من المدرسة أو راكبة  
السيارة ؟ وكيف يأمل فى لقائها وهى .. فيما يبدو ، من نوع ارسنقراطى  
لا يكاد يخرج الا فى عرية .. ان الأمر يحتاج الى معجزة وهو لا يعتقد  
أنه يعيش فى عصر المعجزات .

- رأيتها بضع مرات فى المدرسة الايطالية التى تجاور بيتنا .
- أتعجبك ؟
- جدا .
- وتضحك الأثنان .. وقالت الفتاة :
- لقد تعلمت الشقاوة .
- هذه تهمة ظالمة . انى لم أرها الا من بعيد .
- ثم صمت برهة وأردف متسائلا :
- أما زلت تعرفينها ؟
- لقد قابلتها منذ يومين .. ودعتنى لزيارتها ، وعاتبتنى على عدم السؤال عنها .
- ولم لا تسألين عنها ؟
- لأنى لم أكن أعلم أنك مغرم بها .
- والآن ؟
- والآن أسأل كل يوم .
- وتزورينها ؟
- وماذا يهمك من زيارتى لها ؟
- لكى ترد الزيارة .
- آه .. فهمت .. وسيصافى وجودك بالطبع ساعة زيارتها ؟
- اذا كنت تتكرمين .
- أيتها الخبيث .. ماذا تريد منها ؟
- رؤيتها والحديث معها .



- فقط ؟

- فقط ، وأدفع نصف عمري .

- لا داعي لنصف عمرك .. أحتفظ به لمرة ثانية ، سأريك إياها  
مجانا لوجه الله .

- متى ؟

- احضر الى يوم الأحد القادم .

- أو ائقة أنت من احضارها ؟

سأبذل جهدى .

وفى اليوم الخالد ذهب ممسكا قلبه من فرط الالهفة والخشية .

انه يذكرها يوم ذاك ، جميلة ناعمة هائلة ، قد جلست تنتظر اليه فى  
دمش وخجل ، وقد أخذت ابنة خالته تقوم بواجب التعريف بين الاثنين .  
ولم تمض برهة على لقائهما حتى كان كلاهما يقول على صاحبه  
وكان بينهما ودا قديما .

وتكرر اللقاء بينهما بعد ذلك فى بيت خالته ، ثم تحايلا على اللقاء  
وحيلين .

كان وقتذاك فى الثامنة عشرة ، وكانت هى فى الرابعة عشرة ، ومع  
ذلك فقد كانا فى حبهما أبعد ما يكونان عن الطيش والنزق واللهو ، كان  
كل منهما أعقل وأكبر من سنه ، وكانا فى تفكيرهما جادين كل الجد ،  
ساميين كل المسمو .

كان أمامه سنة فى المدارس الثانوية ، وكان من رأيه أن يدخل السلك  
العسكرى حتى يسرع فى التخرج لكى يقرب موعد زواجهما ، ولكنها كانت  
ترى أن يدخل الهندسة ، فقد كانت تريده مهندسا بارعا عظيم الشأن ، ولم

نكن ترى هناك ما يدعو للعجلة ، ما دام كل منهما يرى صاحبه وينعم بلفاته .

واقنع برأيها ، وبدأت أمانيه التي لم تكن تعدو مجرد أمانى يسلى بها نفسه ، تتحول الى هدف لا بد من تحقيقه ، فقد كان يحس أن أباهما أرفع من أبيه شأنًا ، وأن أسرتها من الطبقة الارستقراطية ، ولهذا فقد ود أن يكون أهلا لها حتى يسهل على أسرتها قبوله ، وحتى يكون ندا لها .

لقد كان واثقا منها ، ولكنه رغب فى أن يجنبها معارضة الأهل .. وهو لا ينكر أنه اندفع فى عمل كما اندفع وقتذاك فى الاستنكار والتحصيل والسهر .. لقد صمم على أن يكون انسانا ذا شأن ، وأن يكون أرفع من أبيها الذى أصبح وقتذاك وكيل وزارة .

ولم لا ؟

انه يستطيع أن يكون جراحا نابغة ، أو مهندسا بارعا ، أو محاميا شهيرا ، ويستطيع أن يصيب من الثراء ما يهيىء به لها حياة أكثر رغدا من حياة أبيها .

أجل ! أنها تستحق كل خير ، ولا بد أن يهبها ما تستحق .

تلك كانت آمنيات الصبا ، ورغبات التلمذة .

ماذا فعل بها الزمن ؟

لقد نراها بنفخة واحدة .. لقد ضيعها بددا .

لقد رزقه بالمصائب من حيث لا يحتسب .

فى ذات يوم ، صعدت مع ملايين الأرواح الصاعدة الى السماء روح أبيه .

لقد مات أبوه فى يوم الامتحان ، ومع ذلك فقد اجتازه ونجح الى

السنة الخامسة ، ولكن الاستمرار في الدراسة كان أمرا متعذرا .. فقد مات أبوه دون أن يخلف لأسرته سوى مكافأة ضئيلة .. وكان عليه أن يعمل لكي يكسب قوته وقوت أسرته .

ونجح بعض الأقارب في الحاقه بوظيفة كتابية .. ولكن كان عليهم أن ينتقلوا من بيتهم الى بيت أقل أجرا .. وأن يضغطوا مصروفاتهم بما يتناسب ودخلهم البسيط المحدود .

وهكذا غادروا الحى .. فقد عز عليهم أن ييئزوا أمام المعارف بمظهر الأذلاء المحتاجين .

وهو ينكر لقاءها بعد وفاة أبيه .. وينكر عزاءها له وتشجيعها إياه .. وينكر شحذها لعزيمته واستنهاضها لهمة .. وقولها له أنها ستنتظره حتى يحقق آماله .

يحقق آماله ؟ كيف ؟ وبم ؟

لا . لا . لقد كان من الجنون أن يحاول التمسك بآمال حطمتها الزمن .. ان عليه أولا وقبل كل شيء ان يطعم أسرته ويكسوها .. أما غير ذلك فيجب أن يطرح من الذهن .

ومرت الأيام وهو فى مهمته الجديدة مرهق مكثود .. لقد كان أجره من وظيفته نافعا بالنسبة الى المطالب التى يجب عليه أن يؤديها لأسرته .

وفى ذات يوم منحت له فرصة هيات له مخرجا من تلك الحاجة والعوز .. ولكنها لم تكن فرصة خالصة .. بل كانت تحوطها بعض المساوئ التى تحتاج الى موازنة وتفكير .

لقد كانت وظيفته ساق فى أحد الفنادق الكبرى .

أجل .. ليس ساقيا ، أو رئيس سقاء ، أو يسمونه ما شاعوا ولكنه لا يزيد على « جرسون » .

يا للسخرية ! .

أهذا هو المركز العظيم الممتاز الذى كان يتوقعه لنفسه ؟ لا .. لا ..  
انه لن يقبل .

ولكن الأجر كبير ، وأسرته فى أشد الحاجة اليه وهو عمل شريف  
لا غبار عليه .

لا . لا . يجب أن يقبل . ان رفضه اياه هو الأتانية بعينها .

وماذا يخشى على نفسه منه ؟ وممن يخشى ؟

يخشى من مخلوقة واحدة !

هى ..

ماذا تقول اذا علمت أنه قد أصبح « جرسونا » ؟

ولكنه لن يخبرها .

لقد انقطع عن رؤيتها ، ووطن العزم على نسيانها ، فقد كان من  
الخبيل أن يأمل فيها .

وهكذا قبل العمل الجديد .

ومرت به الأيام الأولى فى عمله وهو مرتبك خجل ، ولكنه بدأ  
يتعوده شيئا فشيئا ، حتى اطمأن اليه ، ولم يعد يرى فيه ما يهدر كرامته ،  
ما دامت هى على الأقل لا تعرف .

وهكذا مر به الزمن ، وهو لا يحاول السؤال عنها أو معرفة  
أخبارها ، حتى فوجئ اليوم برؤية صورها فى الصحف وبقراءة أنباء  
زواجها من أحد أرياب الثروات والمراكز فى مصر .

وهكذا أصبحت علما من الأعلام تكتب فى صدور الصحف أنباء

ذهابها وإيابها ، وتوصف حركاتها وسكناتها وترسم فى كل حال لها وترحال .

ولم يشعر من زواجها بحزن .. فقد كان يشعر أنه قد فقدتها من زمن ، وأن من المسخف أن يحاول التطلع إليها أو الحزن على فقدانها .. لقد تراكمت ثلوج اليأس على قلبه . فما عاد يهفو لفرجه أو يرجف لحزن . وناداه ذات صباح رئيس الفندق وأخبره أنه يثق فى ذوقه ومقدرته ، وأنه لذلك سيعهد إليه بخدمة نزول عظيم سيحل بالفندق لقضاء شهر عسل هو وزوجه .

وأحس بقلبه يدمى ، فقد رأى أن سخرية القدر قد بلغت أشدها ، وحاول أن يعتذر ، ولكن صاحب الفندق أبدى دهشة وأصر على أن يتولى هو خدمتهما .

ولم يكن أمامه سوى الرضوخ والرضاء بالأمر الواقع ، والتعزى بالمثل : ماذا يضير الشاة من سلخها بعد نبحها ؟ .

ولم يعد له سوى أمل ضئيل يتعزى به ، وهو أن تكون قد نسيت . وهكذا وقف ينتظر مقدمتهما ، ووقفت العربة الفخمة أمام الباب ، وهرع الخدم يفتحون الباب ، ونزلت هى وزوجها تتهادى فى عظمة . واشتدت ضربات قلبه ، وأطرق الى الأرض .

يا للقلب الذى لا ينسى ! . انه يتخبط فى صدره .. لقد تخلص من ثلوج اليأس وعاد يهفو ويصفق .

انها هى .. هى .. بطوطوفة أنفها وشفتيها القرمزيتين وشعرها الذهبى .

وهذا هو زوجها ، بوجهه المنتفخ ، ولغده المتكلى على صدره ، وبطنه المتكلى على ساقيه ، ورأسه اللامع البراق .

لعن الله المال .

ان هذا الخنزير الأبيض لو قدر بغير ماله ، لما وازى ثمنه أكثر من خمسة وعشرين جنيتها هي ثمن ملابسه .

ويحه ! انها لا شك قد نسيته ، أو أنها تتعمد انكاره وتجاهله .

وماذا كان ينتظر سوى هذا ؟

هل كان يتوقع أن تهجم عليه فتوسعه أحضانا وتقبيلا ؟

كيف يمكن أن تعامل مليونيره مثلها سافيا مثله ؟

وأحسن بالذلة والمسكنة . انها لا شك معذورة في تصرفها ولكن أما كان يجب أن تمنحه نظرة معرفة لا يحسها سواه ! أكثر عليه أن تمنحه مجرد نظرة تعارف ؟

ومضى اليوم وهو قائم بالخدمة ، وهي لا تكاد تحس له وجودا ، ولا ترى فيه الا واحدا من الخدم .

لقد كان عليه أن يحتفل شهرا من الازلال .

وفي المساء هبط الخنزير الأبيض وحده الى قاعة العشاء ، ثم انتقل بعد ذلك الى حجرة الورق وانهمك في اللعب .

وبعد هنيهة أنبأه أحد الخدم أن السيدة تريد العشاء في حجرتها ، وأنها تطلب أن يحمله هو اليها .

هو بنفسه ! أجل .. انه امعان في الازلال .. لم ؟ وماذا فعل ؟

ولكن لا بأس عليه .. أنه سيصمد أمام عاصفة الازلال . ماذا يضيره أن يحمل اليها العشاء ؟ أليس خائما ؟

وهكذا حمل الطعام ، ووقف بطرق باب حجرتها فصاحت به :

- أدخل - أدخل .

وفى الحجرة وجدها واقفة تنتظر ، ووضع الطعام على المائدة وهو مطأطئ الرأس دون أن ينظر اليها ، ثم استدار وهم بالخروج ، ولكنها قالت هامسة :

- تعالى .

وواجهها رافعا رأسه ، فعادت تهمس :

- اقترّب .

واقترّب منها حتى تلاصقا ، وأمسكت بيده فضغطت عليها فى حرارة وأردفت هامسة :

- دعنا نسخر منهم جميعا .. دعنا نسخر من القدر الساخر .. ماذا كنا نريد أكثر من شهر عسل فى مثل هذا الفندق ؟

وتردد برهة .. فقد سلبته المفاجأة صوابه ، ولكنه سرعان ما مد ذراعيه يضمها اليه وأطبق على شفتيها .

ثم رفع شفتيه برهة وأخذ يتمتم فى ذهول :

- ظننتك نسيّتى .

- أنا أنساك ! لقد صمت على انتظارك فسخروا منى . وعندما تقدم هذا « الشوال » من الذهب لخطبتى كادوا يجنون من الفرح ، واعتبروها فرصة العمر .. وكان من الجنون أن أحاول مقاومتهم .. فاستسلمت .

لقد ضحوا بى فى سبيل أغراضهم ، لقد تزوجوا هم صاحب الملايين ، أما أنا فقد كنت طعما لصيدهم ، كانوا كلهم مغرضين غير شرفاء ، فلماذا تكون نحن وحدنا شرفاء ! لقد سخر منا القدر عندما حاولنا

أن يسلك كل منا الى الآخر سبيلا شريفا ، وصمم على أن يضع بيننا هذه  
القنطرة من المال ، فلم نعبرها ؟ كنت أعرف أنك هنا وكنت أقدرك  
وأحترمك ولو تركوني لجئت اليك امرأة شريفة ، وأصبحت زوجتك . أما  
وقد أصدروا على آرائهم ، وسخروا مني .. فتعال .. تعال .

أخذها مرة أخرى بين ذراعيه .

وهكذا قنم له القدر الاعتذار والترضية ، وهياً له شهر غسل على  
غير انتظار .

★ ★ ★



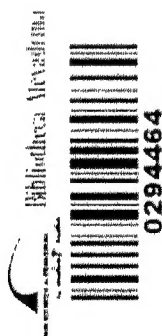
## للمؤلف

- |                    |                         |
|--------------------|-------------------------|
| ( ١٩٤٧ قصص قصيرة ) | . . . اطيحاف            |
| ( ١٩٤٧ رواية )     | . . . نائب عزرائيل      |
| ( ١٩٤٨ قصص قصيرة ) | . . . اثنتا عشرة امرأة  |
| ( ١٩٤٨ قصص قصيرة ) | . . . خبايا الصدور      |
| ( ١٩٤٨ قصص قصيرة ) | . . . يا امة ضحككت      |
| ( ١٩٤٩ قصص قصيرة ) | . . . اثنا عشر رجلا     |
| ( ١٩٤٩ رواية )     | . . . ارض الذئاق        |
| ( ١٩٤٩ قصص قصيرة ) | . . . في موكب الهوى     |
| ( ١٩٤٩ قصص قصيرة ) | . . . من العالم المجهول |
| ( ١٩٥٠ قصص قصيرة ) | . . . هذه اللقوس        |
| ( ١٩٥٠ رواية )     | . . . انى راحلة         |
| ( ١٩٥٠ قصص قصيرة ) | . . . يبكي العشاق       |
|                    | بين ابو الريش وجنيبة    |
| ( ١٩٥٠ قصص قصيرة ) | . . . ناهيش             |
| ( ١٩٥١ قصص قصيرة ) | . . . اغنيات            |
| ( ١٩٥١ مسرحية )    | . . . ام رتيبة          |
| ( ١٩٥١ قصص قصيرة ) | . . . هذا هو الحب       |
| ( ١٩٥١ قصص قصيرة ) | . . . صور طبق الأصل     |
| ( ١٩٥٢ رواية )     | . . . بين الاطلال       |
| ( ١٩٥٢ رواية )     | . . . السقا مات         |
| ( ١٩٥٢ قصص قصيرة ) | . . . سمار الليالى      |
| ( ١٩٥٢ قصص قصيرة ) | . . . الشيخ زعرب        |
| ( ١٩٥٢ قصص قصيرة ) | . . . نفحة من الايمان   |
| ( ١٩٥٢ مسرحية )    | . . . وراء الستار       |
| ( ١٩٥٣ قصص قصيرة ) | ست نساء وستة رجال       |
| ( ١٩٥٣ قصص قصيرة ) | هذه الحياة              |

( ١٩٥٢ )	رواية	البحث عن جسد
( ١٩٥٢ )	مسرحة	جمعية قتل الزوجات
( ١٩٥٢ )	رواية	فديتك يا ليلي
( ١٩٥٣ )	قصص قصيرة	لياسة خمير
( ١٩٥٣ )	قصص قصيرة	همسة عابرة
( ١٩٥٤ )	رواية في جزأين	رد قلبي
( ١٩٥٥ )	قصص قصيرة	ليسال ودودع
( ١٩٥٦ )	رواية	طريق الدودة
( ١٩٥٧ )	مقالات	أيام تمر
( ١٩٥٨ )	مقالات	من حياتي
( ١٩٥٩ )	مقالات	لطمات ولثامات
( ١٩٦٠ )	رواية في جزأين	ناديسة
( ١٩٦١ )	رواية في جزأين	جفت الدودع
( ١٩٦١ )	مقالات	أيام مشرقة
( ١٩٦١ )	مقالات	أيام وفكريات
( ١٩٦٢ )	مقالات	أيام من عمري
( ١٩٦٤ )	رواية في جزأين	ليل له أخير
( ١٩٦٦ )	مسرحة	أقوى من الزمن
( ١٩٦٦ )	رواية في جزأين	نحن لا نزرع الشوك
( ١٩٧٠ )	رواية	لست وحدك
( ١٩٧٠ )	مقالات	من وراء الغيم
( ١٩٧١ )	مقالات	أيام عبد الناصر
( ١٩٧١ )	رواية	ابتسام على شفتيه
( ١٩٧١ )	رحلات	طائر بين المحيطين
( ١٩٧٢ )	قصة	العمر لحظة



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة



الثلث ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة  
بيروت - سورية